http://arabicivilization2.blogspot.com
Amly

من مؤلفات
أحمد الشيخ

- رسام الأرانب — مجموعة قصصية
- نصف الساعة الصعيد — مجموعة قصصية
- ملاعيب الأكابر — مجموعة قصصية
- خطافة العيال — مجموعة قصصية
- سيرة العمدة الشلبي — رواية

رباعية كفر عكسر

[٤]

سيرة العمدة الشلبي

http://arabicivilization2.blogspot.com
Amly

ومن قبل زمان العمدة الشلبى بزمان وزمان حكم الكفر عمد أشكال وألوان، ولكل عمدة حكاية ورواية وسيرة وشهود، تنفتح السيرة فيتسابقون على تذكر ما كان وما جرى للكفر وناسه على أيام العمدة فلان ابن فلان الفلانى، وقد يحلو للواحد منهم أن يكمل الحكاية للآخر فلا يغضب أو يعترض أو يصحّح فى تواريخ الأحداث ودلالاتها، كأنما تحولت كل سيرة فى ذاكرتهم إلى كتاب مفتوح ومحفوظ للكل، يصدُق من قال قبلنا أن البنى آدم سيرة، ينتهى العمر وتزول النعمة وتضيع الهيبة والثروة وربما ينقطع دابر الخلفة ولايتبقى غير السيرة، والناصح الناصح هو الذى يفهم ملاعيب الدنيا ويحتاط منها، والغشيم الغشيم هو الذى تفتنه المظاهر فيفلت منه الزمام، تندفن سيرته وهو حى فى قلوب الناس وعقولهم، وإذا مات ينضاف لاسمه صفة أو صفتين ذميمتين وينتهى الموضوع بعد فترة تطول أو تقصر تجلده خلالها وتلسعه الألسنة النمّامة فتسوّد الأسود والرمادى فى حياته وتطول المساحات

البيضاء أيضًا، وربما يكتفون إذا نبَّههم عاقل بأنه بعد سقوط البقرة تكثر السكاكين الحامية والباردة على حد سواء فيتنهدون بسماحة ويستغفرون عن ذنوبهم وذنوبه.

* * *

أنا نفر فى الهامش الساكت من كفر عسكر، اسمى فلان الفلانى ابن فلان الفلانى وفلانة الفلانية، ربما كنت معدودًا ومحسوبًا لأننى انولدت فيه، افترشت أرضه وتغطيت بسماه، من خيره حصلت على رزقى وعشقت ناسه وبناياته ومواشيه وطيوره وأرضه البراح وطيوره وزمام غيطانه المزروعة بالخير والناقص فيها الخير، وربما تكون إرادة المولى جلَّ وعلا فى سماه هى التى أوحت لى بأن أكون راويًا لكم من غير «ربابة»، يحكى لكم سيرة العمدة الشلبى وسيرة الكفر فى أصعب أيامه، وربما أكون قد أوهمت نفسى عندما ركبتنى الفكرة ذات مساء عسير قاومتها خلاله ونفضتها عن نفسى لكنها غلبتنى وركبتنى فى غفلة منى ، فصرت ولا مؤاخذة مثل الحمار المركوب بالمقلوب وقد طوَّع نفسه وتآلف مع من اعتلى ظهره، ولابد أننى ركبت حمار حياتى بالمقلوب فانكتب علىَّ أن أنظر إلى الأشياء بعد حدوثها أو بعد الأوان المضبوط، أراها وهى ترمح منى وتنفلت لحظة بلحظة دون أن أمتلك القدرة على إيقاف الحمار أو التحكم فى مساره لأننى أنمنعت من مسك اللّجام، لكننى برغم كل المكابدات كنت أنعم بقدرتى على تأمل الأشياء على مهل وقد انفردت أمامى صور الناس والبنايات

والمسافات والأشياء، صحيح أنها بينما كانت تتباعد كانت تتضاف إليها أجزاء جدديدة، لكنها تبدو ثابتة ومفتوحة فى ذات الوقت، وكان يحق لى أن أدقق النظر إلى الخفيرين السائرين بأمر حضرة العمدة وراء الحمار يحرسانه ويحرسانى وقد حمل كل منهما سلاحه على كتفه متباهيًا بتبعيته للحمار، تتداعى الناس بكسل للفرجة على الجرسة وفى عيونهم تكذيب فاتر لم يصل إلى حد الاعتراض، كانت خطوات الحمار منتظمة ورتيبة وحسنين المدندش يحدى بآلية للعيال ويردون عليه لتكتمل مراسم الجرسة، هل كنت أنا راكب الحمار بالمقلوب فعلاً أم أنها كانت مجرد تهيؤات وخيالات شاغلتنى أو شغلت ذاكرتى، ربما أكون قد توهمت وربما أكون بالفعل ركبت حمار الجرسة بالمقلوب أو كدت أركبه، كل هذا لايهم الآن، والذى يشغلنى هو تلك الحقيقة المؤكدة والتى يلزم أن أبوح لكم بها ولنفسى فى ذات الوقت:

- لقد ركبت حمار حياتى نفسها بالمقلوب، سبحت عكس التيار فخسرت مكاسب وكسبت روحى، وتبدى لى فى ساعات التجلى أننى اخترت أنسب طريقة لركوب الحمار، ولأنه لكل كفر من كفور هذه الدنيا الواسعة طريقة تليق به وتناسب ناسه، فقد كان على مع ناس كفرنا أن نكتشف أنسب الطرق للحياة فى الكفر الشلبى والزمن الشلبى والناس الشلبى بالعمدة الشلبى.

يرجع مرجوعنا لمسألة ركوب الحمار بالمقلوب لأنها أساسية، ربما تكون مساوية للكلام بالمعكوس، الكلام الهادىء الناعم المؤدب

الذى لاغبار عليه ولا اعتراض وقد أنعجن بالفعل الخسيس الغادر الخوان، شىء يشبه حضن الثعبان الشراقى الأزرق أو غش اللبن والعسل والسمن أو الشهادة الزور التى تطير الرقاب، طيب، إذا كان كل شىء أمامك مقلوبا فكيف تركب أنت حمارك بالمعدول؟ ربما يكون من الأفضل والأنسب أن تركبه بالمقلوب، صحيح أن الحمار سوف ينعم وحدة برؤية الدنيا معدولة ومفتوحة أمامه فيعبر الكبارى أو يتخطى التراكيب والقنوات الضيقة أو ينحنى مع الطريق إذا انحنى وقد يتمكن من تحاشى جذع شجرة أو نخلة أو حافة مصطبة، وإنه بالقطع سوف يتمكن من التباعد عن «معجنة» طين تختمر على مهل جنب جدار أو حرف مدار ساقية أو سلاح محراث، وكل هذا مطلوب من أى حمار فاهم وظيفته، بل إنه وصل إلى علمى أن كل حمير الدنيا لا تملك أن تفعل معكوس ذلك، مستحيل يا سادة اِن أتخيل أو يتخيل أى واحد منكم حمارًا يمشى بالمقلوب أو بالمعكوس، ذيله إلى الأمام ورأسه إلى الخلف منها، لكن الإنسان يستطيع أن يمشى بالمقلوب والمعكوس، يتكلم بالمقلوب والمعكوس، ويعيش حياته كلها بالمقلوب والمعكوس لأن للضرورة أحكام، حسناً سوف نسلم أمرنا لله ونبوح بما كان يوم أن ركبت الحمار بالمقلوب تنفيذاً لأمر أو من غير أمر حضرة العمدة الشلبى العارف أننى انظلمت ظلم الحسين فى زمنه، لو كان الأمر أمره فعلاً فقد عملها ليكسر نفسى ويذلنى أمام ناس الكفر لغاية فى نفسه أخفاها وداراها عنى عمرا طال بطول عمرى الذى يساوى عمره إلا أقل القليل وأكون قد خسرت العمدة الشلبى الذى استعان

بالأعـوان من الغـريـاء عن كـفـرنا فـبـدَّلوه وغـيـروه إلى الحـد الذى شككنى فى أنهم رسموا تقاطيعه على شخص آخر غيره وألبسوه ثيابه وانطقوه بلسانه وصوته أو أنهم على الأقل دسو فى مسامعه الدسائس التى بدلته بحسب ما يروقهم، فى السابق كان يسأل ويستفهم ولا يخجل من إعلان عدم معرفته بالأشياء التى لا يعرفها، لكنهم بالقطع أوهموه بأنه صار يفهم فى كل شيئ وربما اقنعوه فى غـيـابى أن الإهانات والتـجـريس وقطع الأرزاق هى أفـضل الطرق للتعامل مع من عرفهم وعرفوه فى الزمن الفائت، كأنما انبنى فى غفلة منه ومنا جدارا عاليا من عدم الإطمئنان أو الإرتياح بيننا وبينه رغم أننا كنا قد عرفناه عن قرب فى طفولته وصباه وصدر شبابه لكننا انفصلنا ووصلنا إلى فقدان الثقة وقلة الود، ثم انحدرنا إلى حالة من حالات الخلاف واحتمالات المواجهة.

أعرف أن أعوانه من ناس الكفر كانوا يقولون عنه كلاماً مغايراً ومعاكساً لما يرددونه عنه بعد أن استتب ووصل إلى عمادة الكفر، لكن هذا هو شأن الأتباع والأعوان دومًا، مثلهم مثل من سبقوهم فى كفرنا وكل الكفور المجاورة من أتباع العمد والمشايخ والأعيان وأعوان الباشا المأمور فى المركز وكتبه المحكمة والشهر العقارى والصحة، وكل هذا مفهوم ومعمول حسابه وجائز أيضاً، إنما أن أتحول أنا إلى هدف فهو ما لم أكن أنتظره منهم أو منه وأعمل له حساباً، ربما كان من الأنسب أن يتباعدوا بمكائدهم عنى لأننى برغم كل ماكنت أعرفه عنه وعنهم عشت فى حالى، تناءيت عن المشاكل وقفلت باب دارى باختيارى فى احرج الأوقات ظناً منى أن

فى السكوت حكمة لأنه عندما تتساوى قوتان متنازعتان على الغنائم فعلى العقلاء أن يتباعدوا عن كفتى الميزان الوهمى حتى لا ترجح الكفة الظالمة موهوما بأنه لا يصح فى نهاية المطاف إلا الصحيح، ولابد أن فكرتى كانت مغلوطة لأن الحق الساكت يتداس بنعال الكذب المطلوق المحبوك الثرثار، ولأن أمثالى ممن فقدوا السطوة والعزوة والمال فقدوها بالسكوت والتخاذل أمام مراوغات الخبثاء، ولأن الضعف اختيار أحمق بإرادة من يتباطأون أو يتكاسلون بينما تدور عجلة الأيام بسرعة البرق، لكنها على أى حال حسرة فى غير أوانها لأن الأموات لايرجعون ولأن من اندفن تحت الرماد الأيام البليدة قد اندفن، لكن الأرض ولادة ولابأس أن تراودنى رغم القهر وزحمة الكوابيس أحلام وردية فى مستقبل الكفر وعياله.

أعرف أن كفرنا مجرد واحد من كفور وقرى الناحية وكافة النواحى المتناثرة على امتداد الوادى والدلتا، وأن بلدنا نفسها مجرد بلد متوسط المساحة على خريطة الدنيا الواسعة لكننى أحبه وأعشقه وأشعر فى ذات الوقت بأننى قصرت فى حقه، لا أدرى كيف لكننى قصرت، وربما يكون ذلك بسبب الكسل والقعود الساكت مدة فى الهامش، ولعلنى أرغب فى التكفير عن ذلك السكوت بإرادة البوح المفتوح التى لا يحدها حد، وبالطبع سوف أبوح بما تسعفنى به الذاكرة الكليلة والنظر الضعيف، فسامحونى إذا بحت بأشياء لاتليق أو تخفَّت عنى أشياء وسوف أدارى عنكم اسمى فما أهمية الاسم بالنسبة لمن يريد أن يعرف سيرة كفر من بين مئات الكفور

التى تتباعد وتتقارب؟ قد يكون الاسم علامة، لكن العلامات تتكرر وتتشابة، وقد يكون الاسم رسماً وملامح ووظيفة أو دلالة على زمن بعينه، لكننى أشعر أننى كنت رسوماً وملامح ووظائف فى شتى الأزمنة، كنت حاكماً ومحكوماً وكنت فارساً جسوراً يحمل الرمح أو فرساً بلجام، وعشت أذمنة فى نخلة بلح أو جذع شجرة توت أو فرع جميزة من أيام الفراعين، ولا بد أننى عشت مرة فى قلب بقرة جباها مملوك ظالم من فلاح مقهور ثم استدار ليبيعها لفلاح آخر بدينارين من ذهب أتخذهما ودسهما فى سيالته ثم طعنه بحد السيف فى ظهره ورطن بلغة عربية غير مفسرة، ولابد أننى كنت هناك فى زمام نفس الكفر أيام الفرس والرومان على هيئة قط أسود أو نمس. أو كنت ثعلبا مطلوقا فى براح الغيطان يقطع الطريق على الغرباء، لابد أننى انعجنت فى كل شىء وكل وقت وأننى عشت قبل هذه الحياة عدة حيوات أو أنه تهيأ لى أننى مارست الظلم وكابدته بحسب مكانتى فى كل زمان، فرحت من نخاع قلبى وحزنت إلى حد اليأس من الدنيا فانتحرت مرة، شبعت وجعت وعشت مستورا، كنت حاكما فظًا ركب على اكتاف الناس وجزءًا من هامة محنية لتابع بارع فى التملق ومدح من لا يستحقون المديح، شعرت بالغرور فتكبرت ثم تواضعت الى حد التدنى، تخابثت وتساذجت وتذاكيت وتغابيت فحيرت سادة الزمام كنت فى تلك الأزمنة فى طين الأرض وحيطان البيوت وأساور البنات وأحجار الطواحين ومدارات السواقى وحبال الشواديف وأخشاب الطنابير وكل شىء وكل شىء فى كفر عسكر أو هكذا تبدى لى فى كل

ساعات التجلى النادرة التى كانت تراودنى فى أحلك الأوقات وأكثرها إشراقا، واحسب أنه يحق لى اختيار أن أكون معلومًا بالاسم والرسم والزمن المعاش أو مجهولاً ومتواريا بإرادتى ربما حذرًا وحماية للروح وقد دخلنى الوهم بأن حماية العمر فى زمنى تستوجب الكتمان بينما رغبتى تستدرجنى للبوح بما لم يكتشفه غيرى وما اكتشفوه وربما تصلكم هذه السيرة فى زمن العمدة الشلبى أو أى عمدة آخر يأتى من بعده، وربما يتضح لكم أنها تتشابه مع غيرها من سير القدماء فى كفرنا أو البلدان البعيدة أو أنها تختلف، لكنها حاصرتنى وأوجعتنى وأجبرتنى على تسجيلها رغم اختلاط معالمها وهى تتبدى فأنشغل بترتيبها ولا تسعفنى الذاكرة، فقلت لروحى أنه يلزم على الأقل أن انظم اختلاطها غير المنتظم، جزء من المسألة كان عنادا واختيارًا لقدرتى، والجزء الآخر كان اعتمادا على قدرات الناس فى كفرنا على فهم المقاصد والمعانى وهى طائرة.

ولابد أننى سوف أحدثكم بإرادتى أو غصبا عنى عن كفر الساكن شط ترعة محدودة من رياح مائى متفرع من نهر النيل الأبدى قبل أن يتوزع على الفرعين..

صلوا على سيدنا النبى.

* * *

أول ما وعيت لروحى رحت لكتاب الشيخ درويش وكنت أقلد العيال الصغار الأكبر منى وبعسر كنت انطق الكلمات، وقبل أن

أحفظ الفاتحة جاء يوسف وجلس إلى جوارى يتعثر مثلما اتعثر فى نفس الكلمات حتى فتح الله علينا وانفكت عقدة اللسانين وحفظنا قل هو الله أحد، ولابد أن أبى فرح بى فاشترى لى صندلا له جلد أحمر ونعل بنى كنت أخلعه بأدب قبل أن أجلس وسط العيال على الحصير المفروش فى نصف مساحة القاعة، وعندما كان الشيخ درويش يصرفنا كنت ألبس صندلى وأنا فرحان بينما العيال يتحسسونه بإعجاب، وكنت عندما تبتعد أياديهم عنه أقوم وأرمح فى اتجاه دارنا والعيال تمسك فى ذيل جلبابى وتهتف:

يا وابور يا مولع.... حط الفحم وأنا أقولك ولع ... حط الفحم

لكن الولد يوسف غافلنى مرة وداس على نعل فردة الصندل اليسرى فانقطع السير الجلدى وانفصل عن نصف النعل فانخلع، توقفت لعبة القطار وانصرف العيال فبكيت بينما كنت أحمل الفردة المقطوعة وأنا أدخل دارنا وكانت أمى تخبز فأسكتتنى ثم أخذتنى وراحت إلى دار فرحانة أم يوسف وعاركتها لكن أم يوسف لم تسكت إلا عندما جاء يوسف حلاق الحمير وطيب خاطر أمى بعد أن شتم فرحانة وقال:

- يا ستى داحنا قرايب.. وبأمر الله لما ربنا يسهل أجيب له صندل غيره..

خجلت أمى من نفسها ورجعنا للدار، ليلتها بت حزينا من غير عشاء لأن أمى وبختنى على الإهمال وعدم المحافظة على صندلى الجديد، بعدها صرت أذهب إلى الكتاب حافيًا مثل بقية العيال.

ولابد أن وقتا طويلا كان قد انقضى قبل أن يأتى أبو يوسف حلاق الحمير إلى دارنا ويجلس إلى جوار أبى فى المندرة يشرب الشاى ويخرج من «سيالة» جلبابه صندلاً أزرق ويناديني:

- تعالى... تعالى قيس الصندل ده....

- لا يا ولد...

قالها أبى فطاوعته وسمعته يكمل بغضب:

- مش عيب برضه... ح نقبل العوض يا بو يوسف، لبسه لابنك.

- ما هو أصل....

- لا أصل ولا فصل... أنت جاى تشتمنى فى دارى؟

- بلاش يا سيدى بلاش، ولا تزعل نفسك البسه ليوسف.. بس تبقى أنت راضى ومرتاح.

وتغير الكلام وما عادت حكاية الصندل تشغلهما بعد أن أعاده أبو يوسف إلى سيالته وأنا حزين..

فى الصباح التالى جاء يوسف إلى الكتاب بصندله الأزرق الجديد وجلس به ملبوسًا فى قدميه على حصيرة الكتاب حتى رآه الشيخ درويش فشتمه وأمره بخلعه حتى لا ينجس الحصيرة الطاهرة وأضاف بغضب:

- ولابس لى صندل فى رجليك؟ يكونشى أبوك بقى من الأعيان يا ولد؟ اتزرع واقعد وخليه يفوت على بعد صلاة العصر.

كدت أشكى للشيخ درويش مرة أخرى لكننى لم أفعل، وكدت أحكى له عن رفض أبى للصندل الأزرق عوضًا عن الصندل الأحمر لكننى خجلت من نفسى ولم أنطق بحرف، وعندما صرفنا الشيخ درويش لبس يوسف صندله الأزرق وعمل من نفسه سائقا للقطار والعيال تمسك فى ذيل جلبابه وتهتف بنفس الغنوة التى كانوا يغنونها ورائى، طالبونى بأن أتعلق بذيل أى جلباب لكننى لم أفعل واكتفيت بالبكاء.

* * *

لكن بداية العمدة الشلبى غير بداية سلمان شلبى وحكاية العمدة الشلبى غير حكاية سلمان شلبى، ولابد أن نهاية العمدة الشلبى غير نهاية سلمان شلبى، صحيح أنهما شلبى لكنهما يختلفان، ولم أكن وحدى الذى اكتشف ما بينهما من فروق أو اختلافات، لأنه فى كفرنا الساكت من زمن الطوفان يبرع الناس فى التمييز بين الطباع والعادات والأهداف والألوان فى أشد مناطق التداخل تداخلا صحيح أن الأكثرية تكتفى بالمعرفة والفرجة من بعيد لبعيد وكأن الأمر لا يخصهم فى شىء، بل إن البعض منهم يتطوع أحيانًا بالنصيحة لمن يهمه أمره لكى يسكت أو يكفى على أخطر الأخبار «ماجورا» ابتعادا عن الشر إن كان البوح بالأسرار يضعهم فى سكة الخطر، وغالبًا ما يسكتون أو يتنهدون أو يتأفف الواحد منهم فيفرغ صدره المنفوخ بالهواء الفسدان. وقد يتوهم أنه ارتاح وشفى روحه بروحه، لكن الدنيا لا ينصلح حالها بالكلام،

فالكلام مثل التنهد والتأفف وإخراج الهواء الساخن الفسدان من الصدور، الكلام نفس خارج ونفس داخل فهل تتصلح أمورنا بإخراج الانفاس؟ سامحونى لأننى سوف أدخل معكم فى سراديب مخفية ومحفورة فى الذاكرة بمناسبة حكاية العمدة الشلبى ونهاية العمدة الشلبى الذى لا تحجوز عليه غير الرحمة. أنتم تعرفون حكاية البيضة والكتكوت طبعًا، هى لغز محلول لكنه باق دائمًا لإثارة الجدل، ترى لو أننى انولدت خارج زمام الكفر الذى هو كفرنا الذى صحوت للدنيا فوجدتنى مزروعا فيه ولو.. لو حدث وجئت فى زمن سابق أو زمن لاحق، هل كانت المصائر سوف تتبدل؟ طيب لو كنت رحلت وتركت حدوده ورائى وعظام الأجداد فى مدافنهم، والأحياء فى مشاغلهم ومشاكلهم فلم أشهد بعينى رأسى ما شاهدت فهل كنت أشهد من غير مشاهدة؟

أعرف أننى انولدت فى الزمن الفائت، وأننى بحساب الزمن الفعلى طرح الزمن الفائت. وأننى بحسابات البعض، راحل عن دنياكم فى الأجل المحتوم الذى هو قريب قريب، لكننى برغم فوات كل هذه السنوات التى عشتها أحسب نفسى على الزمن الآتى، كأننى صبى أهوج أو شاب طائش مدفوع برغبة جهنمية لكشف ما هو مخبوء فى الذاكرة من تفاصيل الزمن الشلبى، كأننى أجلت حياتى نفسها لحين الانتهاء من رصد الأحداث وترتيبها أو لملمتها فى خيط واحد لحساب الأبناء والأحفاد، كأننى إذا قلت شهادتى استحق أن أعيش بينما العمر بكل الحسابات قد أوشك على الانتهاء ولابد أن ذلك الزمن الذى انتظرته رواغنى وضللنى وفر

منى فلم يطلع نهاره بعد، فهل اكتفى بأن أربط الماضى بالحاضر وأظل أحلم واحلم حتى النفس الأخير فى عمرى بصورة المستقبل الذى راهنت عليه بعمرى وخسرت الرهان؟ ألم أقل لكم أنها مثل حكاية البيضة والكتكوت؟

* * *

قالت جدتى لأبى مرة عن واحد من عمد الكفور المجاورة لكفرنا:

- قالوا ناوى يتوب ويحج ويزور قبر النبى مصدقناش، كان قتال قتلة وخباص وظالم، وكانت سيرته فى كل الناحية مهببة بهباب، الغرض، سافر ورجع وقابلوه الخلق بالطبل والزمر «والنقرزان»، الناس فى البلد دكهت صدقت إنه تاب وانصلح حاله، لكن عدوينه وبهايم عدوينه ماتوا ورا بعض ورا بعض، الخلق هناك قالوا إن ربنا رضى عليه بعد ما تاب وحج وأن موت عدوينه علامة من عند المولى على أنه قبل توبته وهداه، لكن الله يرحمه الشناوى جوزى كان شغال فى الصحة فى البندر، حضر غسل واحد م الخلق دول قال دا ميت مسموم وبلغ، الدنيا انقلبت وطلعوا الأموات م الترب وكشفوا على رمم البهايم المرمية على حرف المصرف لقوهم صحيح كلهم مقتولين بالسم، ناس من أهالى الأموات اتهموا العمدة واتمسك وثبتت التهمة عليه، لكن ضحك ع الحكومة الهبلة أياميها وحلف ع المصحف إنه ح يتوب، الحكومة والست مع العمدة وطلع م المحكمة براءة زى ما بتطلع الشعرة الناعمة م

العجين، وفضلنا ف كفرنا نسأل إزاى السم بيتباع فى بلد النبى المرسل وفى موسم الحجاج؟

ظل سؤال جدتى لأبى يرن فى أذانى ويبحث عن الجواب فلا يجده أو يسمعه، عجزت الكتب التى قرأتها عن تقديم الجواب الكافى الشافى، وعجزت أنا الذى راهنت على المستقبل وحسبت نفسى على المستقبل عن الوصول إلى شط الجواب للسؤال القديم من أيام جدتى. وهل كان يخيفنى ويعوق حركتى ويلجم لسانى ما قالته جدتى عن مصير جدى الذى اكتشف وكشف المستور فما حماه الكشف من نهاية محزنة:

- رجع يا حبة عينى مايل ووشه مزرود زى الكبدة الفسدانة، قاللى عملوها فى الكلاب حطوا لى السم فى كبايه الشاى وأنا ف مكتب الصحة جنب مفتش الصحة. طالونى وطلعوا لى لسانهم وقالوا لى موت يا حمار قبل ما تفهم بقية الملعوب ياريتنى فهمته وعرفته كله، أنا كنت لسه ح أدخل من عتبة الباب، كنت لسه ح ادخل من عتبة الباب، قالها مرتين وطب ساكت سكتة الموت، وأنا يومها من حرقتى لطمت وندبت وشتمت الحكومة اللى بتوالس مع الأكابر وقلت اشوف فيهم يوم ولسه ما شفتوش، لسه ياضناى ما شفتوش.

عيبى وعيب كل ناس اسرتى أننا عشنا فى منطقة النصف التى هى بين الفقراء والأغنياء، أنصاف أفندية وأنصاف فلاحين، يذهب الواحد منا إلى وظيفته فى الصباح ويرجع بعد

الظهـر لكى يرعى أرضـه الموروثة عن جـدود الجـدود، نـرمح وراء الدنيـا الدوارة لنفـهم ونفـسـر ونبـوح بما تعلمناه، فـينا المهندس والمدرس والمحامى وكاتب الحسابات، فينا الحكيم وشاعـر السيرة النبوية ومـأذون الناحيـة وفينا وفينـا، لكننا جميعا لم ننفـصل عن فلاحة الأرض، يسافر الواحد منهم مثلما كنت أسافر إلى البندر وأعـود لأشق على الأرض وأرعـاها لتبقى حبلاً مجدولاً يربطنى بالكفر وناسه، لكننى صحوت ذات صباح لأجدنى عند الحافة قابلاً للإزاحة أو الزحـزحة من مكانى فى منطقة النصف المستور المحترم الذى يسبق اسمه لقب الأستاذ، ولم أكن وحدى، كان كل من هم على شاكلتى قد تبدلت أحوالهم، البعض منهم صعد وعلا نجمه وصار من جلساء العمد والمشايخ والمأمور وأكابر البندر والبعض الآخر انحـدر وتدحـرج وصـار لا يملك من زهو الزمن الماضى غيـر لقب الأستاذ يقولونه على مضض وكأنما عن غير اقتناع.. وقد يتجاسر البعض وينادى الواحد منهم أى واحد منا باسمه مجردًا من أى ألقـاب ، ولقـد سـألت نفسى فى ذلك الصبـاح إن كـانت أسـرتى وأمـثالهـا لقد تبددت أو تلاشت أو ذابت أو انشطرت على نفسها شأن كل شىء يقبل الانشطار؟ وجاوبت نفسى بنفسى إنه احتمال قائم أن أكون وحدى البـاقى فى منطقـة النصف نصف باختيارى الحـر وبرغبتـى أبقى حيث كنت، ربما لأنه من الضرورى أن يكون لكل ناس فى الكفر جماعة تعيش فى منطقة النصف نصف، ولابد أنه دمـاغى المفلوت منهم ومنكم هو الذى أوحى لى بأن أظل فى مكانى ومكانتى، هـى منطقة مهجورة بفعل فاعل أو مجموعة فعلة

لكنها لازمة مثلما أثق بأننى لازم وضرورى مهما كانت المكابدات، وربما يحرك وجودى فى نفس المكان بعض الأدمغة الكسلانة، أو لا يتحرك أحد فأظل وحدى منفيا ووحيدًا رغم الزحام من حولى ومن داخلى سمعت صوتها يهمس لى بنفس النبرات الواثقة التى اعرفها:

- أنت ابن بكره

تلفت حولى فلم أجدها، لكن صوتها لم يكن وهما ولا خيالاً ولا خبلا كان صوتها الذى عايشته زمنا يحوطنى ويكرر العبارة عدة مرات وكانت أنفاسها الهادئة تقترب وتقترب فأحسها وأشم رائحتها وأوشك أن أفرد الذراعين لأتلقاها بين أحضانى لولا بقية من عقل يحذرنى من المجازفة بفعل يتنافى مع ما تعيه الذاكرة ويصدقه العقل

* * *

كانت جدتى لأم من الناس الشلبى، لكن أمى نفسها لم تكن منهم، وبالمثل أو على العكس كانت جدتى لأب من الناس العوف لكن أبى لم يكن منهم، ولابد أننى حملت فى داخلى بقايا البذرتين، أستحضر الواحدة فأدنو من الشلبى أو العوف بحسب الحالة أو اتباعد، أشعر بالإعجاب أو الإستنكار أو الدهشة لكننى أبقى فى منطقة التوازن عارفا حقيقة أمرى ومحافظا على هويتى، قرابتى بعيدة وتسمح لى بأن أفكر بحياد ودون تعصب لأى منهما. كانت جدتى لأبى ابنة عم آخر عمدة من الناس العوف، صحيح أنها لم

تكن ابنة عمه الشقيق لكنها كانت فى مقام بنت العم، رأسها برأسه فى الزمن الذى كانت تراعى فيه صلات الدم والرحم ويحترم الناس الأصول ويعرفون العيب، ولابد أنه كان عمدة الكفر قبل أيام الملك فؤاد الأول بعد حصوله على لقب ملك بأمر الإنجليز أولياء نعمته، يقولون أن المرحوم سيد حسنين عوف كان على رأس قائمة المرشحين للحصول على رتبة البك، فأشاروا عليه بأن يذهب إلى السراى الملكى ليسجل اسمه فى كشوف المهنئين ويتقدم بهبة أو هدية تليق بالمقام العالى للملك فيناديه بالاسم مشفوعًا بالرتبة، وساعتها يصير من زمرة البكوات رسمى لكن الرجل كان له عقل غير عقول ناس كفرنا، ولابد أنه عرف أن المسألة من أولها مبادلة مضمونة المكسب لكل من لانت رؤوسهم وقبلت أن تنحنى للأسياد الكبار مرة ثم ترتفع بقية العمر على أولاد الناس الذين ولدتهم أمهاتهم أحرارا فصاروا بفعل السخرة والكرباج والأعوان الظلمة فى حكم العبيد، هل كان ابن عم جدتى يبحث فى أركان الكفر أو الناحية أو كل البلد عن العدل المستحيل؟ وهل كان بحق مثلما يؤكدون مالكا لزمام نفسه ومتحكما فى نزواته أم أنها مبالغات؟ سيرته المروية تحكى عن رجل من صلب رجل رأيه من دماغه وغاية مناه أن يحكم بالعدل الممكن فى أركان الكفر الصغير الصغير، يقولون أنه قبل أن يحدث له ما حدث فى أواخر أيامه أنصف مظلوما لجأ إليه يشكو ابن عم العمدة نفسه فلم يتردد فى أن يطلب عبدالقادر عوف الكبير ويوبخه أمام الناس ويفرض عليه

إعادة الحق للمؤاجر المظلوم فامتثل واستجاب، يقولون إنه خرجت من القلب دعوة المظلوم تطلب للعمدة دوام الفضل وطول البقاء، لكن أبواب السماء لم تستجب لدعوة المظلوم هذه المرة، بل إن الدعوة بطول البقاء انعكست وتحولت إلى حش الأجل المباغت، لا يدرى أى الناس ممن عاشوا إن كان موته المفاجىء قد سبقه تدبير من أعداء العدل وأنصار الظلم فى الكفر أو الناحية أم أن السهم جاء من البعيد البعيد الساكن فى سراى الملك عن طريق أى واحد من الأعوان الأتباع الذين انحنت هاماتهم من كثرة السجود وحصلوا على الرتب والألقاب وزينوا صدورهم بالأوسمة والنياشين.

قصيرة هى أيام الفرح فى حياة ناس كفرنا، ولولا قدر كبير من الإيمان الراسخ فى القلوب ومقدار أكبر من الرغبة فى تخطى مصاعب الأيام ما تمنى إنسان فى الكفر أن يطلع عليه صبح جديد، ولابد أن ناس كفرنا غير كل ناس الدنيا، ذلك أنهم رغم الهم الكابس على الصدور يبحثون عن الضحكات ويزرعون من حولهم أسباب الفرح، يتعلقون بالأوهام ربما، لكنهم يقدرون على الاستمرار، يتكاثرون ويتوالدون ويكابدون ويزرعون النبت الجديد، من فى كل الدنيا شاف ما شافوه واستمر فى الحياة؟ من داست قلوبهم سنابك الغدر والخيانة وانغرست فى صدورهم حراب الهمج من كل جنس ولون وظلوا يتنفسون؟ يتحدثون ويتباهون عن مثال العمدة العوف الذى فات على الكفر زمنًا، وعد الخلق فيه بتحقيق بعض العدل فحفظوه واحتفظوا باسمه على ألسنتهم بقيت سيرته

وما نساه من رآه أو سمع حكايته أو تحدث إليه فى أمر من أمور الكفر واستفتاه.

* * *

بعد حوادث القتل التى جرت بين العرف والنعناعية من ناحية والشلبى والشناوى من ناحية أخرى عزلت الإدارة يوسف من عمادة الكفر وعينت الصول عرفان فى النقطة الثابتة ليتولى شئون الأمن فى الكفر بعساكره ومخبريه الذين اندسوا فى دروب الكفر يستطلعون الأخبار ويستفزون الناس لمعرفة الأسباب، كانت هناك جرائم ارتكبها البعض فى وضح النهار وعلى مرأى ومسمع من أهالى الكفر، لكنه كان الخوف من ناحية وتواطؤ يوسف من ناحية أخرى، هذا التواطؤ الذى أدى إلى إنكار كل من شهد ورأى أنه يعرف أى شىء عن الفاعل أو الفعلة من أى الأطراف، ولابد أن عزل يوسف لم يكن قد طاف فى خياله ولو من بعيد، ربما لأن فرعه من الناس الشلبى لم يكن طرفا فى الأحداث كما كان يؤكد لكل من يراه، كان يبدو كالملسوع بنار حامية لايعرف مصدرها، كان يأتينى ويحادثنى فى الأمر وكأننى مسئول عن قرار الإدارة بعزله أو على الأقل قادرا على إعادته، كنت أشعر بضعفه وضعفى، وكنت أشفق عليه وعلى نفسى لأننى كنت أحتمله بأكثر من قدرتى على الاحتمال، ولابد أن الإدارة بمرشديها ومخبريها توصلت إلى معلومات تفيد عجزه عن إدارة الكفر أو مساعدتها فى الاستدلال على الرؤوس المدبِّرة أو الأيدى المنفذة لتوجه إليها الاتهامات فى

قتل تسعة رجال وثلاثة صبية وامرأة خلال أسبوع واحد انقلبت فيه كل الموازين.

كان من العسير أن اتباعد عنه فى تلك الأيام رغم أن ما كان يحادثنى بشأنه بخصوص ما حدث فى الكفر وما جرى من أمر عزله صار يتكرَّر ويتكرَّر إلى الحد الذى جعله يكتشف هذا بنفسه ويعلن أكثر من مرَّة:

- أنا عارف إن اللى بنبات فيه بنصبح فيه، وإن الكلام اللى ح أقوله قلته قبل كده عشرين مرة، بس ح أعمل إيه؟ هى الخلق تقتل بعض وأنا أنعزل؟ هو أنت مش عارف إن ماليش ف الثور ولا فى الطحين؟ ما هو الكفر لسَّه مو لَّع نار والقتل داير، هو الصول عرفان ح يمنع التار؟.

أهدئه بكلام مكرور ومعاد ثم يسود بيننا صمت، أشعر أنه فى بعض اللحظات ينظر ناحيتى بشك وكأننى المسئول، ربما يطول الوقت قبل أن يستأذن فأستمهله ويسألنى نفس السؤال:

- وانت ح تعمل إيه؟ ف إيدك حاجة تعملها لى؟ ف إيدك؟ ح أقعد أهبب إيه؟ ح أقلب دماغك ودماغى أكتر من كده ليه...؟

كنت لا أجد على أسئلته المرورة ردًا لائقًا غير تنهيدة أو زفرة أو كلمة عابرة أو عبارة أتمنى فيها أن يظهر الحق ويرجع إلى عمادة الكفر التى لم يهنأ بها أكثر من ثلاثة شهور، يهز رأسه يأسًا ويتركنى لأرتاح من أجل مواعيد شغلى فى الصباح التالى كما يقول وهو خارج من باب الدار.

وفى كل مرة كانت فردوس تأتينى بعد خروجه لتسألنى عن أسباب تلك الزيارات المتكررة التى تطول مددها يومًا فى إثر يوم، وكيف أنه يضعنى بقصد أو بغير قصد فى مواضع الشبهات فمن يضمن ألا تكون حركاته محسوبة عليه وعلى من يقضى معهم أوقاته؟ أو يضمن ألا أتعرض للنقل إلى مدرسة خارج زمام المديرية مرة أخرى وكنت أطمئنها وأنا لا أشعر بأى اطمئنان، تذكرنى بما كان من أمره مع الأهالى طوال الفترة التى تولى فيها عمادة الكفر وكيف أنه كان يعادى الكل لحساب أصحاب الفضل عليه من الشراودة أهل «أصيلة» الذين نصبُّوه عمدة رغم إرادة كل الناس:

- دى الخلق فرحت فيه، هو ده كان يليق عمدة أبدًا؟ متصاحب عليك اليومين دول ليه؟

- هو أنا بروح له داره يا فردوس، ما هو اللى كل ليلة ينط لى، ح أطرده؟ دا حتى ما يصحش.

- ما عرفش بقى، أنا خايفة عليك وخلاص، ما تبقى تقصر معاه فى الكلام، فاتحله صدرك قوى على إيه؟ أنت نسيت؟.

لم أكن أنسى ما جرى منه أيام عينوه لعمادة الكفر، كان يبدو لى فى بعض الحالات وكأنه يتحَّرش بى فأتباعد عنه وأوسِّع المسافة بينى وبينه، وصل الأمر فى بعض الحالات أننى كنت أفضل السكك التى لايمشى فيها والأوقات التى لايخرج فيها، لكنه كان يتابع أخبارى وإذا صادفنى تصادم معى أمام الناس هزلاً فيه كل الجد، إن سكتُّ اعتبرها خوفا من هيبته ورهبة من أهل «أصيلة»، وإن

وقعت فى مصيدته ودافعت عن نفسى أشهد الناس على سواد قلبى وبياض قلبه. لأن الأمر من أوله لآخره دعابات ومضاحكات ربما لم أفهمها ، ينتهى العرض أمامهم وقد أيَّدوه فى الرأى بأننى «حنبلى» لا أحتمل دعاباته أو افهم نكاته ، كنت أشعر فى كل الأحوال أنه يسابقنى على نحو غامض وأنه فى كل احتكاك يحدث بيننا كان يكسب نقطة وأخسر نقطة، كانت كل المقدمات السابقة تقول أنه يتخابث فى معاملاته معى، يعرف نقاط ضعفى ويستغلها وأعرف نقاط ضعفه وأتعفَّف عن استخدامها ، يخاصمنى أمام الناس فى شارع أو ميدان ويصالحنى فى زقاق أو ركن دار مثل دارى، أنسى ما جرى وأبدأ معه من جديد، ألتمس له الأعذار إذا ذكَّرنى بالقرابة التى جمعتنا وكيف أننى عرفت ظروف حياته الصعبة التى عاشها وحظه التعس الذى حرمه من التعليم:

- وهو أنت يا أستاذ ح تجيب واحد متعلم زى حالاتك، لواحد زى حالاتى أنا اتهيأ لى إن مخك يوزن بلد، ما تبقاش تزعل منى وتتحمق كده، إبقى استحمل قصاد الناس الفالصو لجل ما تبقالى ف وسطهم قيمة وهيبة، ياخويا داحنا اخوات من زمان... اخوات ولا مش اخوات؟ صافى يالبن؟

- صافى يا لبن يا حضرة العمدة.

- عمدة إيه وبتاع إيه؟ هى العمودية ح تدخل بين الاخوات كمان؟

أتأمله مليًّا ولا أملك غير إعلان السماح، يبدو مرتاحًا وراضيًا عن نفسه وقد زالت كل الحواجز بيننا وانفتحت صفحة جديدة،

لكن الأيام كانت تمر ويطويها هو ثم يأتينى مرة أخرى ليطالبنى من جديد أن أنسى ما قد يكون قد قاله أو فعله وأغضبنى، وكنت دائمًا أنسى ما فات وأبدى موافقتى على أن نبدأ من جديد.

قد لا أكون ذكيًا بالفطرة لكننى لست غبيًا فى أسوأ الحالات، وأنا لا أحدثكم عن الذكاء المدروس واختباراته الشائعة، وإنما أتحدث عن الذكاء الفطرى فى التعامل مع البشر والأشياء، ومن هذه الناحية بالتحديد يكسبنى يوسف، قد يكون يوسف معجونًا بالكذب، وربما يثق أننى أعرف أنه كذاب ومع ذلك كان دائمًا يفلح فى أن يجعلنى أصدقه، على الأقل عندما يشاء أو يتطلب الموقف استسلامى لحالة التصديق التى ينتزعها منى انتزاعًا، تارة بالإلحاح الذى يوصلنى إلى حالة من حالات الخجل، وتارة باستغلال قدرتى على الاحتمال، ولابد أنه قرأنى أكثر مما قرأته أو على الأقل قرأنى مثلما قرأته، ربما يكون قد عرف حقيقتى أكثر من أى واحد فى كل الناحية، كان يقول للناس عندما تأتى سيرتى أننى أملك قلبًا أبيض من اللبن الحليب، وأننى قادر على الاحتمال وأقدر أيضًا على النسيان، لكنه كان يحذِّرهم أيضًا:

- بس إن زاد عليه الضغط تركبه العفاريت ما يعرفش أبوه.

- وساعات ينسى نفسه ويندفع زى الطور الهايج ما تعرف لجامه فين... بس أنا حافضه وعارف دواه.

مثل هذه العبارات كان يقولها فى حضورى وغيابى على حد سواء، وكنت عندما أسمعه يردِّدها أفكر فى أمر نفسى وكيف أننى

بالفعل مثلما يقول يوسف أحتمل وأتحامل ثم ينفلت من عقلى ولسانى وكل أعضاء بدنى الزمام، ربما أكون قد خسرت كثيرًا بسبب تلك الطبيعة التى تبدو متقلّبة لبعض الناس، وربما لا أكون عارفًا للحدّ الفاصل بين منطقة الاحتمال ولحظة الانفلات، ربما عرف يوسف تلك المنطقة أكثر منى واستثمرها لصالحه، وربما عرف أيضًا دوائى أو لجامى فى لحظة الاندفاع، هل أقول أن يوسف استثمر نقاط ضعفى لصالحه طوال الوقت، أو أنكر ذلك عليكم وعلى نفسى؟ الكذب خيبة، لكن الكذب ألوان ، كذب أبيض لا يضر وكذب رمادى ضرره قليل إذا قارناه بالكذب الأسود كثير الضرر، ومادام هناك كذب أبيض ورمادى وأسود فلا بد أنه هناك أيضًا صدق أبيض ورمادى وأسود، تتفاوت ألوان الصدق والكذب وتتدرج إلى عشرات الدرجات ، أحيانًا كنت أصنف كذب يوسف فى خانة الكذب الأبيض المكشوف الذى لا ضرر منه ولا خوف من سماعه، وأحيانًا كان يتدرج فى كذبه داخل المناطق الرمادية حتى مناطق السواد الحالك، لكنه لأسباب خاصة كان يتباعد عنى فى تلك الأوقات، كأنما كان بينى وبينه اتفاق غير مكتوب أو منطوق منذ زمن لا أعرفه أو تعيه الذاكرة مؤداه أن يمارس كذبه دون أن يتسبّب فى ضررى بشكل مباشر مقابل أن أسكت أو أتكاسل أو أتهاون فى بعض الأوقات عن كشف أكاذيبه فى كل صغيرة من الصغائر التى كان يرتكبها، هو نوع من التواطؤ بالصمت الذى يصيب الإنسان بعد أن يكتشف أنه لاجدوى من الكلام، لكنه على كل حال أدى لاستمرار العلاقة بيننا، وربما كانت حكايتى مع

الأستاذ رجب مدرس العربى والدين فى المدرسة الثانوية قد علمتنى أن الأكاذيب تختلط مع الحقائق فى نسيج حياة بعض البشر إلى الحد الذى يصبح من المستحيل أن يفصل العقل بينهما، كانت تجربة عسيرة على الهضم جعلتنى أفيق لنفسى أو أدرِّب روحى على قدر من الغفلة بالإرادة، أتخلص ولو قليلاً من تلك الأوهام القديمة التى زرعتها فى نفسى جدتى لأبى ورواها وباركها أبى نفسه، أشياء عن الصدق والكذب، والأبيض والأسود والظلم والعدل، كنت أحسب أن الضعفاء وحدهم هم الذين يلجأون إلى الكذب وأن الأقوياء لايكذبون أبدًا، وكنت أضع يوسف وأمه فرحانة وأبوه فى خانة الضعفاء ممن يلجأون للكذب بكل درجاته لتستمر الحياة، لكننى اكتشفت أنه ما دام الكذب ألوانًا ودرجات تبدأ بالكذب الأبيض وتمر بالرمادى حتى تصل من خلال درجاته المتداخلة فى نهاية المطاف إلى الكذب الأسود. ثم اكتشفت أن الصدق أيضًا ألوان ودرجات تبدأ بالصدق الأبيض النقى وتمر بكل درجات الصدق الرمادى حتى تصل إلى الصدق الأسود ... هناك فى حياتنا صدق أسود.

نرجع لحكايتى مع الأستاذ رجب الذى كان أستاذ الفصل ورئيسًا لجماعة الخطابة فى المدرسة وقد اختارنى بنفسه لأن أكون عضوًا فيها، كان يجمعنا فى قاعة المسرح الفسيحة ويعلِّمنا أصول الخطابة والمناظرات وكيفية مواجهة العيون المصبوبة علينا تتفحصنا وترصد حركاتنا، وكان يؤكد لنا أن الشجاعة الأدبية هى أهم شرط للوصول إلى مرتبة الخطباء العظام من أمثال الزعيم سعد زغلول والفتى

الجسور مصطفى كامل ، ولعله علَّمنا أيضًا كيفية تفنيد الحجج الباطلة والأدلَّة الزائفة التى يلجأ إليها المتناظرون معنا فى المدارس المنافسة.

لكنه لأسباب أقوى منه ومنى ومن ناظر المدرسة تغيَّرت الوزارة، وظننت أن تغيير الوزارة لم يكن بقادر على أن يتبدَّل الأستاذ رجب صاحب المبادىء الراسخة والقدرة على إقناع الخصوم بأفكاره مهما كانت مخالفة لأفكارهم، لكنه تبدَّل وراح يمتدح رئيس الوزراء الجديد ووزير المعارف الجديد على نحو بدا لى ولتلاميذ الفصل انقلابًا كاملاً ومعكوسًا لأفكار كان يجاهد فى تلقينها للتلاميذ ضد الحزب الذى تشكلت منه الحكومة ووزير المعارف على وجه التحديد، قلت لنفسى مستحيل أن يصالح الأستاذ رجب عدوَّه القديم الذى اتهمه بكافة الاتهامات لمجرد أنه صار وزيرًا للمعارف فى وزارة قال أبى عنها أنها قصيرة العمر ولايسندها قبول شعبى لأنها من حزب مكروه، وقلت ربما يختبرنا فى مناظرة مفتوحة، فانطلقت أتهم الوزارة ووزير المعارف بنفس التهم التى كان يكيلها لهم الأستاذ رجب حتى الأمس القريب، أسكتنى فلم أسكت، حسبتنى مصطفى كامل يخطب ضد الإنجليز والسراى وظننت أننى سوف أنال رضاه كاملاً، والأولاد ينظرون إلىَّ باندهاش وإعجاب ويصفقون استحسانًا، وانقلبت موازين الفصل ثم تطور الأمر بإطلاق هتافات رددها تلامذة الفصول المجاورة وصارت فى حوش المدرسة مظاهرة رفعونى فيها على الأعناق وهتفوا لكن الباب لم ينفتح.

فى نهاية اليوم المدرسى أعطانى ناظر المدرسة خطاب فصل لحين حضور ولىِّ الأمر، كنت محاطا بالأولاد وقد أكتسبتهم لصفِّى

بسبب نجاحى فى إثارة الأستاذ رجب بل وهزيمته، لكننى كنت فى نفس الوقت أشعر أننى انطردت من الجنة ودخلت الجحيم، كأنما سقط على دماغى جبل وانكتمت أنفاسى أو أصابنى خرس، هل يمكن أن يؤدى الصدق والشجاعة والتفاصح إلى فصل التلميذ المجتهد من مدرسته لمجرد أن الوزارة تغيرت؟

لابد أن همًا ثقيلاً انحط على دماغ أبى وهو يواجه المشكلة ويبحث عن مخرج منها، كنت قد انعزلت فى القاعة الجوَّانية وحدى ممتنعًا عن الكلام والأكل، حتى جرعات الحليب كنت أبتلعها بعسر، ربما فقط بسبب إلحاح أمى التى كانت تحاول طمأنتى بأن أبى سوف يحل المشكلة لأنه حلاّل العقد الصعبة، تحدثنى عن اتصالاته التى لم تتوقف وكيف أن الأستاذ رجب رغم عناده سوف يتنازل عن حقه فى فصلى نهائيًا كما يشيعون، كنت أسمع منها ولا أرد، وفى وحدتى كنت أتأمل نسيج الجلباب الرمادى الذى كنت أرتديه، أغوص بنظراتى فى تلافيف النسيج فى محاولة لأن أتمكن من فصل اللونين المتداخلين فى بعضهما البعض ولو بشكل متخيَّل بحيث أستطيع أن أعيد تشكيل النسيج إلى خطوط واضحة ومعزولة من الأبيض والأسود، ولا بد أنه أبى الذى قرأنى وفاجأنى وقد كنت مستغرقًا فى فحص اللون الرمادى:

- ما فيش أبيض أبيض وما فيش إسود إسود.

نظرت إليه وقد أعادنى صوته وربما يكون قد أنقذنى من الجنون فتابع كلامه وهو يجلس إلى جوارى بالبنطلون الرمادى.

ـ كل وقت وله أذان ، والوزارة ... اتغيرت... اتغيرت...

لابد أنه اقتادنى بهوادة من دوَّامات الخيال المعزول الجامح إلى شاطئ الواقع الصخرى الصلب وهو يؤكد على تغيير الوزارة وربما نظام الكون:

ـ أنا باصرف عليك دم قلبى لجل تتعلم وتفهم الخلق ما شيه إزاى والدنيا بتلف بيهم، ليل ونهار ، فوق وتحت ، لا الراكب بيفضل راكب ولا الماشى بيفضل ماشى، مالك أنت بالوزير ؟ ما فكرتش إنه ممكن يفصلوك بصحيح؟ وأنه ممكن ناظر المدرسة والأستاذ رجب يترقوا على قفاك؟

تحيَّرت فى أمر نفسى وهو يقوم ويشدنى لأقوم معه وقد ظهرت على ملامحه راحة من حلَّ العقدة الصعبة وفك اللغز المستحيل، تبعته وسمعته وهو يحكى تفاصيل المساعى التى بذلها من أجل إعادتى للمدرسة وكنت على وشك أن أتحوَّل إلى كبش فداء.

كانت هذه هى حكاية الأستاذ رجب وخطورة الصدق الأسود التى هى أخطر بكثير من كل ألوان الكذب، ربما لأن الكذب يتلوَّن بسرعة، أو لأنه محسوب فى نهاية الأمر ضمن المساحات الرمادية المطلوبة أكثر فى نسيج الحياة، لعلَّنى شعرت على نحو غامض أن يوسف سوف يلتف حول مشكلته ثم يقفز على أسوارها ويتخطاها ويعود من جديد لعمادة الكفر وربما أقوى بكثير مما كان.

* * *

ـ مات الملك ... عاش الملك

سمعتها لأول مرة وأنا بصحبة أبى فى البندر، كان أبى يمسك بيدى وهو يتجه إلى محطة القطار، كان هناك على رصيف المحطة زحام من الأفندية بالطرابيش والمشايخ بالجبب والقفاطين والعمامات الملفوفة، وعندما سمعوا صوت القطار رجعوا إلى الوراء خطوة متباعدين عن الرصيف ، كانت صفارة القطار عالية الصوت، وكان الدخان الكثيف الأسود يخرج من المدخنة الكبيرة على سطح لونش، عندما توقف القطار نزل على الرصيف أفندية بطرابيش ومشايخ جبب وقفاطين وعمامات، انزحم الرصيف وتراجعنا إلى الوراء مرة أخرى ثم سمعنا الهتاف:

ـ مات الملك ... عاش الملك.

وردَّد كل من كانوا على أرضية الرصيف المزحوم وبعض من كانوا يطلون من النوافذ نفس الهتاف، بعدها تجمعوا حول الأفندى النحيل لابس البدلة الرمادية والطربوش وقد اعتلى دكة خشبية وصار يحدثهم بكلام لم أحفظه وحفظت الهتاف الذى قاله عدَّة مرات وكل الناس ترد عليه وأبى يرد وأنا أرد معهم بحماس رغم أننى من فرط قصرى لم أعد أرى الأفندى بالطربوش:

ـ مات الملك... عاش الملك.

وعندما عدنا للكفر انفلتت يدى من يده وصرت أجرى فى شوارع الكفر وأهتف نفس الهتاف والعيال تتبعنى، أجرى وأهتف والعيال تتزايد من حولى، طالبتهم أن يرددُّوا نفس الكلام من ورائى

فردَّدوه وتزايدت أعدادهم، ولابد أننا اكتشفنا فى ذلك النهار لعبة جديدة أسمها مات الملك عاش الملك، وبعد العشاء عدنا نتجمع من جديد ونلعبها وقد كان يحق لى أن أقودهم فى ذلك المساء لأننى كنت أول من اكتشف اللعبة ونقلها من البندر إلى ناس كفرنا الصغار والكبار على حد سواء، لكننى وأنا راجع سألت نفسى كيف استطاع الملك أن يموت ويعيش فى نفس الوقت، وتذكرت أن الملوك غير الناس العاديين أمثالنا، الملوك فى كلام كل العيال الأكبر منا يستطيعون عمل أى شىء ، وفى مراهناتهم بعضهم لبعض كان الولد الكبير يقول للولد الأصغر منه مثلاً:

- ابن الملك يقدر يطلع النخله العاليه، ويقدر ينط من فوق السطوح ع الأرض ما يتعورش... تقدر أنت؟

- ابن الملك يقدر يعدِّى البحر وايديه ورجليه مربوطين ويقدر يسبق القطر وهو بيجرى، تقدر أنت؟

وكم من مراهنات مستحيلة اخترعوها واخترعناها معهم لتأكيد قدرات ابن الملك التى شافها ناس كبار، أب أو عم أو خال أو أخ أكبر شاف وأقسم على المصحف إنه شاف ابن الملك يفعل كذا أو كذا أو كذا دون أن يعترض على الكلام أو الفعل الصعب طالما نسبوه لابن الملك.

لكننى لم أسمع عن ابن ملك أو حتى ملك مات ثم عاش مرة أخرى، فكرت أن أسأل أبى لكننى نسيت مثلما نسينا فى الكفر لعبة مات الملك عاش الملك بعد عدة أيام.

لكن سيرة الملك انفتحت فى دارنا من خلال الشيخ عبدالصبور الذى هو قريب أبى من بعيد وكان له أخ شفناه فى شرخة من الأرض مجاورة لأرضنا ثم اختفى وعرفنا من الشيخ عبدالصبور أنه دخل الجيش لتأدية الخدمة العسكرية ولعجزهم عن دفع «البدل»، لكن نبرة الشيخ عبدالصبور عن أخيه تغيّرت وهو يكثر من زيارتنا ويطوّل فى الوقت الذى يقضيه عندنا وليس له كلام إلاَّ عن عبد النصير الذى اختاروه وحده من بين كل المجندين فى مديريتنا ليكون ضمن حرس جلالة الملك فاروق، كنت أرى صورة الملك المنشورة فى الصحف التى كان أبى يشتريها أحيانًا، أراه شابًا جميل الملامح بالطربوش وأتخيله قادرًا على عمل كل المعجزات التى يتراهن عليها العيال فى كفرنا، ولابد أن كلام أبى عن الملك الطيب توافق مع كلام الشيخ عبدالصبور الذى كان ينقل لنا أفعاله وأقواله كما ينقلها له أخوه عبدالنصير وهو من ضمن الحرس الملكى، ويصف لنا ملابس التشريفة التى يلبسها وهو راكب الحصان بالكسوة أمام موكب جلالة الملك وكيف يرافقه فى كل تحركاته وينعم بعطف جلالته على عساكر حرسه الذين يأمر لهم أحيانًا بوجبات من اللحم الخالص الذى يأكل منه ويصرف لهم هبات مالية أحيانًا ثم يسمح لهم بركوب كل القطارات بالمجان، وكان كل ما يتمناه أن يجدِّدوا له مدة الخدمة فى الحرس الملكى فاقترح عليه أبى أن يكتب له طلب التجديد بنفسه ففرح ودعا لأبى بزيادة الرزق والستر فى الدنيا والآخرة، كتب أبى طلب التجديد بخطه اذن وسلمه الشيخ عبدالصبور لأخيه، لكن الرجل لم يكف عن المجىء

والحديث عن الملك وحرس الملك، يسأل أبى عن رأيه فى مستقبل عبدالنصير إذا قبلوا تجديد خدمته فى الحرس الملكى فيطمئنه أبى، يتنهد ويهز رأسه ثم يقول :

- دا لو جددُّوا له ح تنفتح له طاقة القدر، ح يعيش فى خير ما حدش يحلم به فى الكفر كله، ومش بعيد يحوش أرض ويصير من الأعيان.

- ربنا يسهل وينوِّلكم المراد.

يقولها أبى ويحاول أن يغيِّر الموضوع لكن الرجل يعيد ويكرر ما سبق أن قاله وردَّده وحفظناه، ومرة همس بصوت خافت فى أذن أبى:

- ما تدينا زينب بنتك لأخويا عبدالنصير

- زينب ح تكمِّل علامها يا شيخ عبدالصبور، دى لسه عيلة، ولما تكبر تبقى تاخد اللى يليق لها ويكون صاحب النصيب، ما تزعلش منى إن قلت لك ما تفتحش السيرة دى تانى... زينب؟ لأ...

كانت حسابات أبى أن الرجل سوف يكف عن المجىء ، أو على الأقل يخفف من زياراته لنا لكنه لم يفعل، ظل يأتى ويتحدث عن عبدالنصير وحرس جلالة الملك، وكيف أن عبدالنصير رآه أو سمع صوته من داخل السراية وكيف ناداه وسأله عن اسمه وبلده فجاوبه بكل الأدب، وكيف ترقى من عسكرى إلى وكيل أومباشى بشريط ثم أومباشى بشريطين وهو أمر ليس بالسهل فى حرس جلالة الملك

الذى تزيد فيه قيمة الشريط على قيمة الدبورة على كتف الضابط فى أى سلاح ، من كثرة حكايات الشيخ عبد الصبور عن أخيه بدأ أبى يتهرب منه ويأمرنا بإنكار وجوده لو سأل عنه وهو الذى لم يفعل مثل هذا الأمر أبدًا مع غيره من ناس الكفر رغم القرابة المؤكدة التى تربط بينهما.

وذات مساء جاء الشيخ عبدالصبور ووقف أمام باب دارنا المفتوح ونادى باسم أبى، وقبل أن تفكر أمى فى إنكار وجوده فاجأها وهو يتقدم ناحية العتبة قائلاً:

ـ أنا عارف إنه لسه واصل دلوقت وداخل من باب الدار، أصل أنا شفته من فوق سطوح الجماعة، عقبال عيالك عايز أبشرّك وأبشرّه بالخير اللى جايله والسعد اللى ح ينكتب له...

ـ اتفضل.

ودخل إلى القاعة ليرحب به أبى ويسمع منه البشرى التى تلخصت فى قبول طلب التجديد الذى تقدم به عبدالنصير لتجديد خدمته فى الحرس الملكى وكيف أن أبى بخطه الذى هو مثل سلاسل الذهب يفتح الأبواب المسكوكة، ذلك أن جلالة الملك قرأ الطلب بنفسه وعبر عن إعجابه بالخط وفصاحة كاتب الخط الذى هو أبى فطلب الأومباشى عبدالنصير وسأله إن كان هو الذى كتب الطلب فلم يكذب أو ينسب لنفسه خطا لا يخصه ، قال الحقيقة فى حضرة جلالة الملك والأكابر الكثار الذين كانوا فى مجلسه، بل

أنه أضاف اسم كفرنا فانبسط الملك والناس الأكابر وضحكوا وقالوا له قبلنا طلبك يا عبدالنصير.

ـ مبروك اللى نال مراده وشرَّف كفرنا وناسه.

ـ بكره الخلق ترمح وراه محدِّش يحصله.

ولم يعلق أبى على كلامه متحاملاً على نفسه حتى لايفسد على الرجل فرحته، لكن الرجل لم يكف عن التباهى بما حدث، شرب أكثر من مشروب بعد أن شاركنا وجبة الغداء ثم اعتدل فى جلسته وهمس بجدية ظاهرة:

ـ خدمة قصادها خدمة، تنزل مصر وتروح على ميدان عابدين، تسأل على عبدالنصير أخويا ألف مين ح يدلك ، ح ياخدك للضابط رئيسه فى الحرس الملكى، ح يدخلك على طول ويفكر جلالة الملك باسمك وبلدك وخطك، ح تتعين خطاط فى الديوان الملكى، شوف أنت بقى خطاط فى الديوان الملكى تساوى إيه؟ مش بقولك ح ينكتب لك السعد؟ ونبقى بالمرة نخلص موضوع كتب كتاب البنت على أخويا عبدالنصير.

ساد صمت شعرت فيه بالزهو لأن أبى سوف يكون خطاطا فى الديوان الملكى، وأنه لابد سوف يرى الملك جالسًا على عرشه، وربما يجعلنى أراه، لكننى أفقت من خيالاتى وأنا أسمع صوت أبى الغاضب:

ـ بقى أنت جاى وعينك مفتوحة كده وعايز البنت كمان؟ أنا مش سبق وقلت لك زينب بنتى ما تليقش مع أخوك؟ مش قلت لك؟

- هو انت ح تفضل مستقل بيه لأمتى؟ دا ح يتوسطلك تشتغل شغلاته ما تحلمش بيها، ما تلين دماغك لمصلحة نفسك.

- الله الغنى يا أخى... مش عايز أتوظف فى الديوان بتاع أخوك اللى ورثه عن أبوك، قاعد مستنى إيه؟ أجيب لك عرقسوس؟

لم يكن فى دارنا عرقسوسًا، وربما لم يدخل العرقسوس دارنا فى حياة أبى الذى لم يكن يحبه أبدًا رغم انتشاره فى دور ناس كثار فى الكفر خصوصًا فى شهر رمضان، كدت أذكّر أبى بتلك الحقيقة خوفا من أن يوافق الشيخ عبدالصبور كعادته كلما اقترح عليه أبى مشروبًا أو طعامًا، لكن الرجل نظر إلى وجه أبى بغضب وقام نصف قومة ثم أكملها على مهل، وربما يكون قد غمغم بكلام غير مفهوم لأنه نصف منطوق.

خرج الشيخ عبدالصبور من دارنا فى تلك الليلة الشتوية وربما لم يدخلها بعد ذلك أبدًا، ولم أفهم الأسباب، ربما كانت هناك علاقة بين الرجل والعرقسوس، أو أن هناك حادثة حدثت له على مسمع ومرأى من أبى فيها عرقسوس، لكنه على كل الحالات تباعد عنا ولم نعد نراه إلا نادرًا، كانت سيرته تتفتح فى مناسبات عديدة عندما يتحدثون عن أخيه عبدالنصير الذى شاع فى الكفر أنه صار من الواصلين الذين يوسطونهم لحل المشاكل العويصة فى كل الناحية وذلك بسبب أنه كان يحرس الملك ويراه ويتقبل عطاياه ويشترى الأرض التى ما كان يحلم بامتلاكها ولا حسب نفر من ناس الكفر أنه سوف يطأها بقدميه أبدًا، حلاق الحمير أبو يوسف نفسه

كان يقول عنه هذا الكلام رغم القرابة الشديدة بينهما، لكنه كان يأتى ويطيب له أن يفتح سيرته:

- وهو إن على ولا وطى مش حتّة عسكرى ولا حتى شاويش، إش جاب لجاب، دا المرحوم أبوك دفع لكم البدلية نهار ما كانت العشرين جنيه تشترى فدان طين، دفع لكم لجل ما حدش منكم يلبس الميرى، يقوم الآخر يقولك روح لعبد النصير ونادى عليه فى ميدان عابدين لجل يتوسط لك؟ لا ... لا مالوش حق أبدًا.

ولابد أن كلام أبو يوسف كان يدوس على جرح أبى الذى كان يتشكى من أن علاوة دورية راحت عليه أو أن ترقية كان يستحقها لم يحصل عليها وحصل عليها من كان أقل منه، صار أبى يتحدث باعتباره من مظاليم وزارة الصحة، لكنه أبدًا لم يوافق على كتابة مظلمة يأخذها أى واحد باليد ويسلمها لعبدالنصير ليقوم بتسليمها لجلالة الملك وهو الذى كتب بخطه الذى يفتح السكك المفتوحة عشرات المظالم والشكايات لناس الكفر دون أن يكتب مظلمته ليرفعوا عنه الأذى ويعود إليه بعض حقه المنسى فى ملفات المديرية الصحية.

كنت أشعر أنه رغم الضحكات حزين، كنا نكبر وتزيد مشكلاتنا فى الدار والمدارس، وكانت أمنياته القديمة فى عدل الملك الصغير الذى كبر تتناقص وتتضاءل ثم تنعدم، وكلما زادت مشاكلنا، أو ضاعت من راتبه علاوة أو فاتته ترقية زاد غضبه على السراى

والملك وحرس جلالة الملك ، ورغم رفضه لبيع ميراثه من الأرض إلاَّ أن أملاك عبدالصبور وعبد النصير التى كانت تجاور أرضنا من ناحية واحدة فى شرخة ضيقة وقصيرة من الناحية الشرقية زادت واتسعت وصارت تجاورنا من الشرق الغرب وقد كان يدفع بسخاء لمن يرضى أن يبيع له من جيراننا فى الماضى، ولا بد أن عبدالصبور كانت له أغراض يفهمها أبى وتخفى على أمثالى فى ذلك الزمن البعيد.

* * *

فردوس هى عمرى: شريكتى فى الفرح والهم ومستودع أسرارى، لها وحدها من دون خلق اللّه أفتح أبواب قلبى ولا أدارى ، لا أشعر أمامها بالخجل من ضعفى أو مخاوفى أو عوزى، هى مثل البلسم تنحط على جرحى فتداويه ويطيب، يزول كل ما قد يكون أصابه من وجع، ومعها أنسى كل المصاعب وأضحك من قلبى، أزرع الأحلام التى تبددت مرة أخرى وأعيش بالأمل ، تحوطنى وأنا العريان البردان بثياب الأمّنيات الناعمة فاستشعر الدفء بنظرة منها، تبدو لى مثل أم فقدتها فى طفولتى المبكرة واستعدتها فى مطلع شبابى فصرت رغم سنوات العمر التى فاتت وانقضت طفلاً أبديًا لا يكبر قلبه ولا يشيخ رغم التجاعيد البادية والشعر الأبيض يغطى الرأس والشارب والحاجبين والصدر كله، عاشت ترعانى وعشت أرعاها، تحنو علىَّ وأحنو فى كل لحظة، تحوطنى وأحوطها بالود وسماحة النفس، فردوس هى عمرى المخلوط فى عمرها فهل طالتنى الكلاب فى مقتل؟

كنت قد واجهت الموت الحقيقى مرة، هى لحظة خاطفة تلك التى تفصل بين الحياة والموت، لكن تلك اللحظة الخاطفة نفسها تتسع رغم قصرها الشديد لكى يسلم الإنسان وديعة عمره لمن يهمهم أمره ، يسلمهم بالروح أو إرادة الحياة آخر الوصايا، وربما لايقول باللسان حرفا، لكنه يبعث إليهم برسالة مختصرة حاسمة وقاطعة ولاتقبل الضياع أو المساومة، هكذا على الأقل استشعرت أنا فى تلك اللحظة الخاطفة أننى أبعث لها رسالتى المختصرة الحاسمة أوصيها برعاية العيال إذا مت فجأة، الغريب الغريب أن الرسالة وصلتها رغم بعد المسافة بينى وبينها، وصلتها وحدثتى عن تفاصيلها بنفس الصورة التى تخيلتها بعد ذلك ، وشعرت ساعتها بنوع من الأمان الداخلى لأن ما بينى وبينها موصول ومتصل، وأنه فى أسوأ الحالات لابد أننى سوف أتمكن من التواصل معها ولو عبر اللحظة الخاطفة الأخيرة من عمرى.

فكرت فى أمرها وأمرى وأنا أتأمل أركان الدار وقد خلت منها، ولم يكن فى الدار آثار ضرب أو خبط، ولم تكن قد وصلت إلى قلبى أو روحى أو نفسى أى مقدمات للرسالة الأخيرة التى لابد أن تبعثها هى لى لو حدث وواجهت إحساسها بنهاية العمر، كان فى قلبى ثبات يصل إلى حد اليقين فى أنها بخير إذا كانت على قيد الحياة، مجرد الاستمرار فى الحياة محسوب فى جهة الخير، هى حيَّة تتنفس حيث لا أعلم ولا أستطيع أن أذهب، خطف مقصود به إخضاع إرادتى وتقييد حريتى وتهديدى، ولأن من فعلها أو دبَّر لها عدو قديم وأبدى بحساباته على الأقل، فيلزم أن أستعيد تاريخى

لأعـرف أعـدائى، أحـضـرهـم فى ذاكـرتى أولاً ثم أصنِّفـهم، أصنِّف أساليبهم فى مواجهة الخصوم ثم أتوصل إلى مناطق البحث وأرتِّبها بحسب أولوياتها. المسـألة فى واقع الأمـر نكبـة فـادحـة أو مـصـيبـة كبيرة وليس لها عـلاج بغيـر الوعى وتهدئة المشـاعـر، هل أقول أنه يلزم أن أتـخـفَّى فى طبـاع الأجـداد القـدامى مـن زراع الأرض الذين انعـزلوا عن العـبـيـد المجـاليب المملوكـين الذيـن تحـولوا إلـى سـادة بسيوف وخناجـر وحراب وأتباع يمارسون الغدر كل الغدر ولا يحفظ الحـيـاة أو الأحـيـاء غيـر الكثـيـر الكثـيـر من المراوغـات والملاوعـات والتخابث المشروع، فليكن ما على الوجه غير مـا فى القلب وليكن ما ينطق به اللسـان مـعكوس مـا يصـدقـه العـقل الناصح فى بعض الحالات، فالكنز المخطوف يستأهل الحذر كل الحذر لكى أستعيده.

وطَّنت نفسى على الصبر، صبر أيوب المصرى المبتلى وقد راحت من دنياه الناعسة وما تبقى له غيـر الانتظار لصبح تنزاح فيه الغمَّة، ولسوف يعتصـرنى الألم وأعتصـره وحدى ممرورًا بالسكوت الغصب والكلام الغصب ومتأبيًا على الاستسلام لليأس، ليس لأن فى اليأس موتى وفنائى فقط بل لأنه أيضًا فناء لها وانتفاء وقد طالتها الكلاب وطالتنى فى مقتل.

أن تخلع جلدك القـديم وتلبس جلدًا غـيـر جلدك، أن تصـيـر معكوس نفسك بينك وبين نفسك، وأن تتحدر من مكانك الحقيقى إلى مكانة أدنى لتحتـال على الدنيا بهدف البقـاء فى ذلك الهـامش المخفِّى بغرض الاستمـرار فى المكان والزمـان، معـاندًا حتى نفسك

ومتحولاً من أستاذ إلى نفر أو شبح شاحب الوجه نحيل البدن يتوكأ على العصا فيستدر عطف البشر وتتشفَّى فيه الأنطاع ، كانت هذه هى ملامح صورتى الجديدة التى رسمتها لنفسى، ولابد لابد أنها كانت حيث كانت تحسَّنى وتبعث من روحها فى اتجاهى أمارات الرضا، ومنذ تلك الليلة حالكة السواد وقد تأكد اختفاؤها من الكفر وكل الناحية صرت أتمثلها وأستعيدها من الذاكرة، أحرص على إحكام قفل الأبواب بالترابيس والشناكل الحديدية والنوافذ المطلة على الدرب قبل أن أحادثها بصوتى المسموع وأرد نيابة عنها بما هو مخزون فى ذاكرتى من ردودها اللائقة، وفى مثل تلك الحوارات كانت تستدرجنى فأعايشها وأعاشرها وأتناول جرعات الدواء فى مواعيدها وأرتمى على الفراش مهدودًا بالتعب مثلما كنت أفعل فى السابق، صرت أعيش حياتها وحياتى كما كان يحدث، يطول ليلى وأسهر بالأرق، وعندما يطلع النهار أطلع من الدار فى نفس مواعيدى وأرجع فى نفس مواعيدى، وربما كنت أتطوع بشراء مستلزماتها فى بعض الحالات وقد فقدت الدار خيرها وقد تطاير الحمام الساكن فى البنانى وبين فراغات سقف وسط الدار، تطاير وهجر وما عاد يحط أو يبيض ويرقد على البيض ينتظر الفراخ الصغيرة ليرعاها حتى تكبر ويظهر على جلدها الطَّرى ريش، والدجاجات أصابتها «شوطة» وسطت عليها العرس والكلاب والقطط الضالة فما عادت تنق وما عادت تبيض، صرت مكرهًا على شراء كرتونة بيض المزارع والفراخ المجمدة وخيار الصوبات الماسخ الطعم معدوم الرائحة.

وبالجملة صار السؤال الذى يؤرقنى ويحيرنى هو: كيف كانت هى تدبّر أمور الدار بكل تلك الكفاءة وما كانت تملك أكثر من نفس الجدران وفراغ وسط الدار وسطحها المكشوف؟

* * *

كنا من غير زينب فى عين العدو خمسة كما اعتادت أمى أن تقول دائمًا وهى تفرد كفها بطول الأصابع وتمدها واقفة بين وجهها ووجوه من تتوقع منهم مخاطر الحسد ، لم تكن تفرق بين الأقارب والغرباء، ربما كانت تفعلها أكثر مع أقرب الأقارب، جدتى التى هى أمها أو فرحانة أم يوسف أو خالتها الباتعة أم مرسى، أحيانًا كانت تفعلها فى وجه أبى الذى كان يضحك وهو يسألها باستنكار وهو يعرف مقدمًا جوابها، يسألها إن كان من الممكن فعلاً أن يحسد الرجل أولاده فتجاوبه بأنه لايحسد المال أو الطير إلاّ أصحابه، ولايحسد العيّل إلا أهله واحبابه، يسكت ويدعو لنا جميعًا بالستر ويطلب من الله أن يحفظنا إكرامًا لخاطرها، وربما يكون قد قال لها مرَّة أو لم يقل لها: أنه لو حدث لاسمح اللّه وأصاب أى عيل من عيالها مكروهًا فإنها لن تحتمل، تصاب بالجنون أو تطب ساكتة، لعلنى كنت أعيش حالة من حالات التوقع الصعب بسبب تكوينها وقلقها الذى لاينتهى، وكان أبى لا يملك غير طمأنتها وتهدئة مشاعرها المتوترة .

لكن زينب التى كانت خارج حدود قبضة اليد المفرودة فى وجوه الحاسدين أصابتها العين بين يوم وليلة فتحولت فى قلب أمى إلى

جرح بلا دواء وفى قلب أبى إلى وجع لايملك نسيانه أو دفعه أو حتى التقليل من فداحته. وقد بدا أن أمى بالفعل لن يواسيها كلام أو يرضيها عزاء، ربما لأن زينب نفسها كانت أبعد ما تكون بحسابات أمى على الأقل عن منطقة الخطر، كانت البنت بأدبها وخفة دمها وحيويتها بالإضافة إلى صحتها وجمال تقاطيعها تزرع فى قلوب الكل املأ وارتياحًا مطمئنًا، كأنما كانت خارج دوائر التوقعات الصعبة، لكنها كانت مثل مصباح شديد الإضاءة نفخت فيه نسمة عابرة فاهتز الشعاع ثم انطفأ، وكانت بالنسبة لى مثل خيال مسافر وعد بالرجوع لكنه لم يرجع أبدًا، ولأن امرها كان عسيرًا على التفسير بالنسبة للكبار فقد كان بالنسبة لى خيانة من عزرائيل بكل ما تعنيه كلمة الخيانة من دلالات.

البنت رجعت من المدرسة وملأت أركان الدار صخبًا، شاسكت الكل وقبلت من الكل المشاكسات بابتسامتها الودودة المتألقة ثم فجأة حطّت كفها على جبهتها وبدا أنها سوف تتأوه لكنها لم تفعل، اهتزت فى نفس مكانها وكل عيوننا عليها تناديها فى صوت واحد مشترك ، ربما تكون قد شعرت بدوخة أفقدتها التوازن وكادت أن تقع على الأرض لكن أبى كان هناك فتلقاها على صدره وأحاطها بذراعيه، حملها مدهوشًا وأرقدها على طرف السرير، طلبت أن تشرب جرعة ماء فقربت أمى حلق القلة من فمها، ظلت تشرب وتشرب حتى أفرغتها وأشارت تطلب المزيد:

- عطشانه

لكنه لا الماء الصافى ولا الماء بالسكر ولا عسل النحل المذاب فى عصير الليمون جعلها تشعر بالارتواء، وأسرع أبى إلى البندر راكبًا جحشته السريعة ليستدعى الطبيب من المستشفى كما أشارت عليه أمى، ربما يكون الوقت قد طال وربما لم يمض وقت طويل قبل أن نسمع صوت سيارة الطبيب يهدر ثم يتوقف أمام الباب، كانت زينب قد راحت فى إغفاءة قصيرة من فرط الإرهاق، لكنه عندما فحصها الطبيب لم يجد فيها شيئًا مخالفًا للمألوف، استمع إلى وصف أمى باهتمام ظاهر لكن دون اقتناع، واستدار لأبى قائلاً:

ـ البنت ما عندهاش حاجة.... يمكن دلع بنات.

لكن البنت تحركت وكذّبته وهى تهمس لأمها:

ـ عطشانه... أشرب.

كانت أمى تسقيها والماء الذى تشربه يتصبب من مسام جلدها عرقا غزيرًا لايكف عن معاودة الظهور وبكثرة برغم أن أمى كانت تجففه بالمناديل وفوط الوجه والملاءات، ولابد أن الطبيب احتار فى أمرها وأجهد ذاكرته لعله يكون قد قرأ فى كتب الطب التى درسها شيئًا يشبه ما يراه وقد تحوّلت البنت إلى أرض شراقى فى عز «بؤونة» الحجر، ينصب الماء من فمها المفتوح وبكثرة فينشع من مسام بدنها فلا الماء يكفيها أو يرويها ولا المسام تنسد، لعلها كانت تحتاج إلى سيل من مطر لايتوقف أو مجرى نهر نرميها فيه فينطفئ اللهب الذى ما رأيناه ولا رآه الطبيب الجديد الذى نزل كفرنا لأول مرة لعله يؤدى خدمة لأبى ويعالج البنت، لكنه عندما

أعيته الحيل اقترح أن يركب سيارته ويذهب إلى البندر يستدعى مدير المستشفى أو أى طبيب آخر فلعل وعسى أو كما قال لنفسه:

ـ وربنا يستر... ربنا يستر.

ربما كانت السيارة وقد تباعد صوتها قد وصلت إلى أول السكة الزراعية فى طريقها إلى البندر عندما فتحت زينب فمها وأشارت إلى القلة وهمست بالحرفين لم تكملهما:

ـ أش...

ثم سكن الرأس فى نفس مكانه، تحركه أمى فلا يتحرك، تهزها فيهتز بدنها باستسلام وقد فقدت قدرتها على الإحساس أو الحركة، كانت أمى تناديها ولاترد، لكن قطرات العرق كانت تنز من جبهتها ولا تكف، حتى وهى على درابة الغسل كانت تغسل بدنها الطرى بعرقها والنسوة يكذبن عيونهن ويقسمن أنهن لم يشهدن فى كل أعمارهن واحدة مثل زينب:

ـ عروسة فى ليلة الجلوه، على وشها نور وجسمها بيلمع كما البنور... زينب من بنات الحور...

مثل هذا الكلام قالوه وقالوا أكثر وأكثر، ولعل فرحانة أم يوسف كانت أكثر النسوة ملازمة لأمى، تجالسها طوال النهار وتتركها فى أوقات الرقاد ثم تأتيها فى الصباح الباكر، توقظها إن كانت نائمة لتحكى لها المنام الذى شافت فيه زينب:

ـ شفتها النبى حارسها وصاينها لابسة أبيض فى أبيض، وكانت

- شفتها النبى حارسها وصاينها لابسة أبيض فى أبيض، وكانت ضحكتها منورة وهى بتقولى روحى يا خالة فرحانة طمّنى أمى، قوليلها إنى فى الجنة ونعيمها وأن ربنا اختارنى وسقانى من نهر الكوثر، سألتها نهر الكوثر ده فين يا زينب يا بنتى ضحكت وطارت لبعيد زى ما تكون حمامة بيضا، عارفاش نهر الكوثر ده يبقى إيه؟
... آه... أيوه ... تبقى فى الجنة صحيح.

تسكت أمى مدة ثم تنخرط فى البكاء وهى تهمس لفرحانه:

- يا بختك بتشوفيها يا فرحانه يا ختى.. أمال أنا ما بشوفهاش ليه؟

ترد عليها جدتى إن كانت حاضرة:

- من عمايلك اللى بتعمليها فى روحك وروحها.

كانت فرحانة فى تلك الأيام رفيقة أمى، تأتنس بها وتبوح لها بحرقة قلبها على زينب والأخرى تواسيها بالكلام المريح وتحلم لها كل ليلة حلمًا جديدًا شافت فيه زينب:

- وشفتها يا حبة عينى واقفة على كرم نخل وعيال صغار بتجمع لها بلح من كل شكل ولون، زغلول وسمانى وأمهات ورطب وابن عيشه، تمر أبريمى وسكوتى وبلدى وجنديله، يجمع لها العيال ويحطوه فى حجرها، بصت لى وناولتنى حفان تمر ما دقتش زى طعمه ولا انحط على لسانى طول عمرى... ده بلح الجنة ما فيش كلام.

الغاليه صحتنى من النوم وأنا نايمه فى المنام، قالت لى روحى لامى خليها تطلع شوال البلح الأبريمى المحطوط فى الحضير البحرى وتفرقه ع اليتامى فى ليلة الخميس الكبير.

وتبدى أمى دهشتها لأنها بالفعل خزَّنت البلح فى الحضير البحرى وبحسب ما أقسمت لم يعرف سر بلحها غير المرحومة، يتأكد لها أن فرحانة صادقة فى كل أحلامها وأنها لاشك نطفة طاهرة ومظلومة فى معيشتها مع رجل لايستحقها ، تأمرنا بأن نطلع ونفرغ البلح المخزون فى الشوال وأن نعطيه لفرحانة لتوزعه بمعرفتها على روح المرحومة، وأشياء أخرى شبيهة بهذه الأحلام وتلك الرسائل التى كانت فرحانة تتلقاها من زينب الساكنة بجوار نهر الكوثر وأمى التى كانت توشك على الجنون لولا هذه الحكايات والأحلام والوصايا التى كانت تنفذها دون تردد أو تفكير، حتى فى الأيام التى لاتفاتحها فرحانة أو تحكى لها حلمًا جديدًا شافت فيه زينب كانت أمى تسألها إن كانت زينب غضبت عليها، فتهبد صدرها بفزع:

- يا حومتى... تغضب عليا إزاى؟ وأنا خالتها، مش بيقولوا الخالة والده... إنتى فكرك إنها غضبانة منك؟ أبدًا... دى زعلانه عشانك وح تجيلك فى المنام قريب... دى هى إللى قايلالى بعضمة لسانها... تعالى أما أحكيلك تعالى على اللى شفته.

تستسلم أمى لها وتسمع تفاصيل المنام الجديد، تبدو وقد استغرقت فى الحلم وعاشته لحظة بلحظة، والأخرى تواسيها وتربت على كتفها بحنو وربما تتأثر أكثر وتشارك أمى البكاء.

لكن أصعب يوم وأصعب ليلة فى تلك الفترة الحزينة كان يوم الخميس الكبير وليلته، ربما لأن أمى انشغلت قبلها بالناس من

الأهل والأقارب والجيران قريبهم والبعيد، يحادثونها ويواسونها، كانت الدار مزحومة بالرجال والنسوة والعيال، وكانت طواجن اللبن قبل ليلة الخميس تأتى محمولة على رؤوس البنات بلا عدد، ووسط الدار تمتلىء بالطيور الغريبة والأركان بعبوات التمر وثمار البرتقال، وليلة الخميس نفسها سهرت النسوة حول المواجير تعجن القرص والفطائر أو أمام الفرن تخبزها وتفردها على الحصائر لتبرد قبل أن ترصَّها فى السلال وبأعداد فردية دائمًا، وطلع فجر الخميس قبل موعده كما قالت فرحانة أم يوسف وأيدَّتها جدتى.

وفى المدافن تولت فرحانة توزيع الفطائر والقرص والتمر والبرتقال على الأطفال الصغار والمقرئين ومن احترفوا جمع رحمة الأموات فى كفرنا ومن خارج زمامه، رجعت كل السلال فارغة تمامًا، وقبل العصر جاء إلى الدار كل مشايخ الكفر من العميان والمفتحين، من مقرئى الرواتب والفقهاء، وقسَّموا القرآن إلى أجزاء بينهم ثم بدأوا فى القراءة، كل واحد يقرأ فى جزء غير الأجزاء التى يقرأها الآخرون بأصواتهم المتداخلة التى يصعب وسط الجلبة تميز غليظه من الرقيق أو المرتفع من الخافت، هى الخاتمة التى يتم الواحد منهم جزءه فيسكت بينما يستمر الآخرون حتى أنهى الشيخ محمدين الضرير آخر آياته فطلبوا له فتح الله ونور البصيرة، وقبل أن يسيطر الصمت على أركان المندرة الكبيرة جاءت الصوانى وعليها المواعين المملوءة بالفت والأرز وفوقها القطع الكبيرة من اللحم المسلوق، تخاطفوه رغم الكثرة عميان ومفتحين وبأسنانهم نهشوه قبل أن يجربوا الأرز، تساند البعض منهم على الكفوف

والبعض الآخر على الكيمان متباعدين عن الصوانى ومسنودين على مساند الكنب يشربون الشاى برشفات لها صوت، وبعدها دسَّ أبى فى كفوفهم المفرودة فلوس الرحمة فدسَّها البعض فى الجيوب وأبقاها البعض فى القبضات المضمومة وهم يتساندون بينما ينصرفون من الدار داعين لأهلها بالفرج والستر وأن تكون هذه آخر الأحزان، لكن الخاتمة التى كان من المنتظر أن تطرد الشياطين من الدار وأن تنزل على قلوب أهلها الصبر والسكينة انتهت نهاية غير محسوبة، ذلك أن أمى رأت وسط الخارجين ظهر الشيخ عباس الأعرج وهو يظلع فى خطواته متعجلاً فإذا بها تسحبه من قفا جبته إلى الخلف فيختل توازنه ويسقط بطوله مرميًا على ظهره وعيناه تنظران إلى سقف الدار، خلعت فردة مداسها ورفعتها لأعلى فى مشروع لضرب الرجل الذى تساند على أياديهم وقام نصف قومة، لكن أبى كان قد جاء إلى المكان ورفعها بينما مازالت ترفع مداسها لأعلى وتصرخ:

- نزِّلنى... نزِّلنى... خلِّينى أقطَّع البرطوشة على دماغه، مين دخَّل الأعرج أبو ديل نجس دارى؟ يدخلها فى يوم زى ده ليه؟ وأنا أقول قلبى مولع نار ليه؟ أتاريه إبليس ومدفوس مع الخلق الغلابه دول، يا نارى... نزلنى يا راجل نزلنى.

ولم يتركها أبى تنفذ رغبتها أو ينزلها إلاَّ بعد أن خرج الشيخ عباس الأعرج من باب الدار، وربما يكون قد خرج من الشارع ووصل داره، أو دخلها وسك بابها عليه.

أيدت كل الحاضرات أمى فى فعلتها إلاَّ فرحانة أم يوسف التى وجَّهت كلامها للستات دون أن تنظر ناحية أمى:

- حرام عليكم يا ناس... اللى معاها كلمة طيبة تقولها... دا غلبان ومنكسر وعاجز كمان، إنتو كده بتقطعوا عيشه ظلم.

- بس الخلق كلها شاهده على نجاسته وقلة حياه.

- خلق مين يا أم الشحات؟ انتوا اللى بلدكم تولد البغله، أهو تلقيح جتت والسلام...

- لأ بقى يا أم يوسف... يوسف ابنك فين؟... أهه، قول لأمك يا يوسف شفت إيه فى الترب ليلة العيد أنت والشحات؟

وحكى يوسف وحكى الشحات وحكيت أنا ما كنا قد رأيناه ثلاثتنا فى تلك الليلة المقمرة التى سرحنا فيها ثلاثتنا وسط الغيطان وتجاسرنا عنادًا على الرجوع من سكة المدافن حتى لايتهم أحدنا بأنه خاف من العفاريت التى تسكنها، سمعنا فى أول الأمر أصوات ونحنحات ثم رأيناه عند حوش مدفن النعناعية الجديد، كان هناك مقطع قماش ملفوف حول نفسه والشيخ عباس بارك على ركبتيه وقد تعرَّت مؤخرته ومن بين فخذيه شفنا ساقين عاريتين لامرأة لاتتحرك، فى أول الأمر تهامسنا بأنه عفريت راكب عفريت لكن الولد يوسف قال أنه بنى آدم راكب بنى آدم أو بنت آدم، تباعدنا عن المكان واختبأنا فى زريبة عزيزة بنت الدبوس ننتظر وقلوبنا توشك على التوقف من شدة الخوف، وعندما مرَّ

الشيخ عباس الأعرج وقد لفّ مقطع القماش تحت إبطه تأكدنا أنه هو، كان يتنحنح ويتمخط ويكح ويحادث نفسه بخفوت:

ـ الستر من عندك يارب، استرها يا كريم.

كتمنا السر فى قلوبنا حتى صباح العيد عندما أشاع الناس إن حوش مدفن النعناعية انفتح وان كفن سعيدة بنت الغباشى النعناعى انسرق وفاتها اللص عريانة، قلت أنا لامى ولابد أن الشحات قال لأمه لكن يوسف لم يبح بالسر إلا فى تلك الساعة وقد كنا فى المكان معًا، لابد أنه لم يشع ما رآه تنفيذًا لنصيحة أمه فرحانة أو تهديد أبوه حلاق الحمير بأن يقطع دابره إذا نطق، لكن سر عباس انكشف وصارت الناس تقول للناس أنه خباص وأنه يرتكب دائمًا الفاحشة مع الأموات من النساء والبنات ويسلب الأكفان، لكنه كان مجرد كلام قلناه فى ليلة عيد، وربما تهيأ لنا أنه كان عباس لأن العفاريت والجن تتشكل فى هيئة البنى آدمين.

كانت فرحانة أم يوسف هى الوحيدة التى لم تصدق الحكاية وجلست إلى جوار أمى تهدئها وتحلف لها بأغلظ الأيمان بأن المسألة كلام عيال وأن زوجها عندما كان يجمع مشايخ الكفر والفقهاء لم يكن قد سمع مثل هذا الكلام الفارغ وإلا ما كان اتفق مع عباس، وحفظة المصحف والمقرئين فى كفرنا وكل الناحية متواجدون وجاهزون ورهن الإشارة فى كل الأوقات.

لكن الليلة لم تفت على خير، كانت الدار قد صارت شبه خالية بعد أن تسحبت النسوة واحدة فى إثر واحدة وما تبقى غير جدتى

وفرحانة وأم الشحات، أما الرجال فلم يكن هناك غير أبو يوسف وزميل لأبى منقول جديد لمكتب الصحة وقد جاء ليؤدى واجب العزاء وتعشى ثم سأل إن كان السير فى السكة الزراعية بعد المغرب خطر فجاوبه إبى بأنه من الممكن أن يقضى الليلة فى دارنا حتى يطلع النهار.

ولابد أنه كان صوت زغرودة ذلك الذى سمعناه يخترق آذاننا من جهة آخر الشارع ناحية بوابة أولاد عوف، قامت فرحانة أم يوسف من جلستها بجوار أمى وقد نجحت فى تهدئتها من ناحية دخول عباس الأعرج دارنا ومشاركته الفقهاء قراءة الختمة الشريفة والتى لابد أنها بسبب وجوده لن تنفع ولابد من إعادتها، لكن صوت الزغرودة كان بمثابة موضوع جديد أهم من موضوع الختمة وعباس ومسئولية أبو يوسف عن وجوده، خرجت من باب الدار تستطلع الأمر فما غابت حتى سمعنا أصوات متداخلة زغاريد ثم أصوات استغاثة وصراخ ورمح وفرحانة تعبر من باب الدار المفتوح وهى تستغيث لا أدرى بمن:

ـ إلحقونى ... إلحقونى... ح يموتونى... إلحقونى يا ناس.

وعندما اختفت فرحانة داخل الدار رأينا زوجة عبدالصبور وزوجات أولاده الكبار وعياله الصغار يقفون عند الباب ولايتجاسر أى منهم على عبور عتبتها وهم يسبون فرحانة ويتهددونها بالهلاك إذا ظهرت لهم، طلعت لهم جدتى وطلع أبى يستوضح الأمر فعرفنا أن فرحانة بطحت الشيخ عبدالصبور بقالب طوب أحمر وأن الرجل

فى الدار غرقان فى دمه، أبدى أبى دهشته مثلما اندهشنا وسألناهم عن الأسباب فتبادلوا نظرات حائرة ولم يرد على السؤال أحد، لكن بعض الجيران ممن كانوا فى المنطقة يتسكعون فسروا لنا الأسباب وهم يطردون من كانوا يطاردون فرحانة ويتهددونها منذ لحظات فانسحبوا جميعًا بتراخ وكسل.

- الخلق دول زى ما يكونوا قلعوا برقع الحيا، لابيراعوا جيرة ولاقرابة، هو ده وقته يشرطوا شرط ويقروا فاتحة؟

وعندما ظهرت فرحانة وقد اطمأنت عرفنا منها ومنهم تفاصيل ما جرى عندما اكتشفت فرحانة أن عبدالصبور «الخنزير» اختار هذه الليلة بالذات ليكيدنا حيث قرأوا فاتحة عبدالنصير الليلة على بنت جعفر الشوكى وهو نسب لايشرف ولايرفع رأس، تباكت أمى وهى تتذكر كيف كان عبدالنصير يلح فى طلب المرحومة زينب وكيف أن أبى رفض وأنها رفضت أن تعطيها لواحد مثله لا علام ولا تربية ولا أصل ولاقيمة، تباكت أمى وفرحانة تهدئها وتمنيها بخلفة بنت غير البنت تتسمىَّ بنفس الاسم وتعيده على ألسنة أهل الدار، هل ارتاحت أمى للفكرة وتمنت حدوثها؟ ربما، وربما تمناها أبى وتمنيناها لتكون لنا عوضًا عن زينب، تلك التى انخطفت بلا مقدمات.

وقالت جدتى لأمى أنها لو كان لها أخت شقيقة أم وأب ما كانت عرَّضت روحها للموت فى دار عبدالصبور وما كانت أخلصت لها أكثر من فرحانة، قالت ذلك وتمنَّت لها الستر وأن يرزق ابنها يوسف من حيث لا يعلم ولايددرى فوافقتها أمى وقالت: آمين.

لابد أنها أمى التى ورَّثتنى الحذر والخوف مما يمكن أن تفاجئنى به الأيام، هو حذر متواصل يلبد فى الدماغ ويفتح له الأبواب ليعايش كل التخَّيلات الصعبة وكأنها بالفعل حدثت أو أوشكت على الحدوث، كيف أتهرب من هذه التخَّيلات الصعبة وكأنها بالفعل حدثت أو أوشكت على الحدوث، كيف أتهرب من هذه التخَّيلات عندما تحاصرنى وأنا فى الشغل مثلاً، تركبنى فى أول الأمر بوداعة ثم تضغط على أكتافى وتكبس على أنفاسى وتمارس استبدادها الذى لايحدَّه حد أبدًا، كانت أمى تتوقع الخطر وتخشى على عيالها من الحسد، وكانت تنتظرنا الواحد بعد الآخر، لعلنى شاركتها القلق فى أيام الأجازات أو أيام الغياب عن المدرسة، تنتظر أختى فإذا وصلت تنتظر إخوتى واحدًا فواحدًا ثم تنتظر أبى، لو تأخر أى منهم عن الموعد الذى حدَّدته هى بحسِّها الخاص تركبها الهواجس وتعذبها - مع من يتواجد معها - كل التوقعات الشرسة، كانت تملك خيالاً خصبًا فى تمثل الشرور وكيف يمكن أن تصيبها أو تصيبنا بلاذنب:

ـ افرض أن أبوك وهو راجع طلعوا عليه قطَّاعين الطريق الشراودة، أبوك غلبان ومالوش أهل يتخاف منهم، مش يمكن يقتلوه وياخدوا اللى معاه، ساعتها ح تتربوا يتامى من غير أب، وعمامكم ما فيهمش خير لحد، أبقى أنا اعمل إيه، وانتوا تعملوا إيه؟

أسرح متخيلاً ما يمكن أن يحدث وأشعر باليتم وأستحضر فى ذاكرتى كل الأطفال اليتامى فى الكفر فأشعر بالانكسار، لكننى

أفيق على نحنات أبى وقد اقترب من باب الدار أو دخلها، أجرى فى اتجاهه وأمسك بساقيه احتضنهما بلهفة من عثر وهو فى حالة يتم حقيقى على أبيه الذى وهبه اللّه الحياة من جديد.

ولابد أنه أبى ذلك الذى ورَّثنى تلك الحالة من حالات الاستسلام والرضى بما يمكن أن يلقاه لأنه كما كان يردِّد دائمًا:

ـ المكتوب على الجبين لازم تشوفه العين، واللى من نصيبك لابد ح يصيبك، وإن جريت جرى الوحوش... والأعمار بيد اللّه لاتقول طب ولادوا... بس البنى آدم يعمل اللى عليه، دا البنى آدم غلبان، غلبان خالص، ومهما كان متجبِّر وفرعون برضه غلبان، على ولاّ وطى أهو بنى آدم له أجل محسوب، أنا عارف الخلق بتتخاصم ليه؟

كأنه على امتداد عمره كان مستعدًا لمصالحة الدنيا بأسرها، لا أذكر أنه وضع إنسانًا ـ مهما كانت بينه وبين هذا الإنسان من خلافات يحسبها الناس عداوة ـ فى خانة الأعداء، كان يبدو لنا ولأمى على وجه الخصوص مسالمًا إلى حدِّ التفريط، تهمس لنا فى ساعات التودُّد:

ـ ده ربى إخواته البنات وجهِّزهم من كدَّه وادَّاهم ورثهم اللِّى فى عبُّه كمان، أقوله هاتللى ورثى فى عبَ أمى يقول يا وارث مين يورثك؟ مش لى حق أطق من جنابى؟

لكنها كانت تحبه وكان يحبها، ولا أذكر أنهما رغم اختلافهما الشديد فى الطباع اختلفا على شئ إلى حد يتهدَّد حياتنا أو حياتهما معًا، لابد أن مساحة الاتفاق بينهما كانت أكبر من تلك

الاختلافات، ولابد أن قدرتهما على فهم بعضهما البعض جعلتهما في مأمن من عواصف الأيام، لكننى ورثت عنهما ودون اختيار تلك المخاوف من مفاجآت الزمن، وهذه الرغبة فى مصالحة الدنيا بأسرها بلا ضغائن ولا كراهية حتى لمن يحسبون أنفسهم فى خانة الأعداء، أتأمل ميراثى فأندهش لأننى أنقسم أو أنشطر بين رغبتين متنافرتين، رغبة الحماية التى تصل إلى حدٍّ التوحش ورغبة المسالمة إلى حد التفريط والعبط، الوسوسة والتواكل، مخاصمة الدنيا بأسرها والرغبة فى مصالحتها كلها وبلا مقابل.

نرجع لحكايتى مع يوسف الذى انجرح بإبعاده عن عمادة الكفر فتحوَّل إلى وحش خبيث بمخالب ظاهرة ومخفية، ولابد أن يوسف تشكَّك فى أن أكون أنا من بين العناصر التى سعت إلى عزله أو على الأقل عرفت هذه العناصر، لعله كان تأرجح بين غايتين: الأولى أن أتحول إلى صفه وأعيده أو على الأقل أساهم فى إعادته، والثانية أن يدمِّرنى إذا تمكن ليثبت لنفسه ولأعوانه أنه قادر فى كل الحالات على الرد، حتى لو كان الرد فى غير مكانه أو وقته فهو رد لإثبات القدرة التى يسعى ويلزم ومن حقه أن يمتلكها حتى ولو على حساب شخص برىء من خارج ساحة الصراع.

لعلنى كنت على امتداد العمر هدفا مكشوفا تسهل إصابته لكنه لحسابات حسبها أجَّل تصويب سهامه ناحيتى طالما لم اعترض طريقه أو يتشكَّك فى أننى اعترضت طريقه مرة، كان الخلاف بيننا كلام فى كلام، والخلاف فى الكلام يكشف البنى آدم وأفكاره، من

ناحيتى كنت دائمًا أبوح له بقناعتى وأكاشفه منذ البداية أو البدايات بأننى أراه شخصًا ضعيفًا يستحق الإشفاق، أتمادى موضحًا له أنه يلجأ إلى الكذب كثيرًا لأنه بلاسند أو ظهر قوى يحميه، وفى البدايات كان يضحك ويوافقنى مبديًا سخطه على الظروف الصعبة التى إنوجد فيها، يطيب له فى بعض الأحيان أن يقارن ظروفه بظروفى السهلة، يرضينى ذلك الاعتراف فأتمادى فى ذكر مزايا الصدق والشجاعة التى يتحلى بها الأقوياء، هؤلاء الذين لايخيفهم فى الحق لومة لائم ، كان يسلّم أو يستسلم لأفكارى فأصدق نفسى أكثر، لكنه فى صحوة الشباب بدأ يوسف يتحفظ فى أول الأمر ثم يتجاسر فى بعض الأحيان ويعارضنى.

كنت أقول لنفسى إنه انزرع فى سوق المواشى وتعلم دون شك محموعة من الخبرات بينما كنت أنا شبه غارق فى الكتب الدراسية وأفضل المناهج لتدريس التاريخ للتلاميذ، ولعله بعد تعيينى فى مدرسة البندر زادت بيننا الخلافات، وكثيرًا ما كنا لا نتفق، كنت أراه ببساطة إنسانًا سوقيًا يتقافز مثل جرادة ليحصل على رزقه قبل كل الكائنات فى زمن مجدب، ولا بد أنه للجراد زمن مغاير يسطو فيه على النباتات ويخربها معتمدًا على كثرته وتكاسل البشر أو عجزهم عن اكتشاف المبيد المناسب ليحموا ثرواتهم وممتلكاتهم من اكتمال الالتهام ، وكان يرانى أفنديًا فى الهامش البارع فى التشدق بالكلمات الطنانة والأفكار الوهمية لأننى ببساطة معزول عن الناس والدنيا وما يجرى فيها، كان يتهمنى بالدروشة وبأننى سوف أعيش وأموت وأنا فى حالة توهان، وكنت

اتهمه بالجهل واستسهال الدجل وبأنه صار بالفعل نصف نصاب، يتأملنى فاحصًا دون انفعال وربما يبتسم، لعله كان يكتشف أنه ارتقى وارتفع إلى الحد الذى يجعله ندًا لى ولغيرى بعد أن عاش فى منطقة لاتسمح له حتى بالخلاف، ولعله كان يشعر من داخله أنه سوف يصبح الأقوى على المدى الطويل طالما يدور الزمان فى نفس الاتجاه أو نفس المدار، وكان يفلح فى بعض الأحيان ويجعلنى أشعر بالحرج أو الارتباك، يحاصرنى لأصبح فى منطقة الدفاع، ولابد أنه كان يقرأ على ملامحى بوادر الهزيمة فيزوِّد هجومه، يحدثنى عن الشراودة وكيف طاب لهم لعب الجوَّانى بقوة السلاح والمداهنة ثم وسَّعوا اهتماماتهم ولعبوا مع أكابر الناحية وأعوان الحكام، يسألنى إن كنت قد لاحظت أن البساط انسحب من تحت اقدام ناس وانفرش تحت أقدام ناس غير الناس فأقول له إن الدنيا على هذا الحال لاتدوم لمخلوق وإن دراستى للتاريخ هى التى علَّمتنى مثل هذا الكلام الذى لابد أنه سمعه منى عشرات المرات ثم صار يردِّده، يتظاهر بالاندهاش فيدهشنى، أتداخل داخل نفسى قبل أن أنظر فى عينيه وكأنما أبحث فيهما عن المرآة التى تعكس صورتى فيهما دون تزويق أو تشويه، أرانى فى حدقتى عينيه إثنين اعجز عن جمعهما فى واحد ، يسحب نفسًا عميقًا من دخان الجوزة فيشعل نار حجر المعسل ويحرق «التعميرة»، أشعر أنه يكيدنى بقدرته على إشعال النار وقتما يشاء فأنكاد، يعتدل فى جلسته قبل أن يتفلسف:

ـ طيب، ما أنت عارف جعفر الشارد كان إيه قبل العز اللّى هو فيه، مش كان كاتب محامى بنص فرنك؟ مش ضحك ع الخلق

واتنطط على قفاها؟ وأهو ف كل انتخابات بيكتب كلام زى اللى أنت بتقوله على اليفط القماش... بيعمل إيه؟ صدق إيه وحق إيه وقوة إيه؟ ده كلام تقولوه للعيال فى المدارس.

أتناول الجوزة من يده وقد رصَّها بتعميرة جديدة فأسحب أول نفس ويداعبنى:

ـ شد... شد جامد... طيب مش أنا نص نصاب؟ ياريتنى أبقى نصاب بصحيح، عارف نهار ما أفتح لنفسى سكة مع الخلق دول مش ح أرجع أبدًا طيب وأرجع ليه؟... ورايا إيه يتخاف عليه؟ أنا عايز ضهر أتسند عليه، اتهيأ لى ما فيش ضهر أتسند عليه، اتهيأ لى ما فيش ضهر أقوى من ضهرهم.

أسرح بخيالى وأتمثله وقد طلع فوق كل الأكتاف وارتفع، أقول لنفسى إن أمثاله عندما يخرجون من القماقم لايرجعون، يختطفون لأنفسهم أدوارًا لاتخصُّهم ويلبسون ملابس أوسع من مقاساتهم ثم يتلاعبون أمام الناس مثل أى سمسار مواشى بارع فى اللعب على الحبلين ليحصل على عمولته من البائع والمشترى، يعيدنى بهزة أو يمد طرف البوصة ناحيتى طالبًا منى أن أشدَّ فأفيق وأشدُّ وأراه أمامى كما عرفته وأشعر أننى فى هذه الفترة كنت فى أمس الحاجة إليه صاحبًا ونيسًا.

ولابد أنه الموت وقد اختطفهما فى نهار واحد هو الذى رمانى أكثر فى حضن يوسف أن أفر تيتمت وأورثنى الخوف والحذر مع

الاستسلام المستكين أن أفر من وحدتى وقد تطوع بملازمتى وهو البارع فى جلب الحشيش وتقطيعه ورصه على سطح المعسل قبل أن تغطيه بحذر بحيث يجعل النار تلمسه ولا تكبس عليه فتكتمه أو تحرقه، يناولنى التعميرة جاهزة للشد، فأشد وأصير بين الصحو والتوهان حتى إذا غلبنى النوم أرقدنى فوق الفراش وغطّانى وأعاد كل شىء إلى مكانه الصحيح حتى إذا صحوت من مرقدى سألت نفسى عمن نقل الجوزة والمعسل، والحشيش، أو غطى نار القوالح بالرماد لتنطفىء وأجاوب نفسى بأنه يوسف الذى لا يغيب وعيه أو ينسطل مهما طال الوقت أو ارتفع مستوى الصنف، استشعر من داخلى إحساسًا بالأمان وأرضى به رغم كل الاختلافات صاحبًا ونيسًا.

فى هذه الأيام كان يتحدث كثيراً عن رأفت الشارد وأصيلة بنت رأفت الشارد::

ـ أنت خايف تقول رأيك ليه؟ طيب إفرض إن أنت مطرحى، تتجوزها؟ الخلق كلها بتقول أنها مش حلوه وإن قطر الجواز فاتها من زمان، أهى ح تبقى زى جذع نخلة مخوخة إنما إيه.. وراها خبر مالوش آخر، وأنا عايز نسب يسندنى ، يساعدنى، يعمل لى مركز فى الكفر والناحيه.... قلت إيه؟

كنت أحدثه عن أفكارى وكيف أن الزواج يحتاج إلى توافق أو تقارب فى الأفكار والمشاعر والأهداف وأن مسألة المال والجمال تختلف من شخص لآخر، إنما أن ينبنى الزواج على أساس سليم

وليس على حسابات محسوبة أو غش مستور لتحقيق أغراض، ولابد أن كلامى لم يكن يعجبه أو أنه لم يكن يتناسب مع حالته، لكنه فى كل مرة يفاتحنى فى أمر أصيلة بنت رأفت الشارد كنت أرد بنفس الردود رغم ما كان يتبدى لى من أنه غضبان أو واقع تحت تأثيرة فكر عكس أفكارى، كنت أقول لنفسى إنه يتأرجح وكنت أحسبه سوف يتخلص من تلك الفكرة التى تسلطت عليه لكى يعاشر جذع نخلة مخوخة فاتها وقت الزواج حسب ما كان يؤكد ساخرا. بمرارة من حكم على نفسه بالحبس الأنفرادى وفى يده مفتاح الزنزانة وكل مفاتيح الأبواب المسكوكة، كنت أحسب أن قلبه الخواف سوف يعيد إليه عقله ويمنعه حتما لكنه فاجأنى وفاجأ الكفر كله بالزواج من أصيلة قبلها بأيام، انقطعت أخباره وكف عن المجىء حتى عندما سألت عليه وأرسلت له أكثر من مراسل لا جاء ولا ظهر. أدهشنى أكثر أنه تجاهلنى فلم يخبرنى أو يبعث إلى من يخبرنى بموعد عقد قرانه ودخوله الذى تم فى نفس الليلة وفى سكات لا يليق باسم رأفت الشارد أو برغبة الناس فى كفرنا فى الفرجة والرقص وزحمة الأفراح وقلت لنفسى مثلما قال ناس كفرنا: هو حر فى نفسه، سمسار مواشى دخل سوق البهائم وحسب حساباته ليخرج منه كسبانا لا خسرنا له شىء. ولا كان من الممكن أن نكسب من وراءه أى شىء ولابد أن كل شىء كان محسوبًا فى عقل يوسف وناس يوسف الذين ارتبط اسمهم باسم الشراودة منذ ذلك التاريخ.

وتباعدت عن يوسف لأنه تباعد عنى زمنا، صرت أسمع أخباره من الغرباء مشفوعة باستفسارات أو استنكارات لتلك المقاطعة التى لم يكن يتوقعها أحد، لا كانت عندى ردود عن استفساراتهم ولا تعليقات على الاستنكارات، لكنه فاجأنى بزيارة اتهمنى فيها بأننى قصرت فى حقه ولم احضر زفافه مثلما فعل الغرباء قائلاً:

- وهو أنت كنت عاوز دعوة ؟ وإفرض ما ملكتش أجيلك ما تحضرش فرحى؟ وفاتح ودانك الكلام الناس. ما فكرتش تدافع عنى، هو انا لاسمح الله عملت منكر؟ بقى أنا أقول إنك الأخ الشقيق وأكتر وأنت تقاطعنى من غير سبب؟

لابد أننى شعرت بالخجل وتأكد هو من ذلك فربت على كتفى وهون على الأمر وكأنه تنازل وسامحنى:

- اللى فات فات، وإحنا ولاد النهارده...

ومنذ ذلك النهار عادت المياه إلى مجاريها، يسهر معى ويحادثنى عن أصيلة وأملاك أصيلة التى كتبها رأفت الشارد باسمها خارج نصيبها فى الميراث عندما يحين أجل رأفت، يسخر من نحولها الزائد وصدرها الممسوح وتقاطيعها التى تشبه النسناس، أهز رأسى ولا أعلق فيكمل:

- بس يا سبحان الله عليها شعر .. كده .. طول كده ... ناعم وأصفر زى سلوك الحرير، ساعات تفرده يغطيها وهى راقده لحد بز رجلها، أصلها فى الصيف بترقد عريانة ملط.

أكتفى بالتدخين وأشعر أنه من العيب أن أعلق على كلامه لأنه يخص امرأة تخصه هو وحده، وأنه لو كان هو قد أخطأ بالكلام عنها على هذا النحو الفاضح فيلزم أن ألتزم بالأدب والأصول. أسمع ولا أعلق، لعلنى فى تلك الفترة على وجه التحديد فكرت فى فردوس بنت عمى التى شاغلت قلبى وشغلتنى طوال تلك السنوات الفائتة، ولعله من كثرة كلامه عن أصيلة حرك فى داخلى رغبة كامنة تحت رماد الأحزان على فراق الوالدين واسمها فردوس.

كان يوسف يحيرنى فى أمره، مرات يأتينى فرحانا ومزدهراً وكأنه عثر على كنز بين جدران داره، يحدثنى عن أصيلة وأصلها العريق الطيب وناسها الواصلين للأكابر والأعيان والذين عملوا لاسمهم فى الناحية هيبة ورهبة، يهمس فى أذنى بأن أهله من الناس الشلبى أصبحت لهم فى الكفر قيمة بفضله وان كانوا لايعترفون ولا يستحقون الخير الذى جلبه لهم، يبدو لى كارهاً لناسه أكثر من كراهيته لكافة أهالى الكفر فى بعض الأحيان، يوسوس لى شيطان بأن أمثاله ممن ليس لهم خير فى أهاليهم يصعب أن يكون لهم خير فى الغرباء وبأنه يلزم التعامل معه بحذر، لكن وسواساً عبيطاً آخر يعترض على الوسواس الخبيث قائلاً إن أمثال يوسف يعيشون ويرحلون وهم فى خانة الأتباع فى أحسن الأحوال أو فى خانة أتباع الأتباع فى معظم الأحوال وعليه فلا خوف منهم ولا حذر إلا فى أضيق الحدود، ولابد أن القلق منه كان يعترينى إذا كانت التعميرة التى يجلبها لى فسدانة أو مخلوطة، كان هو يؤكد فى كل مرة إنها من صنف فاخر لا يتعاطاه غير الأكابر

والأمـراء، أحـاول تصـديقـه حـتـى تكذبه الأنفـاس وقـبل أن ألومـه يلومنى لأننى الوحيد الذى يتعاطى الصنف ولا يجرؤ على حمله أو شراؤه بنفسه، يضيف أن التجار من أمثال زينهم الشارد أو فتحى الشـارد أو شـهـاب لا يراعـون قـرابة ولا نسب وأنهم فى مثل هذه الحـالات يسـبـبـون له الحـرج لأنه لولا النوايا الحسنة والثقة بينى وبينه لظننت أنه يأخذ منهم سمسرة:

- أنا صحيح باسمسر فى سوق البهايم، إنما اتهيأ لى عمرى ما فكرت أسمسر فى الكلام الفارغ ده... وح أسمسر منك إنت؟ دا إحنا بنحـرقـة مع بعض، النوبة الجاية لى كـلام تانى مع ابن الكلب الغشاش.

كنت أقول لنفسى إنه من الصعب أن أتخيل إنساناً يغش نفسه ويتسبب فى عكننة مزاج نفسه مهما كان الثمن، ذلك أنه فى مثل هذه الليـلات كان يوسف يبدو ساخطاً وغضبانًا على الشراودة والكفر والدنيا كلها، يقول لى مثلاً أننى كنت على حق عندما حذرته من الدخول مع الشراودة فى علاقة نسب، أكون رغم بعض الغياب مازلت واعيًا لنفسى، أراجع ذاكرتى فلا أتذكر أننى قلت له مرة مثل هذا الكلام ، يتهمهم بالقدرة على النصب على كل الناس حتى على زوج ابنتهم التى كان يليق بها أن يتزوجها عزرائيل، تتناقص نار القوالح الجاهزة للاستخدام فتتزايد لهجة أسى الزوج الندمان ويوشك أن يتباكى على حظه العاثر الذى أوقعه فى هؤلاء الناس، يزداد من حولى سواد الليل وتعوى ذئاب مطلوقة من ناحية المدافن

فأتذكر الأموات، يحدثنى ومن يشاركنا السهر عن الهم الثقيل الذى يحمله فى قلبه ويداريه عن أهله والناس ويتمنى لو استطاع أن يداريه عن نفسه، أندهش من قدرته على البوح بكل هذه الهموم دون حذر بينما يدعى الرغبة فى الكتمان، أطيب خاطره لو كنا وحدنا وأترك تلك المهمة للآخرين إن كان لنا فى السهر شركاء، وأحيانًا يلوم نفسه على الورطة التى حط فيها نفسه بنفسه ويستعيد الزمن القديم ليرمى المسئولية على حظة التعس الذى أعطاه أبا مثل أبيه وأما مثل أمه وعائلة مثل عائلته، وقد يتمادى فيلعن كفرنا الفسدان وأصحابه الذين بلا فائدة ترجى منهم ويتذكر:

- بنت المراكيب اللى وشها يقطع الخميره من البيت بتعرف طول لسانها وتقل أدبها، فكرك لو طلقتها ح يحصل إيه يعنى؟ ح يقتلونى؟ فكرك لو طلقتها يقتلونى؟

أعجز عن رد السؤال الصعب وأسأل نفسى إن كان بالفعل يقصد ما يقول أو أنه يستكشفنى لغاية فى نفسه، أتارجح بين إرادتين، إرادة البكاء على حالة وحالى وإرادة الضحك، يغلبنى البكاء فى معظم الأحوال وينفلت الضحك فى بعض الحالات ولا أتمكن من السكوت قبل أن تظهر علامة تبشر بطلوع صبح جديد.

* * *

وكانت جدتى لأبى تسكن فى أول درب عوف من ناحية الوسعاية، أذهب إليها مطمئنا أن يوسف لن يكون هناك وأن خالتى

العبيطة «كاف» لن تكون هناك أيضاً، كانت تأخذنى إلى قاعة مظلمة فى كل الأوقات ومضاءة بمصباح له شريط يمكن رفعه وتزويد الضوء بمفتاح مستدير يدور ويتحكم فى الشريط، تفتح علبة صفيح مثل تلك العلب الصفيح التى توضع فيها قطع الكراملة الملفوفة فى ورق شفاف، وكنت أسمع الصوت والعلبة تهتز فى يدها، تفتحها فأرى أنصاف الفرنكات الفضية سداسية الشكل والمدورة، تناولنى واحداً فآخذه فرحاناً وأرمح لأشترى من الدكان حلوى أو مصاصة أو عسلية ملفوفة بورق أبيض وآخذ الباقى وأرجع، وكانت تحرص على إطعامى من لحم الأرانب، تبدأ بالكبدة والخصيتين إن كان الأرنب المذبوح ذكراً ثم تناولنى الورك أو السلسلة فآكلها، وتناولنى قطعة أخرى حتى أشبع وأرفض المزيد، تقشر لى قصباً حلو الطعم فأمضغه وأمتص العصير ثم أرمى مصاصة القصب البيضاء الخالية من العصير، ألعب بالقشر الملون خطوط بالطول أبيض وأحمر، تعرفنى وهى عارفة أننى أعرف أنه يشبه خد الجميل، وأحياناً تقشر لى برتقالة أو تفرط فى الطبق الصاج رمانة أو تناولنى ثمرة جوافة، أشعر عندها بالامتلاء وأتعجب من حلاوة لحم الأرانب عندها، احتفظ بالسر لنفسى ولا أبوح، صحيح أننى كنت أشهد الأرانب الكثيرة وقد طلعت من جحورها تأكل البرسيم خطفاً ثم تهرب إلى الجحور عند أقل حركة أو إشارة من يدى، وصحيح أنها كانت فى بعض الأوقات تأتى إلى دارنا وقد حملت عدداً من الأرانب فى سبت أو قفص، تعطيها لأمى وهى تقول بينما تنظر ناحيتى:

ـ لجل الولد .. أصله بيحب الأرانب.

كانت أمى تشكرها لأنها أتعبت نفسها بينما دارنا مملوءة بالخير، تقول لأبى عندما يرجع عن الهدية دون أن يبدو عليها الاقتناع فيهز رأسه ويكمل ما كان قد بدأه من كلام، وعندما كانت أمى تذبح الأرانب كنت أشعر أن طعمها يختلف عن تلك التى آكلها عند جدتى، حتى كبدة الأرنب لم تكن فى أى مرة فى مثل حلاوة كبدة الأرنب التى آكلها عند جدتى، لكننى عندما كنت آكل وتسألنى أمى عن حلاوة طعمها أقول أنها أحلى من كل الأرانب التى أكلتها فى كل عمرى، كنت أشعر أنها لا تصدقنى لكنها لم تكن تكذبنى .

وفى وقفة العيد كنت أذهب لآخذ مصروفى منها، كانت لديها علبة صفيح أخرى فيها ريالات وأنصاف ريالات فضة على أحد وجهيها صورة الملك فؤاد، وكانت جدتى لا تحبه بينما كنت أحب صورته بالطربوش المائل للوراء، وعندما رأيت صورة الملك فاروق على وجه الريال لأول مرة أحببته أكثر وكانت جدتى لا تحبه أيضاً، كانت تكتفى بأن تقول لنفسها:

ـ قطيعه تقطع سلسالهم كله، مانابناش منهم غير الخراب المستعجل وقلة القيمه.

كنت أندهش لأن كلامها عن الملك وابنه الملك يختلف عن الكلام المكتوب فى كتب المدرسة، ويختلف أيضاً عن الكلام الذى يقوله عنهم ببعض الاحترام أبى، لكننى على أى حال كنت أحصل منها فى وقفة كل عيد ريالاً فضياً على أحد وجهيه صورة ملك، أفرح به

وأجرى بحماس لأريه لأمى التى لم تكن تتحمس أبداً إلى الحد الذى يجعلنى أخجل من نفسى وأتشكك فى قيمة الكنز الذى حصلت عليه، ألوم نفسى لأننى انتظرت منها أن تشاركنى الفرحة وأنا العارف أنها لم تفعل أبداً، ولابد أننى اكتشفت أن العداوة غير المعلنة بين أمى وجدتى لأبى لن تمحوها كل ريالات الدنيا المرسوم على وجوهها صور الملوك لابسين الطرابيش، ولا أدرى فى أى وقت على وجه الدقة صرت أحصل على الريالات وأنصاف الريالات من جدتى ولا أقول لأمى، أكتم فرحتى فى قلبى وأستشعر القلق إن كان الكتمان حراماً فى مثل هذه الحالة أم أنه لا حرام فيه ولا ذنب؟

أذكر أنها ماتت بعد ليلة الختان بعدة شهور، وأننى أكلت من لحم الأرانب الذى كانت تجيد طبخه قبل موتها بأيام وقد أعطتنى من غير مناسبة آخر ريال فضى حصلت عليه منها، ومن بعدها حرمت من الريالات وأنصاف الريالات وأنصاف الفرنكات التى كنت أثق فى الحصول عليها وأنا ذاهب إلى دارها الكائنة فى أول درب عوف من ناحية الوسعاية.

* * *

لكن جدتى لأمى كانت حكايتها حكاية، كانت لها بشرة ناعمة وشديدة البياض، يظهر بياضها أكثر إذا أحاطتها بالشال القطيفة السوداء، عيناها ضيقتان مكحولتان دائمًا بكحل أزرق أغمق من لون العينين الذى يختلط فيهما الإخضرار بالزرقة، وكانت دارها أوسع من دارنا ومبنية بالطوب الأحمر وفيها مندرة واسعة بالبلاط،

ونادرًا نادرًا ما كنت أراها وحيدة، كانت دارها مزحومة فى أغلب الأوقات، وإذا خلت فهناك خالتى العبيطة «كاف» أو فرحانة أم يوسف أو يوسف نفسه، كنت أراها وهى تستقبل الستات والبنات حاملات المشنَّات أو السلال وفيها البيض أو الجبن أو قطع الزبد بالإضافة إلى كل ما يتاح من الطيور الداجنة مربوطة السيقان ومحطوطة فى القاع، تفاصل فى السعر قبل أن تدفع وتحمل أى واحدة السَّلة أو المشنَّة إلى القاعة الجوَّانية، تفرغها وتفرغ المواعين وتعيدها لصاحبتها، وفى القاعة كنت أجد دائمًا أكوامًا من الجبن القريش وطواجن مملوءة بالبيض ومواعين فيها كتل الزبد وأخرى فيها المش والجبن القديم، أشياء تملأ دكان، وكان الوصول إلى دارها أسهل من خلال الشرم الموصل إلى «الواطية» التى تقع فى خلفية الدار، وبينما كانت أمى لاترحب بذهابى إلى جدتى لأبى كانت تدفعنى دفعًا للذهاب إلى دار أمها وتوصينى بمداومة البقاء هناك، وتدعونى لأن آكل وأشرب بحسب ما أشاء، لأن مال جدتى هو فى الأصل مالنا:

ـ أنت أولى من أبن العورة اللى لابد عندها ليل ونهار، أنا عارفة أنت طالع خايب كده ليه؟ هو أنا كل يوم أقرِّيك ولابتقراش؟

ولأننى كنت أسمع مثل هذا الكلام وأكثر كل يوم تقريبًا مرة أو مرتين فقد كنت أظنها لاتعنيه بشكل مؤكد، ذلك أنها كانت تقول عكسه أو ما يشبه معكوسه أيضًا وبنفس الحماس من وقت إلى آخر حسب ما تأتى به الأحداث العارضة:

ـ ما تبقاش تتنيِّل على حبة عينك وتروح هناك، أنت يعنى بتروح تهبِّب إيه؟ وفِّر للهبله وابن العورة والعيال الشلبى اللِّى سنانهم زى المناشير، مالنا ومتحرَّم علينا يارب مالنا ومتحرَّم علينا يا رب؟

وكان أبى يهدئها إذا سمعها فلا تهدأ أبدًا ، ربما تركبها عفاريت الظهر الأحمر إذا تمادى فى الكلام ، كنت أتخيل أن أبى يحمل معه مفاتيحها بالفعل، يفرحها أو يغضبها أو يجعلها تتحرك فى المكان وكأنها واقفة على رخامة فرن حامى، أو هادئة وكأنها تمشى على قشر البيض، هى نفسها كانت تقول هذا الكلام نفسه عنه وعنها فى ساعات الصفاء:

ـ طول عمرك ضاحك عليَّا ومحيَّرنى فى أمرك، زى ماكون صندوق مقفول وفى جيبك مفتاحه، بس كان مناى ومنى عينى أشوفك واقف جنبى، تجيب لى حقى الضايع.

ـ انتى محتاجة حاجة؟ ناقصك حاجة؟ حق إيه جاكى كسر حقك؟

تضحك وتبدو لنا طفلة يلاعبها أب أو عم أو خال أو أخ كبير ناصح ومحبوب، تهدأ وربما تنسى الموضوع ساعة أو ساعتين لكنها تعود وتفتحة مرة أخرى بنفس الحماس، كأنما فكرت ولم تقتنع بما سمعت، أو تذكرت جديدًا كانت قد نسيته، وفى مثل هذه الحالات كان أبى يخرج من الدار ويتركنا فى مواجهتها، تسبُّ الزمان الخسيس وتلعن الدنيا والنصيب الأغبر الذى أوقعها فى أفندى

بدلة لايحافظ على حقوقه أو يطالب بميراث زوجته تلعن الأفندية كلهم وتخص باللعنة كتبه الصحة والخطاطين فنعرف أنها تقصده ولانجرؤ على الدفاع عنه رغم أننا نحبه.

كنت أذهب إلى دار جدتى لأمى إذن شبه مغصوب أو مغلوبًا على أمرى رغم الترحيبالذى ألقاه وسرعة تلبية مطالبى إذا طلبت منها أى شىء، وكانت تمنحنى من القروش أكثر من قدرتى على الصرّف، بل أن أول جنيه حصلت عليه كان منها، دسّتة فى يدى ورقة خضراء مطوية فى صباح أحد الأعياد، ساعتها احترت فى أمرى ولم أعرف إن كان من المناسب أن أذهب به إلى أمى أو أن أتباعد عنها حتى لاتغضب علىّ كعادتها إذا أظهرت لها فرحتى بالحصول على أى شىء من جدتى لأنها فى كل الحالات كانت تغضب أكثر مما تفرح وربما تقول:

- وإيه يعنى، ما هى بتدّى اللّى ميستاهلوش، روح أسأل يوسف خد منها ايه؟ ح تلاقيه واخد زيك ويمكن أكتر، الوليّه زى اللى تكون ولدتتى ونسيتنى.

وبمثل هذا الكلام كانت تحدّث نفسها وتستمر حتى لو خرجت من الدار، أشعر أننى كنت سببًا فى إغضابها وأقرر أنه فى المرات القادمة لا أبوح لها بما يغضبها، لكننى كنت لا أستطيع الكتمان.

وكان يوسف دائمًا هناك مثلما كانت أمه فرحانة هناك بين أمى وجدتى لأمى، تشعر أنهما أخذاها منها مع بقية أولاد شلبى، وربما بسبب ذلك كنت أشعر أن يوسف نفسه أخذها منى وأخذ منها مالا

يستحقه مثلما أستحقه لأننى ابن بنتها الأكبر والأعقل التى كانت بحسب ما تقول لكل الناس أول فرحتها ووش الخير الذى عاشت فيه منذ أن عرفت سكة التجارة، فتزوم أمى غير مصدقة تجارتها بدأت برأسمال الناس الشلبى، هارون وفطوم والناعسة وكلهم لايهون عليهم القرش وإذا هان فبالربا وأخذ كل الضمانات، وكان كلام أمى عن أبيها يشعرنى بالحزن لأنه مات قبل أن تكبر وتحس أو تفرح بأبوته، عاشت يتيمة وزوَّد يتمها فتحت عينيها لترى زوج أمها مبيِّض النحاس الذى هو أب «لكاف» ولا بد أن تبييض النحاس فى زمنه لم يكن بكاف للصرف على الدار وأنه اعتمد على ما كان فى متناول «أمها» التى تاجرت بمال زوجها السابق حسب كل التأكيدات التى وصلتها من ناس الكفر، تمتدح أبيها وتسخر من زوج أمها، وربما كانت فى الحكايات مبالغات لكنها بالقطع لم تكن تخلو من وجاهة تجعلها قابلة للتصديق فى بعض الأوقات التى كانت تتفتح فيها سيرة الرجلين، وتبكى أمى عندما تكتشف فى كل مرة وكأنها تكتشف لأول مرة أنها انولدت يتيمة الأب مثلما انولدت فرحانة أم يوسف، لكن فرحانة وجدت من يدافع عنها ويرعاها بينما خسرت هى فى نفس الوقت أمها:

- قلبك محروق عليها قوى وعلى عيالها، طيب ما أنا شفتش أبويا زيها، أبويا اللى إنتى لسه عايشه فى خيره وحارمانى منه، يا صنف، يا صنف، ح أقول إيه؟ أتفها تدخل فى عُبى؟

- وترد عليها جدتى بأنه لم يكن من الممكن أن تفعل لها أكثر مما فعلت لأنها سترتها وكستها وجهَّزتها أحسن جهاز فى

الكفر كله قبل أن تزوجها لابن الحلال الذى هو أبى المستخدم والخطَّاط الذى يعيشها فى نعمة لا تحس بها لأنها جاحدة وطماعة وقلبها مملوء بديدان الغلّ والكراهية لأهالى أمها الذين هم أحسن من أهل أمى زرَّاعين التين الشوكى على شطوط الترع فى غير ملكهم، بيَّاعين الترمس المبلول والفول النابت.

تعايرها باسمهم «الخروبى» وتكيد أمى بالمثل:

ـ «نص الفطرة خروب»

فتدافع أمى عن «الخروب» والناس الخروبى وتشتم الناس الشلبى وقلة أصل الناس الشلبى ثم تذكرها بمبيض النحاس:

ـ يامه اتحسرى على أبو بنتك الهبلة، دا عاش حافى ومات حافى، واندفن فى ترينا، هو أنتو كان لكم ترب تتدفنوا فيها؟

ـ بس بقالنا أحسن ترب فى الكفر كله.

ـ من الخطف والنهب وقلة الذمة، أبويا فاتلك إيه يا مه؟

ـ فات إيه؟ هو كان حيلته حاجة؟

ـ والأرض؟

ـ بعتها على تربيتك وجهازك يا بنت الخنزير؟

ـ وتحويشة العمر؟

ـ ماكانش يحتكم على قرش أبيض

ـ والدار اللى انتى ساكناها لحد النهارده؟

ـ روحى اقعدى فيها

- ما تدينى حقى يامه

- حق إيه جاتك لهوع اللى لك، روحى اشتكينى يا بنت.

- يا واكله مال اليتيمة... ح تكوى ف نار جهنم.

- طول عمرك طمَّاعة وعينك فارغه، ما بتشبعيش مهما خدتى، وواكلانى قبانه ومساحه ولسانك متلفعه بيه.

- من نارى.. من نارى.. آه يا نارى لو كنت ولد، كنت وريتك النجوم ف عز الظهر

- لو كنت عارفة أنك ح تطلعى جاحدة كده كنت قعدت عليكى بطِّطتك وارتحت من قلة أدبك.

الغريب الغريب أن أمثال هذه المعارك كانت تدور بينهما وهم قعود وسط نسوان الدرب وعياله فى دارنا أو دار جدتى أو فى «الحاكورة» البحرية أيام الصيف، تبدأ بالضحك والنوادر ثم تتحول إلى عتاب خفيف وسخريات تؤدى إلى مباراة تطول وتطول وترتفع الأصوات ويصير الكلام ممطوطا ومكرورًا تتخطى فيه أمى حدودها ويبدو للسامع والرائى أنها لاتتكلم مع أمها فتفعل جدتى نفس الشىء ويبدو أنها لاتعارك ابنتها التى لابد أنها ولدتها يومًا، يصل الحوار بينهما إلى ردح حقيقى موزون، وكانت كل واحدة منهما جاهزة ومستعدة للتقليل من قيمة الأخرى، وربما لاينتهى الأمر إلاَّ بسباب واحد من أهل أى واحدة منهما يطالبها بأن تخرس وتلم لسانها الذى ينهش فى لحمها فى نفس الوقت الذى ينهش فى لحم

الأخرى، وفى مثل هذه الحالة ينفض السامر بالغضب، لكنه فى بعض الحالات كان ينتهى من غير تدخل من أحد، ربما تنهيه نكتة أو تعليق يدعو إلى الضحك ثم يلين طرف ويلوم أو يعاتب أو يداعب فتعلق النسوان بكلام يؤكد أن الصلح خير وتسكت أمى وجدتى وكأن كل واحد تفكر فى أخطائها التى ارتكبتها فى حق الأخرى، أو تلوم نفسها وتبدو مستعدة للصلح دون أن تتنازل عن حقها فى معاودة العتاب، وربما ينتهى العراك ببكاء أى واحدة منهما، تبكى فيسود صمت متوتر، وربما تقوم الباكية غضبانة إذا كانت فى غير دارها، أو تقوم الأخرى ساخطة لاعنه نفسها لأنها طاوعت روحها وجاءت لمن لايستحق المجىء،وقد تقسم بألف يمين ألاّ يخاطب لسانها لسان الأخرى، ورغم محاولات الموجودات للإمساك بالغضبانة وإعادتها للقعود فإنها فى الغالب لم تكن تستجيب، لكن أغرب النهايات كانت تنتهى بأغنية يغنيها الصغار بتحريض أمى التى تقول للعيال:

أبو بلغة تحت باطه   أبو بلغة تحت باطه
طمعان ف فلوس مراته   طمعان ف فلوس مراته
أنا شفته في منامي   بارد ولسانه حامي
وعاشت الأسامي   بايع خلخال مراته   بايع خلخال مراته
ونبيض النحاس   ونخلع المداس
وأن ضاق علي المقاس   يرهن صيغة مراته   يرهن صيغة مراته
وأبو بلغة تحت باطه   أبو بلغة تحت باطه   أبو بلغة تحت باطه
هيه.. هيه.. هيه..

ـ قولوا يا عيال.. أبو بلغه تحت باطه.

ويهلّل العيال قبل أن يشكلوا دائرة تدور حول النسوان وهم يغنون غنوة المدندش المحفوظة فتقوم فرحانة إن كانت فى المكان ولاتسمع:

كنت أشاركهم فى أول الأمر دون أن أعرف حكاية الغنوة التى كانوا يتضاحكون عند سماعها وتغضب جدتى، لكن كثرة التكرار عرفتنى سر مبيض النحاس الذى تزوج جدتى لسنوات خلّف فيها خالتى «كاف» وكيف أنه كان من الوافدين على الكفر من أرض البرارى حيث أصول الناس الشلبى، جاء حافيًا وباحثًا عن شغلانة تناسبه وأشار عليه أكابر الناس الشلبى بأن يتزوج من جدتى ليستر نفسه ويسترها وهى التى تملك الدار الواسعة تعيش فيها مع طفلتها الوحيدة وما زالت فى عز صباها وجمالها، ولايدرى أحد سر موافقتها على الزواج منه بشرط وحيد هو أن يشترى بلغة ويلبسها يوم الفرح.. وكيف أنه منذ أن احترف تبييض النحاس لم يستطع أن يلبس المداسات فى أى الأوقات فكان يحملها تحت إبطه فى كل الأوقات إلا إذا أجبرته مناسبة على لبسها، كانت جدتى تدافع عنه قائلة إن عبدالمولى الإسكافى أخذ مقاسه ووعده ببلغة صفراء مناسبة لكنه لأسباب ومقاصد لم تكتشفها فصّلها ضيقة ولابد أن المولى عز وجل سوف يضيق عليه قبره يوم القيامة بذنب كل من غشّهم فى الجلد أو الأجرة أو مقاس المداس مثلما فعل مع الرجل الطيب الذى أحسن عشرتها ولم يطمع فى قرش واحد من مالها على عكس ما أشاعه أهل كفرنا القوّال الفعّال الظالم الذى

يخاف ولايخشى، يضحكون من شدة حماسها فى الدفاع فى كل مرة وبنفس الكلام الذى حفظوه تقريبًا إلى الحد الذى يجعلهم فى بعض الأحيان يكملون العبارة إذا تباطأت هى أو سرحت فى البعيد، يبدو الانبساط على وجه أمى وتؤكد نصرها بسؤالها الودود:

ـ اللى راح راح بقى يامَّه.. بس هو كان بخيل بصدق يامَّه؟

ـ أبدا.. ما كانش بخيل .. بس كان ناصح لقرشه.

ـ أمَّال الخلق اللِّى عاشروه كلهم قالوا إنه كان بيوفرها ويخاف عليها خوف العمى ليه؟

ـ هى ما فيش غير مرَّة واحدة اللِّى قلعه اقصياد الناس وهو بيعدى جنب معجنه يوم جنازة هارون.

ـ وهو فيه حد بيقلع مداسه ف الميتم يامَّه؟

ـ أهو اللِّى حصل بقى. هو تحقيق؟ جتك لهو على أبوكى.

ـ تانى يامَّه.. ح تغلطى ف أبويا تانى يامَّه؟

تشعر جدتى أنها سوف تعيد ما كانت قد انتهت منه فتغِّير الموضوع وتتلفَّت حواليها، ربما تسأل عن مداسها أو تسأل عن فرحانة أم يوسف فإذا اكتشفت عدم وجودها لامت أمى بغضب:

ـ غضَّبتيها يابنت الخروبى؟ ناسيه إنه كان خالها أخو أمها لزم.. يا كبدى عليكى يا فرحانة يا بنتى.

تلبس مداسها فى قدميها وتلف الشال حول رأسها ورقبتها وهى تقوم متعجلة الخطوات فتحذرها أمى من الانكفاء على وجهها

أو التعثر فى طوبة أو حجر بينما تسعى إلى دار فرحانة والواطية مردومة بالطوب والدبش والأحجار، لاتلتفت جدتى إليها وإن بدا عليها وعلى الكل قبل القيام المباغت أن القلوب تصافت، وإنه ليس فيها ما يعكر الدم الذى تعكر باكتشاف جدتى رحيل فرحانة بينما كنا نتقافز فرحًا ونحدى بالغناء.

ومرة أخرى تأمرنى أمى على مسمع من كل الحاضرات بألاَّ أذهب إلى دارها أو أزورها أو ألعب مع يوسف أو اكلم «كاف» فأهز رأسى علامة الموافقة، وربما تطالبنى بعد تلك التنبيهات بالذهاب إلى هناك بعد ساعة أو ساعتين أو فى صباح اليوم التالى إذا احتاجت من دار جدتى أى شىء، منخل أو وتد أو مكيال دقيق أو إبرة وخيط.

* * *

كنت فى مدرسة البندر مثال التفانى فى العمل والأخلاق بشهادة المنصفين من غير ذوى الأغراض، لكننى فوجئت بقرار نقلى إلى الصعيد الجوَّانى تبع مديرية أسوان، أشار علىَّ وكيل المدرسة بكتابة تظلم باسم الوزير شخصيًا، لكن ناظر المدرسة استخف بالفكرة وقال إن مثل هذه التظلمات لاينظر فيها أحد وإذا نظر فبنيَّة الرفض المسبق لأن أمثال هذا النقل البعيد لايحدث إلاّ بسبب سوء سلوك شنيع أو خطأ سياسى ثابت على الشخص المنقول، وانقسمت المدرسة بإدارتها ومدرسينها نصفين، نصف يرانى إنسانًا طيبًا فى حالى لم أتسبب طوال عمرى فى أى إيذاء لأى إنسان، والنصف

الآخر يرتاب فى أمرى ويتباعد بحذر مخافة أن أكون قد اصابنى جرب مخفى تحت الجلد قابل للإنتشار ونقل عدواه للأبرياء والأطهار بمجرد الاقتراب، وقال الناظر إننى بالفعل شخص فسدان ومسنود على ميراث لا أستحقه وشهادة عالية لا أحترام قيمتها بدليل أنه سمع أننى كنت أجمع فى دارى مجموعة مقاطيع جهلة يشاركوننى تدخين الحشيش، ولما قال له الوكيل إن هذه كانت فترة وانتهت، رد عليه بأن كل شىء مكتوب ومسجل فى ملفات الحكومة الجديدة وعهدها الجديد.

كان ناظر المدرسة من حملة كفاءة التعليم، وكان فى كل مناسبة يعلن كراهيته للفسدانين من حملة الشهادات الجديدة التى يسمونها عالية:

التعليم كان زمان، فى الكتاتيب والأزهر الشريف.

وكان من المشهور عنه البراعة فى كتابة العرائض وتوجيه الاتهامات فيها لمن لايرتاح لهم أو يرى أنهم خطر عليه، لكننى كنت فى تلك الفترة فى حالى، مهموما بوحدتى وخلو دارى بعد رحيل الأهل، وبناء على نصائح الوكيل والأنصار كتبت التظلم مشمولاً بالأمل وأنا من أنصار العهد الجديد الذى خلّص البلاد من الفساد والمفسدين بحسب ما أشار حضرة الوكيل، لكن التظلم حسن الصياغة رفضوه وتأشّر عليه بخط الوزير شخصيًا بضرورة تنفيذ النقل فى الميعاد حتى لايخضع مقدمه لتطبيق القوانين كذا وكذا وكذا.. وذكر عدة أرقام وسنوات لم أفهم منها أى شىء، لكن

التأشيرة أثارت شكوكى وشكوك الناس، نقص أنصارى وزاد المحاذرين خصوصا وأن الرد جاء مع مخصوص من القاهرة رأسًا للمدرسة وهو أمر يثير الدهشة.

وقال ناظر المدرسة فى الاجتماع المخصوص الذى عقده للنظر فى شأنى بعد أن جاء رد الوزارة أن الحكومة بهذا الرد تضعنى فى خانة المعارضين وغير المتعاونين، وأن القوانين المذكورة هى قوانين طوارئ وخرقها يعنى الحبس الاحتياطى أو النفى لآخر بلاد المسلمين، وقال إن هذه الحكومة غير حكومات العهود البائدة لأنها صاحية وليست غفلانة، وإنه لابد أننى أخطأت دون قصد وأنا أشرح للعيال دروس التاريخ أو أننى بعبعت بكلام ضد النظام الجديد فى ساعات السطل مع المقاطيع الذين لايستبعد أن يكون أى واحد منهم صاحب مصلحة فى نقل الكلام للمسئولين، كنت أرى نفسى غرقانًا فى بئر غويط من الاتهامات، يتأكد براءتى من تهمة فأجد تهمة أخرى أو احتمالات تهمة تكون قد توجهت ضدى بناءً على تقرير مكتوب أو شكوى برع كاتبها فى صياغتها وأقنع المسئول، وكان ناظر المدرسة فى هذا الاجتماع هو بطل الحلبة، وقد تمكن من سحقى تمامًا وسحق أنصارى وفاز علينا بالقاضية وكان يبدو للكل متمكنًا وقادرًا ولا يفكر فى أى عفو، لكن الوكيل ظل فى موقعه المتعاطف مع حالتى وأخذنى على جنب فى أحد الفصول الخالية وقال إن المسألة فيها شكاوى مكتوبة ضدى ولم يستبعد أن يكون للناظر يدٌ فى كتابة بعضها وهو المشهود له بالبراعة فى كتابة الشكاوى، نصحنى بالاستقالة فشعرت بالفزع فأوضح لى أن ملكيتى

من الأرض تكفينى وزيادة فزاد فزعى، لعلنى لم أكن أجسر على مثل هذه الخطوة أو حتى أفكر فيها.

وقال ناس من مدارس أخرى إن النقل التأديبى واجب النفاذ، وإن الاستقالة التى نصحنى الوكيل بتقديمها تعنى تحديًا للحكومة وهى قادرة على التأديب بوسائلها الأخرى، وإن أفضل حل هو التنفيذ ودون تلكؤ أو تباطؤ، فزادت دهشتى لأن الكلام الذى سمعته مهموسًا على لسان الوكيل صار شائعا على ألسنة الكل وكأنهم كانوا يختبئون تحت الدكك ولا أراهم، احترت واحتار أمرى، صرت بين يوم وليلة حكاية على كل لسان، وصار من حق أى واحد تربطنى به علاقة أولا تربطنى أن ينقل إلىَّ خبرًا صادقًا أو مكذوبًا أو يسدى لى نصحًا ينجينى أو يرمينى فى معتقل تحرسه كلاب بوليسية قادرة على النهش والتمزيق، وصرت مثل وخش محبوس فى قفص ضيق يبحث عن منفذ فلا يراه إلى أن جاء اليوم الذى طلبنى فيه عمى وكأنه يذكرنى بأن لى فى الدنيا أهل وناس.

ساعات أفكر فى الأمر على هذا النحو: رب ضارة نافعة، والخيرة فيما اختاره الله، وما هو من نصيبك لابد أن يصيبك، وكلام على هذا المنوال كثير لا أذكره لكنه عمل لحياتى توازنًا كدت أفقده وأتخبط فى الدنيا بأكثر مما تخبَّطت، ربما كانت هذه النقلة أكبر نقلة فى حياتى، لا أحسبنى انتقلت من حال إلى حال بهذه القوة فى كل حياتى، كانت النقلة سببًا فى تعديل مسارى وكأننى كنت قطارًا مدفوعًا للإمام والسائق ينظر متوهمًا أن مسارة سوف

يبقى فى نفس الاتجاه فإذا بتحويلة لم يلحظها أو يتوقعها فى القضبان تأخذه وقطاره فى اتجاه المجهول، لكنه يكتشف بعد فترة أن هذا المجهول نفسه أفضل بكثير من المعلوم الذى كان يسعى للوصول إليه.

دخلت دار عمى فسمعت صوت جدتى لامى ، لابد أننى قد وصلت إلى حالة من حالات اليأس والانهيار التى ظهرت علاماتها وأنا أحسبها فى الداخل مخفيَّة، شىء مثل الأسرار الشائعة التى تظنها مستورة ثم تكتشف فجأة أنها على كل لسان إلاً لسانك الذى حافظ عليها وكتمها، وساعتها تضحك على روحك لأنك كنت الوحيد الذى صدق أنها سرٌ يستوجب الحفظ والكتمان، شىء مثل كلام وكيل المدرسة الذى أسرَّه لى وشاع ربما بعد أن وصلنى مباشرة وربما قبلها، سر مكشوف ومعلن قبل البوح به، هل جرَّب أحدكم مثل هذا السر واحتفظ به مثلى بينما الكل يتداوله حتى قبل أن أسمعه؟ لابد أننى كنت مكشوفا للكل على نحو فاضح دون أن أدرى، وقالت جدتى لأمى وهى توجه حديثها لعمى بينما أجلس:

ـ مش قلت لك ابن بنتى عضمه طرى وقلبه خفيف وما يستحملش الحاجات دى، ده عاوز حد يكون قلبه عليه، يوعِّيه ويسنده ويصلب طوله، وأنا إن لفيت الدنيا كلها مش ح الأقى له أحسن من بنتك فردوس.

هل كنت أنا فى غيبوبة بينما تتحاور هى معه فى كل التفاصيل وأنا مثل البنت البنوت ساكت وغائب أو غير مسموح لى بالكلام

بحساباتى على الأقل فى تلك الأمسية التى تفاوض فيها أولياء أمرى فى أمرى وأمر فردوس حتى انتهى الحوار بزغرودة من أم فردوس جلجلت كإعلان عن فرحة تدخل قلبى الحزين من غير تعب أو سعى أو مناهدة ، ثم زغرودة أخرى أطلقتها خالتى العبيطة «كاف» أضحكت النسوان فترة قبل أن تزغرد فرحانة أم يوسف فيتأكد لى ولكل السامعين أننا بالفعل قد قطعنا كل الأشواط وسوف نبدأ الفرح.

ـ شوف وشه نور إزاى؟

قالتها جدتى لأمى وهى تشير ناحيتى فابتسم وأنسى هم النقل وما دار حوله من كلام وتهديدات وقلق، وقالت جدتى أيضا:

ـ يدخلوا هنا يا حاج ف داره اللِّى هى دار أخوك وأنا اللِّى ح أبعت أحوش لهم سكن هناك وأنقل عزالهم كمان على حسابى.

ـ أيدنا على أيدك يا حاجه، هو إحنا ح نبخل على إبننا.. ما هو إبننا برضه.. مش كده وللاّ إيه؟ هىء هىء هىء .. هىء.

كانت المندرة قد انزحمت برجال ونساء وعيال وعيناى تبحثان عن فردوس، لابد أننى بسكوتى الذى طال رغم طلبات البعض منى أن أتكلم وأقول رأيى فى أى شىء فلا أنطق وأجعلهم يضحكون، وغاية ما استطعت أن أقوله بعد أن هززت رأسى بالموافقة عشرات المرات هو:

ـ أنا موافق على كل اللَّى قالوه..

ـ وموافق ع اللِّى ح يقولوه..

لا أعتقد أن زواجًا تم فى كفرنا على هذا النحو وقد نفض العريس يده من كل شىء وأسلم روحه للتفكير فى مستقبل الأيام، كانت دارنا تزدحم بالوافدين، منجدِّين ونجَّارين وحملة صناديق وكراتين، ناس تكنس وناس تخبز وناس تغسل وناس تذبح طيور لا أعرف مصدرها ثم تنظفها وتحمرها فى الفرن وأنا المتفرج الوحيد:

ـ أصله بينكسف.

ـ بس اللِّى ينكسف من بنت عمه ما يجيبش منها عيال..

ـ حد عارف بقى.. يمكن مالوش.

ـ ولاَّ العروسة مش عاجباه..؟

ـ إخرسى يا بنت منك لها بلاش قلِّة حيا.

تقولها جدتى فتخرس البنات عن الكلام.

لكن ضحكاتهن تجلجل وتملأ فراغ الدار ويتأكد لى أننى خلال اليومين الفائتين عرفت الفرح لأول مرة فى حياتى بعد موت المرحومين فى يوم واحد وغلبة الأحزان، لابد أننى كنت أخجل فعلا من التفكير فى أمر الزواج أو الكلام عنه رغم إعجابى بفردوس، وقد تحدَّدت تفاصيل بدنها وصار لصوتها بحة مميزة، ولنظراتها ارتباكات مشاغبة جديدة عليها، والوجه الذى كان يتلوَّن بالحمره

خجلا عندما أمرُّ على دارهم مجرد مرور وتتقابل نظراتنا صدفة، لم يكن فى العقل أو القلب أو الخيال غير فردوس، لكن هل كان من الممكن أن أفكر فى الزواج ولم تمض على موت أمى وأبى فى نهار واحد غير ثلاث سنوات وبضعة شهور؟ وحتى إذا فكرت هل كنت أستطيع التنفيذ أو أتجاسر على الذهاب إلى دار عمى والجلوس أمامه بأدب لكى أطلبها لنفسى بنفسى؟ صحيح أنها كانت منذورة لى وكنت منذورًا لها منذ سنوات وبشكل معلن أيام وجود الوالدين، لكننى بالقطع كنت فى حال من الارتباك والتشتت والقلق الكفيل بإسكاتى عن المطالبة بأى حق من حقوقى إذا منعوه أو اغتصبوه حتى ولو كان جرعة ماء من مجرى النيل، لم تكن فردوس مجرد نذر قديم نذروه، أو مشروع زواج أقارب مألوف فى كفرنا، لكنها كانت فى القلب قبول وشوق مستور بالأدب وصورة فى الخيال وهى شريكة لمشوار العمر كله تطرح فيها شجرتها عيال يشبهون صور الملائكة المرسومة فى كنيسة نصارى كفرنا الكائنة ناحية الدوَّار القديم حيث كنا نتجمع لنلعب الكرة أيام الجمع من كل أسبوع ونتوقف أحيانًا بكل الاندهاش لنتأمل الرسوم.

لابد أن ملاكًا طاهرًا هو الذى أوحى لجدتى وعمى بأن يفعلوا ما لم يفعله أحد فى كل ناحيتنا بهذه البساطة والبراعة واليسر، كان كل شىء يتم حولى بسرعة وخفة إلى حد مذهل ودون أن أتعب فى شىء، ولابد أن جدتى سدَّدت لأمى دينها القديم فى هذه المناسبة وأكثر، كنت أسألها عن تكاليف أى شىء أو ثمن أى شىء فتجاوب بنفس الجواب:

ـ ده من القرشين اللّى كانوا فى ذمتى للمرحومة أمك يا ابن بنتى، ح تحرمنى من سداد الدين وتكوينى ف نار جهنم كمان؟ اللّه يرحم اللِّى راح.

بعد عقد القران أحاطونى فى مشوار الزفة القصير وعن يمينى فردوس، من دار عمى لدارنا وجدتى تتقدمنا حتى وصلنا للباب المفتوح فأمرتنى:

ـ أحملها يا ولد وأدخل بيها من عتبة الباب.

حملتها فشعرت بها خفيفة خفيفة تكاد أن تكون نسمة ليس لها ثقل، وعندما خطوت عدة خطوات انسك الباب بيد جدتى التى أمرت الكل:

ـ كل واحد يروح لحاله.. العروسة للعريس والجرى للمتاعيس.

وضحكت ناس واعترضت ناس وزغردت نسوة وألقيت على الباب المسكوك حفنات من الملح الأصلى نفذت بعض حصواته من شراعة الباب وطالتنا فضحكت أنا وفردوس.

لابد أننا اكتفشنا كل شىء على مهل وبكثير من الخجل ، كنا مثل طفلين غرّيرين يخطوان فى الفراغ قبالة بعضهما أولى خطواتهما كل منهما فى اتجاه الآخر، ولابد أننى فى الفراش تجاسرت بأكثر مما كنت أملك فى الخيال من جسارة، ولابد أنها تجاسرت أيضًا عندما قبلت جسارتى التى مكنتنى من فتح سكة لقدرتى فى طريق كان مسكوكًا وصرت أملكه، وانطلقت أعيرة نارية ساعة الفتح سمعناها فارتبكنا لحظة ثم تبادلنا الأحضان من غير تردد.

وكانت فردوس فى الغربة حضنا حنونًا يبعث الدفء فى الصدر والقلب والأطراف، ربما لولاها ما استطعت أن أعيش بالغصب فى تلك المدينة أيامًا رغم التنبيهات والتحذيرات والمخاوف، كانت فردوس فى غربتى ونسى، وفى دنياى المعزولة بؤرة تواصل فيه متسَّع، كانت هى الأم والأب والأخ والأخت والعم والخال وبنت العم وبنت الخال، وكانت صاحبى الذى يلاعبنى كل ألعاب الورق، تغلبنى وأغلبها فنضحك ونعاود اللعب، وكانت هى الزوج المعشوقة وكنت زوجها المعشوق دون أن يتحدث أى منا عن مسألة العشق لأن الكلام فى العشق عيب كما اتفقنا، كانت قادرة على طمأنة القلب وسقايته بشهد الحياة الصافى وهى تتدفق بفطرتها دون أدنى افتعال لتحمينى من وساوس العقل ومخاوفه، وكانت تنسينى فى الليل كل متاعب النهار.

لكن ناظر مدرسة العهد الجديد كان نسخة قديمة من الناظر القديم، كان يتباهى بكفاءة المعلمين أيام كانت كفاءة المعلمين أحسن ألف مرة من أعلى الشهادات حسب تأكيداته، لكنه كان أكثر جرأة فى الإعلان عن وظيفته الأهم من نظارة المدرسة وهى مساعدة المسئولين على تحقيق النظام وإنجاز العمل بالإضافة إلى قدرته المذهلة على التلون، يدخل مكتبه المفتش أو أى مسئول فيبادره بالسعى ناحيته حيث يكون ثم ينحنى ويتصاغر ويقصر طوله وهو يعلن:

ـ نقبل الأيادى سعادتك.

لكن إذا خرج المفتش أو المسئول نفسه من المكان واطمأن تماما أنه ابتعد بشكل مؤكد عن مجال السمع قال نفس العبارة لأقرب واحد يكون إلى جواره حتى ولو كان واحدًا من الفراشين، يقولها مهموسة وممنوحة للآخر بعد أن يزفر:

- أهو غار.

وكنت أصف لفردوس أفعاله وتهديداته التى لاتنتهى بأن يتصل بالمسئولين الذين يملكون الحق فى نفى أى معترض، أو نسفه، أو استضافته فى منطقة مجهولة وبعيدة وكائنة وراء الشمس، أبثها مخاوفى من أن يكون هناك أى شىء ضدى يدعوه لكل هذه التخويفات المتكررة فتطمئننى بأننى رجل مستقيم وفى حالى وبأننى لم أكن ضد رأى شخص بعينه لأكتسب عداوته، لا أصدق وأجادلها فى الأمر وأذكّرها بقرار نقلى إلى هذه البلدة البعيدة فتهوّن علىّ الأمر قائلة:

- كلها بلاد مسلمين والناس هنا طيبين.

أواقفها وأعود للحديث عن مخاوفى من الناظر فتوصينى بأن أنسى الشغل بعد مواعيد الشغل، وأن أنسى ناس المدرسة وأنا خارجٌ من باب المدرسة، أدرب نفسى على ذلك فأفلح فى بعض الأيام وأفشل فى بعضها الآخر ، لكنها لم تكن تكف عن نصحى ولا تمل احتمالى، تجذبنى للحديث عن نطفة تتحرك فى بطنها أو طفل تعلَّم الابتسام وعمره عدة أيام فأقوم إليه لأتأكد من ذلك بنفسى وأنا أحمله، أشعر بارتياح وبأننى أستطيع بقليل من الوعى

أن أملك كل وقتى وأن أنعم بحياتى مع فردوس وطفلها إذا هدأت أعصابى، أتحول إلى أب فرحان وأشعر أننى بمساعدتها استطعت أن أتجرَّد من بعض أحزانى، لكن القلب بسبب الخوف عليها وعلى خلفتنا لم يكن يخلو من الوجع، لابد أن فردوس فى تلك السنوات العجاف كانت وطنى الذى انتزعونى منه غصبًا ودون أى ذنب فضحكت عليهم وأخذته معى وأركبته القطار بتذكرة سفر ثم ساكنته أو أسكنت نفسى فى حماه مستغنيًا به عن كل ما كان يحيطنى أو يدور حولى، لابد أن فردوس كانت قبل أن تولد أسرة كاملة أو عائلة كبيرة متماسكة ومتوحدة ومتفقة على أساسيات استمرار الحياة رغم كل المصاعب لكنها نزلت من بطن أمها على هيئة بنت، كان من الممكن أن تكون وحدها عائلة، عيالها كثار واسمهم فردوس وكبارها اسمهم فردوس وحريمها اسمها فردوس، وكنت أنا وحدى الحاكم لها أحيانًا ورعيتها المحكومة، والحامى لحماها وحدودها والمحمى بقدراتها على إدارة الحياة، سبع سنوات من الاغتراب الذى لم استشعره إلاَّ على فترات متباعدة خلفت لى خلالها بنتًا واحدة وولدين وجعلتنى أدور فى فلكها باختيارى لأنها كانت بالقطع تدور فى فلكى وعلى مقربة منا ناس كثار من أبناء تلك المدينة فتحوا لنا صدورهم وباحوا بالأسرار فشعرنا معهم بالأمان وعاشرناهم باطمئنان، لعب عيالنا مع عيالهم واقتربوا منا فاقترينا منهم إلى الحد الذى أنسانى حكاية النقل الذى يشبه التأديب أو العقاب عن خطايا لم أعرف أبدًا متى ارتكبتها ولا حتى ضد من كنت فيها طرفا معاديًا يستحق الانتقام فى بدايات ذلك

العهد الذى حسبته عهدى وتحمست له لأنه جديد.

لكن ناظر مدرسة العهد الجديد طرق بابى ذات مساء على غير موعد فرحبت به كما تقضى الأصول وقدمت له الواجب اللائق بناظر مدرسة، شكرنى ثم همس وهو يتلفَّت حواليه ناسيًا أننا فى بيت مقفول بابه:

ـ حد هنا غريب..؟

ـ لا

ومرة أخرى جال بصره متلفِّتًا فى أركان المكان وكأنه يتحسَّسه بعينيه وأنفه فلما اطمأن قالْ بنفس نبرات صوته المهموس المانح:

ـ جايب لك بشرى أستاهل عليها حلاوة كبيرة قوى.

ـ خير.. أنا تحت أمرك يا حضرة الناظر..

ـ صدر أمر بالعفو عنك، ح ترجع بلدك عن قريب، أصلهم سألونى وقلت لهم رأيى فيك، وبينى وبينك ما أخبيش عليك أنا كنت متكلِّف أكتب خط سيرك للمسئولين من يوم ما جيت، أصل أنت كنت جاى مغضوب عليك، بس الظاهر كانت تهم مالهاش أساس ـ تهم فى السياسة يعنى .. هو أنت كان لك ف السياسة هناك؟ إتهيألى لأ .. بس مش عايزك تجيب سيرة لحد..

قالها وانتفض واقفا وكأنه حاجب محكمة كلَّفه قاضى مشغول بقراءة منطوق حكم بسيط على متهم بخطف طاقية فى مولد لم

تثبت إدانته وحصل على البراءة، مدَّ الناظر يده يطلب السلام فاستمهلته ولم يتمهل بينما يخرج من باب البيت وكأنه مسئول عن موضوعات أخرى يلزم إنجازها فى نفس الوقت، موضوعات يعلم الله مدى خطورتها أو بساطتها فى حياة ناسها.

لكننا رجعنا على أى حال بعد أن صدقت بشرى ناظر مدرسة العهد الجديد وانطبع قرار النقل وانختم لتنفتح دارنا التى هجرناها ويتم تنظيفها وفرشها بعفشنا المنقول، وقبل أن يكتشف العيال براح الدار جاءتنا الأخبار بأن جدتى تطلبنى وقد توافق وصولى مع اشتداد مرضها ومنازعاتها مع الموت.

* * *

طبعا كنت أصغر من يوسف بسنة وشهرين حسب ما ظهر أيام أن تقدمنا للالتحاق بالمدرسة الابتدائية، ولولا واسطة مدير عام المصلحة نفسه ما دخلت أنا ولا دخل يوسف، كنا قد نجحنا فى امتحان القبول أنا ويوسف وصلاح النعناعى لكنهم وضعوا أسماءنا فى كشف مفصول عن كشوف المقبولين وقد كتبوا أعلاه «كشف بأسماء الناجحين وليست لهم أماكن » وقلنا أنه نجاح أصعب من السقوط لأن السقوط كان يسمح لنا بدخول الصف الأول بدل الصف الثانى الذى اجتزنا امتحان قبوله، وطبعًا تحمل أبى المسئولية وحده بدون مناقشة لأنه متعلم ومستخدم وله وسلطات، أول ما سعى اتجه لسراية الباشا كبير الناحية جشمت الدكرونى لكن الباشا حشمت اعتذر بلطف لأن حزبه خرج من الوزارة، وقال

إن الحزب الحاكم فسدان ولايريد أن يعمل أى إصلاح ، وإن ما جرى فى مسألة قبول التلامذة أو عدم قبولهم لعدم وجود أماكن الغرض منه تجهيل الشعب وتزويد الأمية، وقال كلامًا كثيرًا زودَّ به هم أبى الذى كان يحكى لصلاح النعناعى وحلاق الحمير كل تفاصيل مساعيه ومشاويره وأفكاره لحل المشكلة، قال لهما إنه يعرف من مفاسد الحكومة والحزب الحاكم أضعاف أضعاف ما يعرفه الباشا كبير الناحية والنائب عنا فى البرلمان، لكنه طمأنهما بأنه سيحاول من باب آخر:

- ولو أنى ما حبِّش الجرى والتنطيط والوقوف على أبواب المكاتب إنما ده مستقبل ولازم نلاقى حل للعيال دول.

وفى صباح اليوم التالى قال لأمى إنه سوف يسافر لمقابلة مدير عام المصلحة نفسه فى مصر المحروسة وسافر وغاب يومان وليلتان ثم رجع متهلِّل الوجه مستبشرًا، وفى مساء نفس اليوم جلس فى صدر مندرتنا وحكى لكل من جاء يستفسر عن نتيجة سعيه فحكى عن محاولاته للدخول لمكتب مدير عام المصلحة وتأجيل دخوله مرة بعد مرة بسبب الاجتماعات واللجان والزوَّار الأجانب وغير ذلك من الحجج التى يبرع الموظفون فى مكاتب المسئولين الكبار فى اختراعها:

- أنا كنت زهقت خلاص وفكرت أرجع من غير ما أقابله.. بس العيال صعبت عليا.. قلت للكبير فيهم روح وقول للبيه المدير العام فلان الفلانى مستنى حضرتك من يومين، الراجل بص

لى بفيظ.. بس يا سبحان الله دخل وطلع وشه متغير وبقه مفتوح ع الآخر ويا أهلا وسهلا.. أتفضل حضرتك البيه المدير عايزك ، أنا بقيت مش مصدق روحى بس دخلت، الراجل رحب بى وقال إنه يسمع على أسمى من زمان وإنه كان عاوز يشوفنى، قلت يا سبحان الله.. العيال دول سكتهم سالكه وربنا ح يوفقنى ف المشوار، سألنى ع المطلوب قلت له، هز رأسه وضحك وقال: بس كده.. روح يا أفندى على بلدك، ابنك وزمايله ح يدخلوا المدرسة، بس أنت سلم لى على عصمت بيه.

سألوه عن عصمت بك فأكد لهم أنه لايعرف شخصًا فى مصلحة الصحة اسمه عصمت بك، وأضاف إنه بالصدفة أن البك المدير العام زوج بنت الباشا وزير المعارف أو زوج بنت أخته أو أخيه، شىء من هذا القبيل وأنه لم يلتق به أبدًا أو يظن أن لهم أملاك فى الناحية، لكنه الله الذى سبب الأسباب وجعل الرجل يرحب به ويطمئنه على مستقبل العيال، أظهروا دهشتهم واعتزازهم بسعى أبى ودعواتهم أن يكلّل مسعاه بالنجاح وتمنياتهم للبك مدير عام المصلحة بدوام العز والقدرة على إنصاف المظلومين.

ولم تمضى أكثر من عدة أيام حتى ظهرت البشارة وأعلنت المدرسة على بابها بخط عريض إنها سوف تقبل كل الناجحين ولم تكن لهم أماكن وتفتح لهم فصلاً جديدًا، على هذا النحو كان لمدير عام المصلحة فضل دخولنا المدرسة، انفتحت بواسطته الأبواب المسكوكة وانوجدت الأماكن غير الموجودة فدخلنا أنا ويوسف وابن النعناعية.

لكن حكاية نجاح يوسف نفسه فى امتحان القبول لايعرفها غير الله وأنا ويوسف نفسه لأنه فى الامتحان كان الولد يوسف يجلس ورائى، ربما لأنه من نفس بلدنا، وربما صدفة لكنه كان ورائى، يحلفنى طوال وقت الامتحان بالنبى المرسل ويدعو لى ولأبى بطول العمر لكى أغشّشه فأخجل من نفسى وأتحين أى فرصة يلتفت فيها المراقب لناحية أخرى فأرفع ورقة الإجابة فى وضع قائم معتمدًا على قدرات يوسف التى شهد له بها كل الناس برؤية الأشياء البعيدة أكثر من غيره من عيال الكفر، وكنت أفسر له بالكلام المنطوق أيضًا ما يعجز عن فهمه لأنه كان يتميز ببلادة وعجز ظاهرين فى فهم المعانى ونطق الألفاظ كما علمنا الشيخ درويش، لكنه نجح بمساعدتى مستغلا قدرته على الإلحاح وادعاءاته المتكررة أن للقرابة الشديدة التى تربط بيننا حق فى رقبتى ويلزم أن أوُفيه، الشيخ درويش نفسه لم يصدق مسألة نجاح يوسف فى امتحان القبول بمجهوده، وقال إنه لابد أن أوراقه اختلطت بأوراق ولد شاطر، أو إنه غشَّ فى اللجنة، وعندما سألنى أخفيت أنه كان يجلس ورائى أو أنه غشَّ منى، حتى صلاح النعناعى أخفى عن الناس ما رآه ربما لأن يوسف حلفنا فى أول يوم بالمصحف ألاَّ نبوح

لكن يوسف دخل المدرسة فى فصل غير فصلى أنا وصلاح النعناعى، وبينما كنا ننجح كان يوسف يعيد كل سنة فيأخذها فى سنتين مما جعل الشيخ درويش يستشهد بذلك على خيبة يوسف التى تنبأ بها من زمن قديم، ولعله الشيخ درويش أيضًا الذى نبَّه أبى إلى إمكانية استغلال تفوقى الظاهر فى دخول امتحان العامين

الدراسيين لأنط كل سنة سنتين دراسيتين وإصل إلى التوجيهية بينما يوسف يمتحن الابتدائية لثالث مرة.

فى كفرنا وفى الكفور المجاورة اعتدنا موت الرجال قبل النساء وتوقعناه، وقد يموت الرجل فتدخل امرأته تجربة الترمل الطويل، أو تسعى لزواج جديد، وفى كفرنا كل الحالات بأشكالها وألوانها الحادة والباهتة، نبدأ بتلك التى رمت عيالها لأهاليهم ليتولوا تربيتهم وتشوف هى حالها، كان قد فاتها قطار الصبا والقدرة وشاب شعرها وغزت تقاطيعها تجاعيد تليق بعمرها، وكانت عندها خلفة كثيرة بعضهم كبر وزال همه، والبعض منهم كانوا صغار السن يحتاجون لرعاية الأم، على وجه التحديد رعاية الأم، لكنها فتحت بابها وسمحت للوردانى بدخوله وهو النفر «التمللى» ابن السيد العبد المجلوب من بلاد العبيد السود، قال ناس الكفر إن الست نرجس حرم المرحوم شيخ البلد وديع قلّت قيمة روحها بروحها، صحيح أن الشرع يسمح ولايمنع لكنه هناك أيضًا شىء اسمه العيب وهو ما لم تحسب حسابه فأتاحت للألسنة التى تشبه سكاكين الجزار المسنونة أن تسلخ جلدها وتغوص فى لحمها وعرضها ساخرة وقادرة على تخليق النكات البذيئة عن المرأة التى حكمتها الغريزة وسكنتها من الداخل دودة شقية لاتكف عن الحركة إلاّ إذا ركبها رجل وأشبعها، ولابد لابد أن شيخ البلد مات بسبب تلك الدودة نفسها ناقص العمر لأنها لابد كانت تطارده وتقلقه وتوقظه من أعز نوم لكى يطفىء اللهب الحادث من حركة الدودة فى اللحم الحى، لكنه أيضًا لأن الناس فى كفرنا تعشق العفو والسماح فإنهم

بعد عدة أسابيع من التندر والتعبير عن القرف من افعال بعض النساء، قالوا لبعضهم البعض إن الله حليم ستار وإنه على أى حال الحلال أحسن من الحرام ، كأنهم بعد أن شبعوا كلاما فى السيرة أدركوا أنهم حرَّموا الحلال فمالوا إلى التكفير عن خطاياهم بالحماس الزائد لتحليل ما هو حلال والاعتراف بأن الوردانى العبد بنى آدم من دم ولحم شأنه شأن الأسياد.

لكن الوجه الآخر كان معكوس الست نرجس، ليس فقط لأن نادرة كانت صبية وعفية وتتمتع بطلعة بهية بينما قريناتها وبنات عمرها مازلن بناتًا غالبًا وأبكارًا لم يمسسهن بشر إلاّ أقل القليل، وكانت بنت ناس على باب الله، لا مال ولا أرض ملك ولا عزوة عائلة قادرة على إعالتها بطفلته الوليدة وقد مات زوجها فى سكة البندر عندما صدمه جرار الحاج مرسى، لا كان للولد معاش ولا الحاج مرسى نفسه عوَّضها بأى شىء أكثر من تكاليف الدفن وثمن الكفن، وكان من الطبيعى أن يظهر لها من شباب الكفر من شاء أن يقترن بها ويسترها وأن يطمع فيها بعض كبار السن من المتيسرين ذوى العيون الفارغة، ولعل علامات الطمع ظهرت لها فى زيارات العزاء المتكررة والتلميحات المكشوفة فى الكلام مثلما فعل الشيخ بسطامى فأوقفته عند حدِّه بحدَّة وقالت له على رؤوس الاشهاد إن من يدخل سكنها للعزاء فلابد أن يدخله باحترامه ويخرج منه باحترامه، وابتلعها الشيخ بسطامى وتباعد عدة أيام ثم بدأ فى إرسال المراسيل لجس نبض البنت وما إذا كانت على استعداد لأن يدخل حياتها بشكل شرعى على سنة الله ورسوله شريطة أن يكون

العقد عرفيًا فرفضت، تنازل وأبدى استعداده بأن يكون الزواج شرعيًا وبعقد رسمى فرفضت أيضاوأعلنت لكل من فاتحها بينه وبينها أو وسط الناس أنها سوف تربّى طفلتها من كدّها وعرق جبينها وأنها لن تجلب لطفلتها زوج أم، نصحها المتعقلون بقبول عرض الرجل لأنها سوف تتحوّل إلى ست هانم تأكل من خير زوجها ميسور الحال مالم تأكله فى حياتها وتلبس مالم تحلم يومًا أن يلمس بدنها، لكنها اعترضت بحسم، وظل الشيخ بسطامى يحوّم حول سكنها وكأنه مسحور أو مكتوب له بالعشق وعدم نوال المراد، ولأنه لم يكن بقادر أن يمنع نفسه فقد أضحك عليه الناس لأنها بصراحة أصغر من بناته، ولأنها بدأت بكشف أغراضه قبل أن ترفضه بعناد حمارة من الصنف الحصاوى الأصيل مما أكد طهارة ذيلها وصدق قولها بأنها بعد المرحوم قصير العمر طلّقت الرجال بالثلاثة.

ولابد أنها حسبت فى عقلها أن لقمتها فى داره وأن كانت حلوة الطعم إلاَّ أنها سوف تكون مسمومة من عيون زوجته أم عياله وعياله وناس الكفر خارج حدود داره فاختارت السعى فى السكة الصعب، تركت الناس تتقوّل على الشيخ بسطامى بحسب ما تسعفهم الألسنة:

- دا راجل شايب وعايب وإحنا كنا مغشوشين فيه.

- بس البنت أجدع من ستين راجل، وقفته عند حدُّه بصحيح.

- دا بقى كهنه وضهره انحنى، كان فاضل فيه حيل لجواز؟

وغير هذا كلام كثير قاله الناس وسمعه الناس ومن بينهم أهل الرجل الذين صار كل همهم أن يمنعوه من خروج الدار وإذا خرج أعادوه وهو ينادى طيفها الساكن دماغه بلا خجل فى الشارع والدار وكل مكان يتواجد فيه:

- يا نادرة.. ردى علىَّ يا نادرة.. نادرة..

وعندما يتعب يسكت، ونادرة هناك على مقربة أو مبعدة منه تشقى روحها ولاتهدأ أبدًا، يوم السبت من كل أسبوع تذهب إلى البندر وتشترى الترمس الجاف من الغباشى العطار ثم تعود وتقسمه ست أو سبع أكوام تحط كل كوم فى جلباب مسدود طوقه بحبل أو شوال وتنقعه فى مجرى الترعة جنب المصلية الكائنة قبالة سكنها، والعبوَّة التى تطيب وتطلب الأكال كما تقول تفرغها فى طبق العشاء الكبير وتغسل الترمس فى ماء الصهريج حتى تلمع قشرته الصفراء وتشتهيه العين قبل البطن، تجلس ببضاعتها عند باب المدرسة والبنتَ على حجرها، تبيع للعيال الصغار وللبنات ولمن يطيب له أن يتذوق ترمسها المملح بحلاوة من الرجال، وكانت البنت تكبر، وتزحف وتمشى ثم ترمح وتدخل نفس المدرسة ثم تكبر أكثر وترافق نادرة فى نفس مشوارها اليومى فتبدو مثل أمها فى صباها القديم وتتحول نادرة فى وسط الحريم إلى مثال على القدرة يذكرونه للرجال إذاعنَّ لهم أن يتباهى الواحد منهم أكثر مما ينبغى بقدرته،

لكن بعض نساء الكفر أيضا يمتن قبل الرجال، وأحيانا تكون الزوجة شابة تستحق أن يحزن عليها الرجل كل عمره مثلما حزن

عيَّاش الضَّانى وشغل عمره بالولدين والبنت ونسى أمر الزواج البديل إلى الحد الذى جعله يحتمل ما كان يشيعه عنه الشباب من أنه فقد قدرته كلها وربما نصفها فخاصم الحريم، كان قد انكمش على نفسه وصار ثقيل الحركة ومن داره لزاوية أولاد عوف للغيط، ومن الغيط للزاوية للدار يغسل للعيال ثيابها ويجهز عشاءها ويغطى من ينام وينتظر آذان العشاء ليذهب إلى الزاوية ويصلى ويرجع للدار ثم ينتظر بينما هو نائم آذان الفجر ليصلى ويوقظ العيال، لكنه من فرط دهشة الناس فى كفرنا صار يتباعد عن النساء، توجِّه له الواحدة تحية الصباح أو المساء فلا يرد، تعرض عليه أى واحدة من قريباته خدمتها أو مساعدته فى شأن من شئون العيال فيطرق مدة ولا يرد وكأنه خجلان من الرد، وبمرور الأيام اكتشفوا أن عيَّاش الضَّانى خاصم بالفعل كل الحريم وأنه لم يتبادل على امتداد السنوات عبارة حوار مع أى واحدة سواء قريبة أو غريبة، قالوا أنه أصيب بمسٍّ من الجنون لكن الرجل كان فى حواره مع الرجال عاقلا بكل ما يظهره العقل من علامات، وتطوع حسنين المدندش وسأله فى ليلة طلع فيها القمر ونورَّ دروب الكفر وسطح دار عيَّاش الضَّانى حيث كانا يجلسان، سأله فبكى وأجهش فى البكاء وباح:

ـ كل النسوان خاينين، أتجوزها وأرهن فى جهازها خمس قراريط وتخلفلى عيال أفرح بيهم وأفرح واقول الدنيا بتضحكلى، أول ما فرحت وقلت لنفسى الدنيا بتضحكلى، ماتت.. ماتت من غير أسباب، ماعيتش، مارقدتش،

مـاسـخننتش، كـانت زى الـرهوان.. وهب.. قـعـدت ع الأرض وشـاورتلى ميِّلت عليهـا وسألتـهـا مـالك قـالت لى أقـعـد جنبى يا عيَّاش .. با ينّى ح أموت ف لعبه يا عيَّاش، أنا كنت باكفِّيك وأراضيك وعمرك ما شبعت يا عيَّاش، سلسالك فرعون ما بيتهدش أبداً .. ثلاث مرات فى الليلة يا مفترى.. قتلتنى وكنت عشـقـاك.. إن مت يا عيَّاش ماتكشفش روحك على حريم بعدى .. حرام عليك .. حرام.. ح أتعذب ف تربتى يا عيَّاش.. قالت يا عيَّاش وماتت.

والمدندش حفظ الكلام، وزنه وحكاه وربما كان أول شيء غنَّاه على الربابة الجديدة، وكل ناس الكفر سمعت حكاية عيَّاش الضَّانى وصدقتها رغم أنهم لم يسمعوا بمثلها فى الكفر والناحية ولا حتى فىّ حواديت بلاد تركب الأفيال:

عيَّاش الضَّانى حكاية يا ناس.. عيَّاش الضَّانى حكاية.

على هذا النحو كان يبدأ المدندش حكاية عيَّاش، وربما يكون وسط جمهور السامعين عيَّاش الضَّانى نفسه، يسمع ويتعجب ويمصمص الشفاه شأنه شأن الآخرين الذين صاروا يتعاطفون معه ويمنعون الحريم من عمل تلك المشاكسات المتكررة معه والتى كان لا يرد عليها بأكثر من إطراقة تطول بطول مدة وجود من تشاكسه أو تعاكسه من النساء وعندما يطمئن إلى خلو المكان منها يرفع رأسه ويقوم لشأنه، لكنه لم يعد يتعرض لمثل هذه المشاغبات من زمن طويل وقد طالت قامات عياله وزادت على قامته، ولابد أن

حكايته التى كان يغنيها المدندش كل مرة بشكل انضاف إليها جديد وانحذف منها أجزاء لكنها مسموعة ومحفوظة على كل حال.

لكن عيَّاش الضَّانى وجه من وجهى عملة الرجال ولها وجه آخر تظهر فيه صور رجال كثار تجمعهم رغم الإختلافات البادية والظاهرة لهفتهم على الحريم بعد رحيل الزوجات وأحيانا قبل الرحيل، لهفة تتبدَّى فى استعجال الموت لأم العيال حتى لا يطول عذابها كما كان همَّام عوف يدَّعى بينما زوجته أم عياله الستة الذين صاروا رجالا لهم عيال أو أمهات لهنَّ عيال ولبعض عيالهم عيال، كان همَّام عوف أب وجدٌ لخمسين فرداً بين كبار وصغار طلعوا كلهم من صلبه ومن رحم ونيسة بنت عمه التى عاشرته وعاشرها ما يزيد عن الخمسين عاماً بسنوات، عمر طويل من الزواج والمعاشرة وجيش من الخلفة يتوه فيها أى عقل كما كان همَّام يتوه، ولولا أن ونيسة بنت عمه كانت صاحبة أرض أضافها لأرضه من أجل العيال وتربية العيال ما ترددً فى الزواج من غيرها أكثر من مرة شأنه شأن المتيسرين من الرجال الذين استغلوا يسر الحال فى سكة الحريم سواء بالحلال أو بالحرام، نتكلم فى الحلال لأن الله حليم ستار على عباده، كان همَّام يسعى فى أعقاب كل بنت لها طلعة أو هيئة أو شكل يعجب ويستحق الانتباه، لكنها على كل حال كانت مناوشات غيطان ينساها أو ينكرها بشدة إذا انفتحت سيرتها فى الدار، لكن أن يصل الأمر فى بعض الحالات أن تسرَّ زوجات الأبناء للست ونيسة بما يفيد أن همَّام طوَّل يده عليها أو قرصها أو زنقها فى جذع شجرة متظاهراً بأنه يتناول عباءته

المعلقة، أو أن يكون قد قال لها كلاماً مكشوفا عن علاقتها بالولد ويعنى به ابنه الذى هو من صلبه وقد زوَّجه للبنت بنفسه وبرضاه، يسألها إن كان يعرف كيف يجعلها مبسوطة من عدمه أو إنه خائب الرجاء لا يعرف، تسرُّ الواحدة من الأربع زوجات للأربع أبناء للست ونيسة، وكل واحدة لها حكاية شكل، لكن ونيسة كانت أعقل من همَّام، توبِّخ البنت أو تتهمها بالميوعة وقلة الأدب لأنها تجاسرت وقالت مثل هذا الكلام عن الرجل المحترم الذى يعيش الكل فى خيره بينما هى فى عمر واحدة من البنتين أو أقل فى العمر والهيئة والجمال والشكل، لكن ونيسة برغم كتمانها كانت تعايره فى ساعات الغضب بأفعاله على مسمع من الحاضرين ودون مداراة، وساعتها كان يهرب إلى الغيط، يأخذ الحرام على ظهر الجحشة ويغضب فى الغيط، كان غضبه الذى يتكررَّ لا يضيره فى شئ لأن الوجبات كانت تصل إليه بانتظام وربما يكون بزيادة ملحوظة فى اللحم أو الطيور المذبوحة التى يحصل عليها فى حالة مشاركته لهم فى أكل الدار، يطله الأكل صابحا بصابح وكأن ونيسة بهذه الزيادة كانت تسترضيه وتصالحه لأنه - كما كان يشاع - مفجوع وهمَّه على بطنه وليس عنده مانع من أكل نصف ذكر البط وحده تاركاً لجيش العيال وبعض الأحفاد نصفه الآخر، وإذا حذرته ونيسه أو نبهته زام وبرطم:

- شالله ما عن حد كل، هو احنا ح نزغطهم يا وليه؟

لكنها كانت تفلح فى إسكاته منعاً للجرسة على رؤوس الأشهاد، عمر طويل من الاحتمال عاشته ونيسه التى تحولت بعد هذا الشقاء

إلى عجوز لا قدرة ولا حيلة والرجل وقد تخطى السبعين تتواتر عنه الحكايات الفاضحة وكأنه فى هذا العمر شهوان لم يشبع أبداً وكان يتشكى بلا خجل:

- عمرها ما ريحتنى زى الحريم ما بتريح الرجاله، حتى اللقمه كانت تستخسرها فىَّ وتدفسها لعيالها ونسوان عيالها، ربنا يحش أجلها عن قريب، يا ما نفسى أعيش لى يومين على راحتى يا ناس.. بس إمتى بس ترحل وتنزاح.؟

ولابد أن أبواب السماء كانت مفتوحة أو أن الست ونيسة عندما كان يبلغها مثل هذا الكلام كانت تتمنى الموت لروحها لكى يرتاح، ذلك أنها فى صباح أحد الأيام أرسلت للغضبان فى الغيط ليرجع بحرامه الصوف لتراه قبل أنْ تقابل وجه رب كريم فلم يتردَّد ورجع للدار بالفعل وكأنه كان يثق أنها لن تخدعه وأنها سوف تراه وتتملىَّ بطلعته فقط ثم تسلم الروح، ولا بد أنه رغم تشنيعاته ضدها كان يثق فى صدقها فى كل الحالات وقد تأكد له ولكل ناس الدرب يومها أنها لم تكذب عليه أبداً حتى النفس الأخير من عمرها، ذلك أنه عندما دخل من باب الدار سألت إن كان هو همَّام فأجابوها بالإيجاب فطلبت منهم أن ينادوا عليه ليدخل لأن صوتها لا يساعدها على النداء وقد انحاش عنها، نادوه ودخل فنظرت إليه وهمست بحروف متقطعة:

- سام.. سامحـ .. سامحنى .. سامحنى..

نظر إليها ملياً وأراحها مردِّداً:

ـ مسامحك .. هو خلاص.. ؟

ـ خلاص.

وخلصت روحها بعد أن نطقت الكلمة فانتحى هو جانباً من جوانب الدار وجلس مقرفصاً وأحنى رأسه بين ساعديه فترة لم يقترب خلالها منه أحد ولا أحد كان يدرى ان كان قد بكى أو أنه تظاهر بالبكاء أوالحزن، لعله استعاد فى تلك الدقائق القصيرة عمرها معه وقد طال، ولعله كان يدبِّر أمره وأمور داره بعد أن يحملها مع الرجال إلى المدافن لترقد هناك ويعود بعزمه الشديد يدق بالمداس على الأرض ويلتقط أنفاسه فيملأ صدره العريض بالهواء الجديد، كان همَّام يبدو صلباً متماسكاً بينما يتقبل فيها العزاء وكأنه يؤدى واجباً ثقيلاً لم يجهِّز نفسه لتأديته على النحو اللائق، حتى العبارات التى ردَّ بها على من عزَّاه لم تبد للناس مناسبة:

ـ مافاتتش من عمرها يوم .. هى كانت صغيرة ولاَّ إيه؟.. بس يا بنت الكلب منك لها بتلطموا على إيه؟.. إخرس يا بن المركوب بتهنه كده ليه؟ يرحمها ويرحمنا ربنا، ما أنا عارف إنها أم اللهو العيال.. كنت ح اشتريلها عمر تانى؟

وقال ناس لناس إنه كان بينه وبينها سباق طوال السنوات، وإنه من كل قلبه كان يتمنى لها الموت وربما كانت تتمنناه له أيضاً، ومثل هذه التخريجات ولدتها تصرفات همَّام الذى ما كف عن السعى وراء الحريم يتقصى الأخبار ويسأل عن ظروف المرأة المطلقة

والأرمل ومن بارت وفاتها قطار الزواج، عن إمكانيات كل واحدة فى الخلفة ومطالب أهل كل واحدة من العريس، ساعات يطلب لنفسه وساعات يلبس عباءة الوسيط لرجل غيره ظروفه تشبه ظروف همَّام وعمره يقترب من عمره والناس تجاريه وتحاوره وتحددٌ مطالبها وهى عارفة أن العريس هو همَّام، يراوغ مثل ثعلب مكشوف مع ثعالب وذئاب ونمور وحيَّات حتى يفوت يوم الأربعين كما نصحوه وشددُّوا عليه فى النصح، وفى اليوم الحادى والأربعين دخلت دار همَّام امرأة فى نصف طوله، نحيلة نحيلة إلى حدٍّ مذهل بينما هو مثل الثور الهائج المفرود البنيان الصلب التقاطيع، وقالوا إنها بنت ناس من واحدة من العزب الجوَّانية، وقالوا إنها من البندر، وقالوا من بلد بعيد لم يذكروا له اسماً، لكنه على كل حال أدخلها داره ودخل عليها فى سكات أشبه بزفة الأموات وعياله يتباعدون ويتباعدون عن الكلام فى موضوع الرجل ثم يثور الواحد منهم فى وجه من يحادثه إذا زاد عليه الضغط أو زادت نغمة التقريع:

- هو كفر اللَّى اتجوز؟ هو الجواز حرام؟ ح تحرموا الحلال؟ حرمت عليكم عيشتكم يا بقر جاموس.. هو حر .. حد غرم له حاجة؟..

إحنا راضيين... إيش حشركم يا كفر ندَّابين؟

ولأن أولاد عوف رغم ما يشاع عنهم من أنهم طيبون وأصلاء وذوى قلوب صافيه إلاَّ أنهم أحياناً تركبهم العفاريت لأتفه الأسباب ويتحولون إلى ناس فاقدة عقلها ووعيها إذا زاد عليهم الضغط،

لذلك كفَّ الناس عن الحديث فى أمر همَّام أو سؤال عياله وعيال عياله عن أخباره التى تداريها الحيطان، لكن الحيطان لها قدرة محدودة على الإخفاء والتغطية، وربما لأن الحياة أقوى من البنايات الصماء فقد خرجت من الدار زوجة همَّام لأول مرة وهى تحمل على كتفها طفلها المولود فى مشوار مخصوص للحكيم فى البندر وعرف الناس أن همام صار أباً للمرة السابعة، وربما لام البعض أم إبراهيم التى ولدَّت المرأة وكتمت عن كل ناس الكفر خبر ولادتها فدافعت عن نفسها:

ـ دانا لو كنت قلت لحد كان قتلنى بصحيح، أصل انتم ما شفتهوش اليومين دول.. دا بقى واحد تانى خالص.. دا لابد فى الدار زى عريس نغه عنده تمتاشر سنة بالكتير.

وصدقها الناس وقالوا لبعضهم البعض إن الكلام فى سيرته لم يعد له طعم وإنه إذا كانت كل ناس الكفر قد رفضت أن تدخل معه فى علاقة نسب أو قبل واحد من أهله أو من غير أهله فى الكفر أن يأتمنه على ابنته أو أخته فهذا معناه أن أحواله بعد موت الست أنيسة لم ترض أهل البلد، لكنه أيضاً ما دام وجد من خارج زمام الكفر من وافقت على عشرته فلن يكونوا هم مثل قطاعين الأرزاق لأن الله أدرى بعبيده ولا أحد يعرف أسرار الناس غير الخلاَّق، وما دام الرجل مرتاحاً فلماذا تتعبون أرواحكم من غير فائدة وقد حصل ما حصل وهو لا يحصل لأول مرة؟ ومن يكون همَّام وسط أولاد عوف المزواجين القدامى الذين كان الواحد منهم يحتفظ فى داره أو

دوَّاره بأربع ستات، يعاشرهن ولا يشبع فيسرح فى البنادر والموالد يتشمَّم رائحة الحريم الغرباء ويسعى فى إثرها، وينفق ببذخ وبدون حساب، وإذا ماتت واحدة من الستات سعى للزواج من غيرها بعد الأربعين، وإذا مرضت واحدة تعجَّل موتها، كان الزمن يختلف عن زمان همَّام لكن العرق دسَّاس وممتد لأبعد من سابع جد.

ولأن البيوت أسرار، ولأن ما ينتشر على ألسنة الناس هو جزء من الحقيقة وليس كل الحقيقة مهما كانت دقة الأخبار فإن الناس فى كفرنا تترك الأمر لصاحب الأمر، ربما لا تتكشف أخطر الأسرار وإن انكشفت فلفترة تنقطع بعدها السيرة ويختصرها الناس فى عبارة للتذكير بما جرى إن كان للتذكير فائدة، ولا بد أننى لم أعرف إلا أقل القليل من شئون الأزواج والزوجات فى كفرنا، لم أعرف إلا ما سمحوا لى بأن أعرفه، لكننى بالقطع عرفت أمى وأبى، وعرفت أنهما من بين كل أشكال العلاقات وألوانها كان لهما شكل مخصوص وطبع مخصوص ونهاية غير كل النهايات.

* * *

كنت وأنا فى مطالع الشباب أخاف على أمى من موت أبى، أتخيلها وقد ترمَّلت ولبست السواد وتعصبت به واستسلمت لحالة من حالات الانطفاء بالاختيار، أو تخلصت منا على أى نحو وعاشرت غيره لأنها مازالت صبية والزواج سترة وحماية من الأخطاء كما يقولون، لا أدرى كيف تسلط علىَّ الخوف من مثل هذه المواجهة التى تحدث برحيل الأب، لعلنى لم أفكر فى رحيلها

قبله لأنها كانت أصغر منه بسنوات لم تبح بعددها أبداً، ولا بد أننى عبَّرت لها عن مخاوفى بكلام غير مباشر أكثر من مرة فكانت تفهم قصدى وتطمئننى بأن أبى سوف يكون طويل العمر بإذن الله وإنه سوف يتمكن من تربيتنا وتعليمنا وتزويجنا وهو فى كامل قوته، وأنه لو بعد الشر بعد الشر تولاه الرب برحمته فإنها سوف تعيش لنا وبنا وإنه بالقطع لن يخطر على خيالها أبداً أن تفكر مجرد تفكير فى أن ترقد إلى جوار رجل غيره من بعده ثم تدعو بعد زفرة:

ـ وربنا يجعل يومى قبل يومه.

كنت أحزن من أجلها أكثر من اطمئنانى على مصداقيتها وقدرتها على الوفاء لذكراه ولنا، وربما كنت فى مثل هذه الحالات أفهم أسباب خلافاتها الدائمة مع جدتى التى هى أمها، ذلك أن أمى كانت تعتقد أن زواج جدتى الثانى بعد موت جدى لأمى كان خطأ فى خطأ، ذلك الزواج الثانى الذى أنجبت فيه خالتى العبيطة « كاف» وأن المرأة عندما تقبل مثل هذا الزواج الثانى تتحَّلل من دورها كأم، كنت أشعر أنه قد انبنى بينهما جدار صلب لا يلين أو ينزاح حتى فى أصفى الساعات التى تتفقان فيها على أى شىء وتوشكان أن تمتزجا مثل أى أم وابنتها، كان الجدار يظهر فجأة وينتصب حاجزاً قائماً وقادراً على الفصل بينهما ولن ينزاح.

لكنها فى علاقتها بأبى كانت تختلف، ربما لأنه كان يعاملها بكل الود الممكن ويشركها فى أفكاره، يودعها أسراره وفائض ماله ويسألها عن اللائق والمناسب حتى من ثيابه التى يهم بلبسها

لحضور أى مناسبة، يداعبها فى حضورنا ويرمح وراءها، يمسكها ويضمها إليه فى حنو دون أن يفلتها إلا إذا تدخلنا استجابة لإستغاثاتها الضاحكة تطلب منا مساعدتها أو الفرجة على أفعاله:

ـ يا راجل عيب عليك.. دا عيالك بقوا رجاله.

ـ وأنا باعمل حاجه غلط لا سمح الله.. بالاعب مراتى

يقول وهو يقرصها أو يجذبها نحوه ثم يفلتها متوعداً بأن يأخذ منها حقه فى أقرب وقت ممكن، كنا نضحك وتضحك هو أيضاً قبل أن ينصرف كل واحد لحاله.

لكنه فى ساعات القيلولة من كل يوم كان يختلى بها فى القاعة الجوَّانية فنتهامس بأنه دون شك يلاعبها ملاعبة أشدّ ولا تفكر فى الهرب منه أو الاستجارة بنا مثلما كانت تفعل فى المندرة أو وسط الدار، نقول إنها هى التى راحت له بنفسها أو استجابة لنداء أو إشارة منه، ننساهما وقد عشَّش الصمت على القاعة.

وفى صباح كل جمعة وكل موسم وكل عيد وكل مناسبة سعيدة وأحياناً من دون مناسبة بحساباتنا كانت هى تفتح باب القاعة فنرى فى وسطها طشت الحموم الكبير النحاس الأحمر وقد امتلأ بالماء الممتزج فيه الصابون، تفرغ الماء فى المواعين الأصغر وتحملها لترميها فى أركان الدار ووسطها البراج ، تفعل ذلك بدلع وقد أحاطت رأسها بفوطة كبيرة أو بشكير وكأنها تشهدنا على سعادة قلبها وطراوة بدنها وبياض جلدها بعد الاستحمام، بعدها تعود للقاعة وتجلس على طرف السرير من ناحية الشبّاك الصغير بينما

يتمددً هو مسنوداً على المخدَّتين بكوعه، ربما تنادينا لأى سبب فنراها وقد حلَّت شعرها المبلول وراحت تمشطه فتبرق خصلاته الغزيرة السوداء فى الأماكن التى تعبرها الفلاية العاج، وربما لا تنادينا ونسمع صوتها وهى تغنى لنفسها أو له:

أمك وأبوك ع السطوح بيفلّوا بعضيهم يا عبده

ولا والنبى يا عبده قصبك سوس يا عبده

بيع واتجوز يا عبده

تحرص بعناد على إقلاقه إذا غفل قبل صلاة الجمعة وتجبره على القيام ليضع عباءته على كتفيه ويخرج متوجهاً إلى زاوية أولاد عوف، ربما يصحبنا معه فنصلى ونعود ونراها مشغولة بإعداد وجبة الغداء تستمهله دون أن يسألها وتأسف على التأخير وكأنما فاتها تأدية فرض واجب لا يحتمل التأجيل، يركن العباءة ثم يتطوع بمساعدتها فى عمل أى شىء دون أن تطلب ولا يتردد عن مداعبتها بالقرص أو الضرب الهيِّن أو حتى بالكلام حتى تنضج الوجبة ونقوم بمساعدتها على رصِّها فوق طبلية العشاء، نأكل بشهية وانبساط لأنهما يأكلان بشهية وانبساط.

وفى ساعات الفراغ كانت تجمعنا وهو فى مشوار أو عمل وتحدثنا عنه وكيف إنه طيب طيبة نادرة وأنه من حسن حظها أن اقترنت به وخلفتنا، تتباهى بأنه لم يسىء إليها فى كل عمره الذى عاشه معها لا بضرب أو سب أو حتى لوم ثقيل مهما ارتكبت من أخطاء، كان يكتفى بسؤالها مستنكراً عليها الخطأ:

ـ كده برضه؟ أنتى تعملى كده؟

تعتذر له أو حتى تسكت لعجزها عن تبرير الخطأ فيهز رأسه ويغير الموضوع، ينسى الموضوع وتتساه، تقول إن عيبه الوحيد هو أنه لم يدخل فى أى صراع على أى شىء فى الدنيا، وأنها كانت تتمنى لوطالب أمها بميراثها الشرعى الذى ورثته عن أبيها والذى نهبته جدتى ولم تشأ أبداً أن تعترف بذلك، كنا نفعل مثله ونطالبها بأن تتسى ذلك كى تريح نفسها فتشتمنا بضحك وتتهمنا بأننا مثله أطيب مما ينبغى، نفرح بأبوينا ونتمنى أن نفعل مع زوجاتنا مثلما يفعل عندما نكبر.

لكن مسألة الموت ظلت فى عقلى مثل الهاجس المتسلط، أو فى منطقة الاحتمال الدائم، تداعبنى وتعذبنى ولا أملك المقدرة على زحزحتها بعيدا عنى حتى فى أسعد الأوقات، كانت طيوره تحوم حول أبى فى كل الحالات فأشفق فى الخيال عليها وقد ترمَّلت، وكنت أحياناً أطمئن نفسى وأقول إن المرأة أقوى من الرجل فى مواجهة الموت رغم الصوات واللطم والندب والتعديد، أقول لنفسى هذا وقد سلَّمت أمرى لله الخالق مانح الأعمار وواهب الحياة إلى قريب، يمدَّها أو ينهيها بحسب ما يشاء، يسكن قلبى بعض الوقت ويعاود الانشغال، لا أملك القدرة على الفرار من سوء الأفكار وترتسم صورته على «درابة» الغسل بينما تولول هى وتناديه فلا يرد، تطلب منه القيام فلا يستجيب.

لكن ما جرى خالف كل هواجسى وظنونى لأنها ذات نهار كانت قد حمَّرت لنا ديكاً ودست أرزاً وطبخت قلقاساً بالخضرة فتغذَّينا

وانبسطنا وكانت هى مزدهرة بينما يشاغبها على عادته وتتباعد عنه بخفة ولطف، يسألها وقد اقترب منها عن أسباب حمرة خديها الزائدة عن المألوف فترمح لتقف أمام المرآة، تطل على سطحها وتتجسسّ خديها بفرح لأنها تأكدت من زيادة احمرارهما، تبدو حبيبة عفيه فى حركتها وقد زاد نشاطها بينما ترتفع بقايا الطعام، لكنها وعلى غير توقع وقد كان هو بعيداً عنها بمسافة قالتها مرة واحدة: آه..

نظر إليها وسألها عن سر الآه فلم ترد، اقتعدت الأرض فى نفس مكانها وقد أمسكت ظهرها بكلتا يديها من منطقة الوسط أعلى الحوض، تدافعنا نحوها معه فنظرت إلينا بأسف وهمست له:

ـ دى شكة موت.

ـ انعدلى.

قالها وهو يساعدها على التمدّد فى مكانها على الأرض وأنا أضع الوسادة التى لم أعرف من أتى بها تحت رأسها، تأوهت هى عدة تأوهات وبدا لى أن عظام هيكلها كانت تتكسر مثل زجاجة مصباح رقيقة وأسمع صوتها، شهقت شهقة واحدة ثم غابت عيناها وكفت عن التنفس، يهزها ونهزها فتهتز وقد بردت أطرافها وسرحت البرودة إلى بدنها وكلنا يكذب أنها يمكن أن تتخطف منا بهذه السهولة وعلى هذا النحو المفاجىء فى لمح البصر، وكانت ما تزال ترف على ملامحها ابتسامة الأسف، بكيناها وبكاها هو قبل أن يشعر بنا الجيران والأهل، كأنما كان هذا الوقت لنا ويخصنا

وحدنا، لكنهم دخلوا الدار فانقلبت موازين الأشياء لأن الدار التى كانت تتفجر منها وفى أركانها الحياة صارت فجأة مكاناً يلتقى فيه الوسطاء بين الموتى والأحياء ممن يجهزون الأكفان ويغسِّلون الأبدان قبل تكفينها، وكانت صرخاتنا لا تصل إلى أسماعها بالقطع لأنها لو وصلتها فلا بد أنها كانت سوف ترد، انعزلت عنا تماماً وانعزلنا عنها، وكان النعش المركون جنب الجدار عند مدخل الدار علامة تؤكد أنها لن تفيق، وأن هذا الغول المركون بلا حسٍّ ولا ذمة هو الوسيط الأخير بينها وبين المدافن حيث السكون الأبدى واللا رجوع.

كان يناديها بصوته المبحوح بينما يضعون جسدها فى النعش، وعلى الرغم منه منعوه من حملها أو الذهاب إلى المدافن معنا فى رحلة الوداع، لعله بكى بكاء الضعفاء المغلوبين على أمرهم وصار يناديها ونحن نتباعد ونتباعد حتى اختفى صوته تماماً، وما عاد فى الآذان غير الاعتراف المتكرر الذى يلجأون إليه فى كل مرة يحملون فيها نعشاً فى طريقهم للمدافن ، واعتراف بإيقاع رتيب مهموم ومستسلم وباعث على اليأس من التعلق بالأوهام:

ـ الدايم هو الدايم.. ولا دايم غير الله..

وبعد طقوس الدفن وقراءة القرَّاء وتلقين التى إنسك على بدنها باب المدفن، عدنا بعسر تتقدمنا جدتى لأمى، صامدة وصلبة وقادرة على الاحتمال، رأيناه جالساً وحده ينظر إلى سقف المندرة ولا ينطق، وهمس الغباشى لجدتى:

ـ الراجل من ساعة ما سبتوه وهو على دى الحال.

أشارت إليه تطلب منه أن يسعفها بكوز ماء فاسرع وملأ الكوز ثم ناوله لجدتى، اقتربت منه بالكوز فلم يحرك بصره من حيث كان يطل لكنه أزاحه بيده ربما بشكل عفوى، وربما بشكل مقصود، لكن الماء اندلق ومال أبى برأسه جهة اليمين ثم مال بكل بدنه رغم أننا كنا حوله نسنده، ربما تكون قد فاتت ساعة أو بضع ساعة من الزمان الصعب قبل أن يسلم الروح هو الآخر وتنحط على رؤوسنا بلوتان كبيرتان في نهار واحد، ولا بد أنه كان قد تواعد معها في الخفاء على الرحيل معاً لأنه فى نفس اليوم انفتح نفس القبر للمرة الثانية ليضم بدنه إلى جوار بدنها وقد تكفّن بنفس قماش الكفن القبر وبدا وأنا واقف على قبرهما أسمع وصايا من كان يلقنه أننى كنت أسمع همساتهما الخافتة وهى تضاحكه ويضاحكها مثلما كانا يفعلان فى قيلولة كل نهار داخل القاعة الجوّانية.

وكنا فى كفر عسكر أول من تيتم مرتين فى نهار واحد، وكنت وحدى أشعر أننى خلصت من هواجسى القديمة التى تتسلط على عقلى فأسألها وأسأل نفسى عن مصيرها إذا مات وتركها أرملة، ولعلها بفعلتها جاوبتنى على خلاف ماكنت أتصور أو أظن أو يسمح بذلك خيالى.

* * *

يوم تعيين يوسف فى عمادة الكفر كان يومًا غير كل الأيام، لعلنى فى أول الأمر لم أصدق فردوس وهى تبلغنى بما سمعت، كانت

الفكرة تبدو بعيدة عن خيالى لحسابات كنت أحسبها، لكن متى انضبطت الحسابات المحسوبة على مصائر الناس فى زماننا وكفرنا الغطسان فى همه؟

كانت بينى وبين يوسف حالة جفاء وتباعد طالت عن المألوف، لكننى كنت أشعر بارتياح لأنه فى الفترة الأخيرة كان يفرض علىَّ علاقات مع ناس من كل شكل ولون، ناس أعرفهم ولا أرغب فى التعامل معهم، وناس أسمع عنهم ولا أفكر فى الاقتراب منهم، وناس لا شفتها ولا سمعت عنها، لكنه فى كل الحالات يأتينى وقد اصطحب معه نفر أو نفرين أو أكثر، أشعر بالحرج وأنا أرحب به وبهم فى أوقات راحتى أو انشغالى مع العيال وفى الدار، يطول الوقت ويوسف ينتهى من موضوع ويدخل فى موضوع، أحياناً كان يدير حواره مع معارفه الذين أتى بهم إلى دارى، ويتجاهلنى، كأننى غير موجود بالمرة أو كأننى فقط موجود لتقديم الواجب له ولضيوفه، يتحدثون عن السوق وغلو أسعار المواشى وفى الزراعة وخيبة محصول القطن ويتحدثون فى أولاد الليل والجرائم التى تحدث فى الناحية وخارج الناحية، وربما يتكلمون فى الانتخابات والوفد والأحرار، وأحياناً كنت أتناعس لعله يحس ويستأذن فلا يفعل، أترك لهم المندرة فينادينى ويطالبنى بأن أجالسه وضيوفه ويسأل إن كنت لا أطيق وجودهم فأنفى ذلك بشدة وأنا أغلى من داخلى وأكتم أنفاسى مخافة الانفجار.

لكننى فى واحدة من المرات وقد طال جدله مع الضيوف الذين جلبهم معه سألته لأوقف سيل الشتائم المتبادلة بينهم:

ـ جرى إيه يا يوسف .. هى الدار دى مش لها حرمه وساكنها ناس؟

وساد صمت ثقيل لكن يوسف لم يجاوبنى على السؤال بأكثر من نظرة حائرة ثم نظر إلى ضيوفة وأشار لهم بأن يتبعوه فتبعوه بآلية دون أن يفكر أى واحد منهم فى الاعتذار عما بدر منه، ومن بعدها كف يوسف عن المجىء لعله حسبها طرد صريح بينما كنت أحسب الموقف كله على أنه قلة ذوق وقلة أدب لا يوقفها إلاَّ إعلان الاستياء والاستنكار بتلك الطريقة التى حدثت فى أقل تقدير، لكننى ارتحت ،ارتاح أهل دارى وما عدت حتى أنشغل بأخباره التى أسمعها ولا يعنينى منها شىء سمسار مواشى وأراضى ودور ونصف مقاول وله علاقة نسب مع تجار مخدرات وقريب من بعيد شأنه شأن عشرات الأقارب من بعيد هل كان يحق له أن يشغلنى بأمره إلى هذا الحد وطوال هذا الوقت؟ لكن يوسف كان مثل النصيب الغلاَّب يطلع لى كل فترة زمن ويحوِّم بوجوده حولى، يزعجنى ويربكنى ويدهشنى ويشعرنى بالحزن ويحملنى أحزانه وربما يجعلنى أضحك وأنسى وأفكر على نحو مغاير، يفتح لى فى بعض الحالات طاقة نور وسط العتمة دون أن يشعر أو يقصد، وجوده كان بالنسبة لى مثل القضاء والقدر يصعب الفرار منه، ربما لأنه أسرع وأحمق وقليل التمييز.

أول ما خطر على خيالى وفردوس تبلغنى بتعيين يوسف أنه ليست له فى الكفر حيازة تسمح له بأن يتولى عمادة الكفر، لكننى تذكرت الشراودة وإمكانية نقل الحيازة على الورق عند الضرورة،

لكننى فكرت أن يوسف لم يشغل نفسه أبدًا أو يفاتحنى فى شغل أى منصب فى الكفر، لا عمادة ولا مشيخة بلد ولا حتى أن يلبس على رأسه «تكلت» خفير، فهل شاف ليلة القدر وطلبها فاستجابت السماء لطلبه؟ ومادامت عمادة الكفر وصلت ليوسف فكيف لم أفكر أنا ولو مجرد تفكير فى أن أتولاها، وجاوبت نفسى بأننى لم أفكر لأننى لا أصلح، كانت ملامح العمدة العوف الذى مات منذ فترة تتراءى لى مثل غريق يتشبث قبل أن يغطس فى القاع بأعواد الحلفا المزروعة شيطانى على منحدر السطح، قلت لروحى إن الناس العوف راح زمانهم، وأن بساط القدرة انسحب من تحت أقدامهم وهم فى غفلة، ربما يا ولد لأنهم مثلك لايفهمون فى السياسة التى كنت قد قرأت عنها عبارة فى أحد الكتب الدراسية فأصابك فزع ورحت تسأل أستاذك متصورًا أنها مكتوبة بشكل خاطىء، لكنه أكد لك وبايقاعات صوتية تزيدها تأكيدا .. «السياسة هى فن الكذب المحبوك بمعنى من المعانى «من يومها خفت أنت من السياسة وخفت أكثر من الساسة الكذابين لأنك كنت تعشق الصدق المستحيل ولاتعثر عليه خالصًا أبدًا، ولأنك أيضًا لم تكتشف العلاقة بين الكذب والقوة فظللت فى مدارك القديم تدور مثل فحل جاموس منذور للذبح لكنه لايكف عن ترديد نفس الكلام القديم عن ارتباط القوة بالصدق، وارتباط الكذب بضعف النفوس».

على هذا النحو فكرت وقلت لروحى بعض ما كان يلزم أن أقول لبعض الناس وأنا أشهد الزفة التى أوقفوها بقصد على باب دارى،

طبل وصاجات وثلاث غوازى ولمَّة سامر يديره رجال من الناس الشراودة حاملين السلاح بأياديهم وعلى أكتافهم ويوسف بالجلباب الكشمير الزهرى والعباءة السوداء يركب كارتة رأفت الشارد التى يجرها حصان واقف بقلق يحرك سيقانه فى نفس المكان، كانت زفة لاخطرت على خيال ولاحصل لها مثيل فى شارعنا وكفرنا كله، كأنما كان وجودهم فى مواجهة باب دارى إعلان مقصود به اختبارى واكتشاف مرونة تصرفاتى، وهل يمكن أن أخرج لأبارك وأسلم، أو أبقى مثل حيوان القوقعة الداخل فى جلده والمحمى بجدران بيته وسكنه، كانت الأعيرة النارية تنطلق من البنادق والرشاشات بكثرة وفى اتجاه عين الشمس ذاتها، وسماء كفرنا اتِّساع وبراح لايحدُّه حد، اتِّساع يتبدَّد فيه الرصاص ويصعب تحديد مصادره، تنطفىء فيه النيران مهما كانت ساخنة وملتهبة، ومنه تتساقط الأمطار على سطوح البيوت والغيطان، ومنه أيضًا تهب العواصف والرياح، والناصح الواعى هو الذى يميل فى اتجاه الريح حتى لاينكسر عوده إن كان عوده نحيلا مثل عودى وقلبه خفيف.

لكن النفس أمَّارة بالسوء، منعت نفسى من المشاركة فى الزفة، لا تعاطفًا مع أولاد عوف ولا كراهية لأولاد شلبى، المسألة كانت أكبر، كانت شراودة، صحيح أن الميزان القديم كان قد تبدَّل، وأن الأثقال خفَّت فى ناحية وثقلت فى الناحية الأخرى لكن ليس إلى الحد الذى يجعل يوسف عمدة إلاَّ إذا انحطت كف فوق كفة الشلبى لتعمل لها ثقلا زائفًا، هو نوع من الغش على أى حال، لكن

هل كان يفيدنى بشكل شخصى أن يركب الناس الشلبى حمار الكفر فترة بعد أن ركبه الناس العوف زمنًا طال لأبعد من عمر جد جدِّى؟ وإذا كانت الدنيا تدور حول محورها وحول الشمس فلابد أن تتبدَّل فى كفرنا الأشياء وتتغيَّر مواقيت الصلاة وقبلة المصلين من مكان لمكان ومن زمن لزمن.

كانت جنازة نقل التليفون الميرى من دار المرحوم حسنين عوف بواسطة عساكر البندر ومندوب مصلحة التليفونات وهؤلاء الأفندية الغرباء الذين رأيناهم يدخلون الكفر دخول الفاتحين، ويخرجون منه خروج الآسفين على تنفيذ الأمر الصادر لهم من فوق، يخرجون وكأنهم كانوا فى عزاء رسمى لأهل ميت غريب عنهم لكن ناسه كانت تستحق العطف والإشفاق، لكن التليفون تم نقله والسلاحليك تم نقله وكافة مستلزمات العمدة من أوراق وعهد تم نقلها فى وضح النهار وبقوة السلاح، والناس العوف ينظرون للناس ولأنفسهم نظرات شاردة مكذبة، لعل البعض منهم كان يلوم البعض الآخر على الغفلة التى طال مداها والغيبوبة التى لابد أن تصيبهم وقد صاروا مثل الغائب الحاضر أو الذاكرة المطوية فى صفحة كفرنا لحساب يوسف والناس الشلبى.

قالت فرحانة التى ضعف بصرها وما استطاعت عمادة يوسف للكفر أن تقويه، بينما تتحسَّس رأسى بحنو ذكَّرنى بأمى:

ـ أخوك يوسف يا خويا خد العموديه من حبة عين عدوينه، والكل راح وبارك له.. مستنى إيه؟ أدينى جيتلك بنفسى أهه؟

وعدتها بالذهاب وبتثاقل وبعد تردُّد طال مداه ذهبت فتلقّانى بحفاوة عند باب داره التى صارت دوّاره، أخذنى فى حضنه واقتادنى إلى مندرته الواسعة، أجلسنى إلى جواره وحكى لى مشوار الطلوع وما صادفه من مصاعب وعقبات، وقال لى أسماء الخصوم والأنصار، وبدا لى أنى كنت فى ذلك النهار مثل أبى جاهزًا للصلح دائمًا وقادرًا على السماح، كان يوسف قد تبدَّل، تبدَّلت نبرات صوته وتبدَّلت بعض تقاطيعه وغطتها هيبة الحاكمين، شعرت أننى صرت جليسه أو سوف أكون جليسه بعد أن كان جليسى.

كان من المألوف فى تلك الفترة أن تزيد زيارات الناس الشراودة لكفرنا، يأتون فى كل المناسبات بدعوى تأدية الواجب لإبنتهم «أصيلة» لأنهم أصحاب واجب، ولعلنى اكتشفت كما اكتشف ناس كفرنا أن المناسبات أكثر بكثير من حساباتنا عن المناسبات التى اختصرناها نحن فى الأعياد والمواسم الشائعة والموالد ومطالع الشهور، بينما أكتشف الشراودة مناسبات أخرى كانت خافية علينا أو معروفة ومنسية، لكن الناس كانت تقول للناس أن المسألة ليست مناسبات يلزم على أهل العروس أن يؤدوا فيها الواجب لأبنتهم كما يقولون، وإنما لأنه صارت لهم فى كفرنا مصالح أكثر من المصالح التى كانت لهم بعد زواج البنت وقد كبرت خلفتها وصار عيالها أطول من يوسف نفسه، وربما كان من بين الأسباب فى زيادة تواجدهم هو خوف يوسف من الناس العوف وخوفهم على عيال «أصيلة» وزوج «أصيلة» ومصالحهم الجديدة التى تتزايد وتتكشَّف وكأنهم اكتشفوا كفرنا من أول وجديد.

لكن فرحة يوسف بنفسه وفرحة الناس الشلبى بانتقال عمادة الكفر لواحد منهم لم تدم أكثر من بضعة شهور اشتعلت بعدها فى الفكر نار لا يعرف أى واحد من سكانه مصدرها ولا من ينفخ فيها لتزداد اشتعالا، وبدا لبعض العقلاء أن العراك والقتل المتبادل فى دروب الكفر كانت له أغراض مخفية وأن العائلات التى كانت تحسب نفسها على الحياد دخلت ساحة الصراع وبسرعة على نحو يوحى بأن الأمر يحدث بفعل فاعل أو مجموعة فعلة، وزادت فى الكفر مساحات الشكوك والشكوك المضادة وأصبح من العسير تصنيف الناس فى خانات الأنصار أو المعادين بشكل مؤكد، اختلطت الصفات وتداخلت الألوان وصار الغدر بطولة والنميمة وفاء والسلب والنهب شطارة والتباعد عن المشاكل جبن والدخول فيها طمع فى جنى الثمار، تاهت الحدود والأصول وما عاد الصغير يسمع صوت الكبار ولا الجهلاء يصدقون أقوال العارفين، اختلط الأمر وتداخل السواد مع البياض والحق مع الباطل والوفاء مع الغدر والإيمان بالكفر .

لكن الحكومة لاتخفى عليها خافية، دست رجالها فى الدروب واستخدمت مرشدينها وأعوانها وخلصت إلى قرار بضرورة عزل يوسف وتعيين الصول عرفان مسئولاً عن أمن الكفر ومقيمًا فى النقطة الثابتة يعاون مجموعة من المجندين والعساكر، وفرح فى الكفر ناس وحزنت قلوب ناس، وقال ناس لناس إن الأمر جرى على هذا النحو بفعل أنصار «العوف» من «الدكارنة»، أو بفعل أنصار الشلبى من الشراودة، أو بفعل الحكومة ذاتها لتتخلص من يوسف

الذى اكتشفت أنه أعجز من أن يدير شئون كفر، وأنه لبس ثوبًا واسعًا لايليق به ولا يستطيع رغم سمنته البادية أن يملأه أو يليق به، وقال ناس إن الانتخابات التى أعلنوا عن تزوير نتائجها كانت وراء هذه الأحداث، فرد عليهم ناس بأنه لم تحدث هذه الأحداث فى غير كفرنا التابع، والذى لم يكن له فى هذه الانتخابات دورًا يذكر أو تأثيرات لها نتائج محسوسة وأنه فى واقع الأمر كفر معزول وغير محسوب حسابه، وقالوا كلامًا جديدًا عن الناس الشلبى والناس الشراودة، لكنه كان مجرد كلام وإشاعات مؤداها أن الفساد سيطر، وأن تجار الصنف زاد نشاطهم، وأن الأخلاق انهارت والذمم فى السوق أصابها الخراب، لكل هذه الأسباب ولغيرها من الأسباب التى تاهت من الذاكرة عزلوا يوسف فدار حول نفسه مثل مفراك يفرك فى ماعون فارغ فى اتجاه اليمين واتجاه اليسار ومن فوق لتحت دون جدوى، ثم يدور حولى ويشغل وقتى وعقلى بحثا عن جواب السؤال الذى لا أملك رده، لماذا عزلوه بهذه السرعة؟

* * *

كانت أم يوسف تنادى جدتى لأمى بـ «يا خالتى»، صحيح أنها لم تكن خالتها تمامًا لكنها كانت فى حكم الخالة، بالتقريب كانت بنت بنت العم أو بنت بنت الخال، أمثال هذه العلاقات القديمة لم تكن واضحة فى خيالى، هى شبكة من علاقات متداخلة وشائعة، كانت هى تأتى إلى دار جدتى لأمى وإلى دارنا، بينها وبين أمى ودٌّ شديد أو قطيعة كاملة، وكانت أيام القطيعة أطول بسبب عصبيتها

وعصبية أمى، لكن جدتى كانت أكثر حكمة وقدرة على تهدئة النفوس الغضبانة، وبشكل دائم كانت تدافع عن أم يوسف:

- دى بنت الغالى اسمها بس فرحانة وهى حزينة، ما صحيتلوش ياضنايا، مات قبل أمها ما تولدها، وأمها سمتها فرحانه، ومن يومها الحزن ماسابهاش، عينها راحت يا ولداه وقسمتها حدفتها فى أيدين حلاق الحمير، ماخلاش وراها ولاقدامها، فرحانه كانت وارثه فدانين من أبوها المرحوم هارون بس كله راح.

وعندما كانت تجادلها أمى بخصوص اهتمامها الزائد بفرحانة ومعاش دار فرحانة كانت جدتى تغضب وتقول إنه من الضرورى أن تصب الترعة الملآنة مياهها فى القناة الصغيرة الخالية لتستمر الأرض فى طرح الثمار، وإنه لا أحد يدرى متى يخلق الله بقدرته من ظهر الفاسد عالمًا ومتى يخلق من ظهر العالم فاسدًا، تسكت أمى قبل أن تمصمص شفتيها يأسًا من إقناعها، وربما تقول لها عبارتها الغاضبة:

- ح تفضلى مضيَّعة شقاكى وتعب رجليكى ع اللِّى ما يستاهلوش.

كانت جدتى عدلات رغم كبر سنها تتاجر فى خير الكفر، تجمع الزبد والجبن والبيض وكافة أنواع الطيور والأرانب من الأهالى وتدفع من مالها الثمن ثم تحملّ على عربة سعد تلك البضاعة إلى البندر، تسلِّمها للتاجرة الكبيرة فى البندر أو تفرشها فى سوق الخميس، تبيع وتحسب الربح فتفرح، وربما تشترى بعض المطالب

لدارها أو دور عيالها ولاتنسى أم يوسف فرحانة، بل إنها كانت تتكفَّل بكسوة فرحانة وأطفالها فى الأيام التى تسبق المواسم والأعياد، وكانت لاتبخل عليها برطل اللحم أو الفاكهة والخضر البشائر وحلوى المناسبات، ولابد أنها كانت تدخل دارنا أولاً لتعطى أمى نصيبها ثم صارت تذهب إلى دار فرحانة لتتحاشى عراكها فى كل مرة مع أمى التى تستكثر نصيب فرحانة فتتهمها جدتى:

ـ عينيكى فارغة وبغلّ

ـ اللِّى ما حد جاب لنا حاجه..

ـ ح يجيبوا لك إيه ياطفسة؟ جوزك له شغلتين، مستوظف وخطَّاط وعينه مليانة، أنا عارفة أنتى طالعه جلده لمين؟

ـ لكى يا أمه.. دى مستخيباكى

ـ أخرسى ينقطع لسانك..

وكانت أمى تشتعل بالغضب وتثور وربما ترمى ما أخذته من جدتى فى المشنة لينضاف إلى نصيب «فرحانة» المحجوز فلا تعيده جدتى إلينا، تحمل مشنتها وتكيد أمى بنفس العبارة المحفوظة:

ـ ح تزول من وشك.. النعمه اللِّى بترميها ح تزول من وشك.

وعندما تخرج تبرطم أمى بكلام لانفهمه، وربما لو حضر أبى يحاول تهدئتها ولا تهدأ:

ـ الوليه زى اللى كانت مخلِّفاهم وناسياهم، خللِّى حلاق الحمير يتمتع على قفانا.

ـ يا ستى هى حره ف مالها.. أنتى ناقصك حاجه؟

ولابد أن جدتى عاندت أمى بذهابها بعد ذلك أولاً فى كل مشوار رجوع من السوق إلى دار فرحانة أم يوسف، تعطيها مالاً نعرف من خيرات البندر، وربما تساعدها بالمال بحسب ما كانت تؤكد أمى، ولابد أن قدرا من عدم الرضا عن أفعال جدتى كان يتنامى بداخلى، وأنه بدا لى فى بعض الأحيان أن كل ما كان يلبسه يوسف وأم يوسف وأبو يوسف وأخوة يوسف هو من ثمرة سعى جدتى، كنت أغتاظ منه إذا لبس ثوبًا جديدًا ولو بمناسبة العيد لأنه من مال جدتى التى قاطعتنا زمنًا وحوطّت على دار فرحانة.

كنت أذهب إلى دار جدتى فتلقانى بترحاب وفرح، تعطينى قرشًا أو تمنحمى برتقالة أو موزة أو أى شىء حلو ليس له فى غيطان أو دكاكين الكفر نظير، أفرح ولا تزول فرحتى إلاَّ إذا جاء يوسف بعدى ومنحته مثلما منحتنى وربما أكثر، وأحيانًا كنت أجده هناك فى دارها قبل أن أدخل، يأكل أو يلعب أويخبىء فى سيالة جلبابه شيئًا قبل أن يفر، وعندما كنت أعود إلى الدار وتسألنى أمى عما فعلت أو شفت فى دار جدتى كنت لا أبوح لها بشىء، تقررّنى فلا أقر، ربما كى لاتغضب وهى السريعة الغضب، لكنها كانت تغضب منى لأننى أدراى عنها ولا أريح قلبها بمعرفة ما يدور هناك بحسب ما كانت تتشكى لنفسها بصوت مسموع وتلعن العيال وخلفة العيال.

* * *

كنت أنا ذاكرة العمر العريان، يرانى ويكتم فى قلبه النوايا الغادرة، وكنت خصمه ونقيضه ومالك ما لم يملكه أبدًا، كنت أملك

حريتى وكان هو قد دخل باختياره فى زمرة الأقوياء محميًا بهم ومسنودًا على أكتافهم وشواربهم وقدراتهم على التخويف، كانت كل الناحية تعرف أن زواجه من بنت «الشراودة» بداية سكة يمشيها ولا يحق له التراجع أو إبطاء الخطوات، كانت البنت قد فاتها زمن الزواج المحسوب، ولم يكن ذلك بسبب دمامتها النسبية أو نحولها المفرط أو طبعها الشرس مع الأهالى والأنفار والأتباع فقط، ولكن أيضًا لأن الخوف من رأفت كبير «الشراودة» وآمرهم وشيخ منسرهم والذى تصادف أن جاءت كل خلفته من الصبيان الذين صاروا رجالاً يستبيحون أهل الكفر الجوَّانى ويزوِّدون الرعب فى قلوب ناسه، وكانت «أصيلة» هى بنته الوحيدة، ولا بد أنها كانت تريد فارسًا قادرًا على أن يمسك لجامها، لكن أى فارس هذا من بين كل فرسان الناحية يرضى بالدخول باختياره فى غابة الشراودة؟ ولهم فى كل شهر بلوة تنحط على دماغ القريب قبل البعيد؟ ناس استباحت كل شىء فى العبِّ الجوَّانى، قطعت الطريق وخلَّعت الزرع وسمَّمت المواشى واختطفت الأطفال والنساء لتحصل على الديَّة، كان النفر منهم بحسب ما سمعنا يطلب الفدية قبل اختطاف المرأة أو الطفل فإذا تأخرت عن الموعد المحدد خطفوها أوخطفوه، يمارسون كل الخطايا مع المخطوف أو المخطوفة ويحصلون على الفدية وربما على أضعافها، كبيرهم قبل رأفت كان من أكابر الناحية وحاصل على رتبة البك رسمى من جلالة الملك، وعضو فى المجلس النيابى وله أولاد رتب ف الجيش المصرى وحرس الملك والبوليس، أرضه كانت تتَّسع بشكل دائم على حساب الناس

فى الكفـر الجـوّانى، وكـانـت له فى كل مـصلحـة مـعـارف، ومن بين رجاله طلع رأفت، نفذ أوامر البك كبير الشـراودة ولم ينس نفسـه، وسَّع ملكيـتـه وزرع الـرعب فى العبِّ الجـوّانـى كله من اسم رأفت الشـارد، سـاعـده رجال البك حتى صـارت له هيبـة وعـزوة ورهـبة، وعندما مـات البك الكبـيـر كـان رأفت الشـارد قـد أصـبح كـبـيـر الشراودة.

أشاع النـاس فى كفرنا أن النـاس الشلبى لهم علاقـة قرابة أكيدة مع الشراودة، وأنهم جـميعًا أولاد أم واحدة كان السلطان يناديها من بين حـريمـه وجواريه باسم «الغزالة الشـاردة»، ويؤكدون أنهـا كانت فاتنة تفتن العابد، واستدلوا على تلك القرابة بجمال النساء الشلبى والرجـال الشلبى ذوى العـيـون الملونة بالأخـضـر والأزرق، طبـعًـا كل شىء فى كفرنا وناحيتنا جائز، جـائز يكون لمثل هذا الكلام ظلاً من الحـقـيقـة، وجـائز تكون المسـألة كـذبة مـحـبوكـة الصنع، ولأنه فى ناحـيتنا تطلع للكذبة رجلين ممدودتين تجـوس بهمـا فى الليل بين الدروب وتسـرح بالـنهـار فى السكك فإننى لا أنكر ولا أصدق وليس لى فى المسألة رأى قاطع، صحيح أن العرق دسّاس وأن جدتى لأمى تنتمى للناس الشلبى وقد كانت لها عينان زرقاوان تتشابهان مع عين فـرحـانة أم يوسف وعينا فطوم، لكن النسـاء فـى كل الناحـيـة شـبكة مـتـشـابكة ومن العـسـيـر على أمـثـالـى أن يفـصل الخـيـوط ويتـتـبع المسارات الأكيـدة ويصل إلى منطقـة اليقين، لكن المؤكـد أن يوسـف ابن حـلاق الحـمـير الشلبى طلب أصـيلة بنت رأفت الشـارد وهو فى أوج قوته وتمام اكتماله، وأن الشـراودة جهزوها أحسن جهاز وزفوها

زفّة لا كانت ولا حصلت من مدخل الكفر الجوانى لغاية مدخل كفر عسكر، ويومها سلموها للرجال الشلبى وعلى رأسهم المرسى والسعيد ويوسف، لكنه منذ تلك الساعة العصرية برزت شوكة يوسف وطلعت له مخالب وصار يتكلم عن أهل أصيلة وأفعالهم وسلاحهم وعزوتهم ومعارفهم، ولا أدرى إن كان يدارى فى قلبه حسرة الرقاد فى حضن امرأة مسلولة رغم الثراء، سليطة اللسان باعترافه إلى حدٍّ يصل لإهانته أمام الخدامين والأنفار.

كان يشتكى لى من المأزق الذى انزنق فيه وليس له منه مهرب أو سكة فرار، وكنت أواسيه بالكلام اللائق وأذكره بأصلها وعزوتها وميراثها فيتبدّل حاله ويتنامى إلى حد الوصول إلى حالة من الزهو المصنوع أمامى لأنه حصل على «أصيلة» ذات العينين الزرقاوين، أسكت أنا فلا يكف عن الثرثرة المعادة على نفس الوتيرة السابقة قبل لحظة التشكى من المأزق الذى انزنق فيه، يوشك أن يخوّفنى رغم صلة القرابة التى تجمعنا فأقول لنفسى إنه ما دام قد وصل إلى هذا الحد فلابد أنه مع الغرباء يتغطرس ويتعالى ويبتز إلى درجة لاتطاق.

لابد أننى كنت أمشى على الصراط فى معاملتى مع يوسف، لا أعاديه ولا أسعى نحوه بحماس، كنت أترك له اللهفة والأشواق بيديها ويلومنى على التباعد فأؤكد له أننى مشغول فى شغلى وزراعة أرضى، كان فى بعض الأحيان يسخر من راتبى ويدعونى لأن أترك الوظيفة، يقترح علىَّ الشغل فى التجارة فأوضِّح له إننى لا

أصلح للتجارة، بينى وبين نفسى كنت أغتاظ من جرأته التى تتزايد إلى حد أن يسمح لنفسه بتخطيط مستقبل حياتى، ناسيًا فشله فى الحصول على الابتدائية فى نفس السنة التى أنهيت فيها أنا وصلاح ابن النعناعية شهادة التوجيهى وقد كنا فى فصل واحد، أتصابر وأمنع نفسى من الدخول معه فى مواجهة، ولأنه كان يتمادى فى نفس الاتجاه حاسبًا أننى لم أكن فى يوم من الأيام مستعدًا للعراك معه أو مع أحد رجاله، لكن المسألة لم تكن خوفًا بأى معيار، المسألة مسألة أخلاق، وإذا كنت - وأنت إنسان - عارفًا أهمية كونك إنسان وقد دخلت فى قفص القرود والنسانيس فهل تفقد إنسانيتك وتتحول إلى قرد أو نسناس؟ طيب مفرض أنك وأنت إنسان دخلت قفص الذئاب، هل تطلق مخالبك وأنيابك وتصير مثل الذئاب ذئبًا؟ أم أنه من الأفضل أن تبحث عن مفتاح القفص، تفتح بابه وتخرج بسلام؟ فلتكن الذئاب فى قفصها وأنت فى الخارج ترقبها بأمان، وما دام من الممكن أن تخرج فاخرج وعيش كما أنت إنسان.

كأنه قد إنكتب علينا أن نعايش كل وحوش الفلا من كل جنس، يفترسون أكبادنا ونتباعد لتستمر الحياة، يقطعون علينا الطرقات وننغرس فى وحل الغيطان لنتحاشى الالتقاء معهم على نفس الطريق، ربما لو مررنا ورمينا عليهم السلام نحصل على حق المرور وأوسمة الفرسان، تماما مثل الحكايات القديمة التى كانت تحدثنا بها الجدات وأمنا الغولة تقول «لولا سلامك سبق كلامك كنت أكلت لحمك قبل عظامك» هذه الحكايات وأمثالها تنفع مع الشاطر حسن وست الحسن والجمال، لكننا نعيش فى زمن مختلف، المغامرة غير

المحسوبة تعنى الموت، ولقد يقول البعض أن فى كلامى خوفا أوجبنًا عن المواجهة، لكننى أعترض بشدة، أولاً لأننى جاهز للموت ولكِن بجسارة، أكره أن أموت بلا ثمن مثل العشرات الذين كانوا يتساقطون على مرأى ومسمع من كل ناس الكفر وقد غرقوا فى بحور الدم ولفظوا أنفاسهم وهم يرفرفون مثل أفراخ الحمام أو اليمام المذبوح وعلى غير الشريعة الإسلامية، كان أى حلوف من حملة البنادق أو الرشاشات يستطيع أن يصوِّب الرصاصة إلى أى قلب، وهل للشراودة قلوب تحس وتتوجّع، وهل شعر أى بغل منهم بلوعة الأم التى فقدت رجلها أو ابنها الشاب أو كرامتها أو عفة بنتها؟ الشراودة ناس من صنف مختلف، الشراودة ذئاب تلبس جلابيب البشر، هل سمع أحدكم عن رجل انخطف ابنه وطلب منه الخطافون ديّه فى صباح اليوم التالى فسعى فى كل أركان الناحية يبيع ويرهن ويقترض حتى أوفى قيمة الديَّة فى انتظار الصباح ليقدمها إلى مندوب الخطّافين، وعندما طلع الصبح وفتح باب داره وجد رأس ابنه الشاب المفصولة تتدحرج داخلة من عتبة الباب؟ وماذا كان بيده أن يفعل، حمل الرأس وراح إلى المركز وأتّهم واستشهد بمن شهد وجاءوا بالمتهمين والشهود فأنكروا جميعًا واتهموا الرجل بأنه قتل الولد وأخفى جثته وجاء يرمى بلواه على الشرفاء الأبرياء ويستشهد بمن أصابهم العمى والصمم والخرس، لقد حدث مثل هذا وأكثر فى كفر عسكر.

كانت فى دربنا امرأة عاقر تسعى فى كل اتجاه، راحت لدكاترة ومشعوذين ونصابين ودجالين وسحرة وسماسرة ومشايخ طرق،

صرفت دم قلبها وقلب زوجها وابن عمها لتسمع البشارة بطفل أوطفلة تحملها فى بطنها وتطفىء يوم مولده أشواق عمرها كله، دارت على عيادات الدكاترة فى البندر وكافة المدن القريبة والبعيدة، وكانت تقسم للكل بأنها قادرة على الخلفة وأن رجلها قادر هو أيضًا على الخلفة لكن الحظ يعاند، أشاروا عليها بزيارة الأضرحة مهما تباعدت المسافات، أشاروا عليها بالجوء إلى السحرة والمشعوذين فلم تتردَّد طالبوها بزيارة المصطفى فزارت ودهنت واجهة دارها بالجير الأبيض ورسمت على الناحيتين صورة المحمل وجمل «التختروان» وانكتب على الرسم عبارات المباركة بالحج المبرور والذنب المغفور، حصلت على الأحجبة المكتوبة واستدعت الدراويش لدارها يذكرون ويقرأون بينما تغطى رأسها وبدنها بالأبيض الخالص، كانت سيرة الحاجة «زينة البنات» على كل لسان، تنفق ببذخ وتطعم المساكين والمحتاجين فكافأها الخالق الوهَّاب بنطفة جنين، كبرت بطنها وزاد كرمها، لكن بغلاً من رجال الشراودة أرسل إليها مندوبه الكفيف حافظ آيات الذكر الحكيم والأحاديث المسندة يطلب منها ديَّة المولود قبل أن يولد، كانت الديَّة أضعاف أضعاف ما تمتلك ويمتلك رجلها وابن عمها وناسها، ولو كان فى استطاعتهم تلبية المطلوب ما تأخروا، ولو كان اللجوء إلى المركز بغرض الشكوى يفيد ما سكتت، هل كان الخوف وشدة الارتباك والعجز وراء نزول الدم عليها قبل الميلاد؟ أم أنه كان حملاً كاذبًا عاشت تتوهمه على امتداد ستة أشهر متتابعة؟ لكنها بحسب ما شاع أسقطت حملها الميت ففاحت رائحتة تزكم الأنوف فى كل دربهم، بعدها فقدت

الحاجة «زينة البنات» وعيها واستكانة روحها وصارت تسرح فى دروب الكفر، تهاتى بكلام غير موزون أو مفهوم عن الظلم والخصوبة وسلامة الأعضاء، تعرى نصفها التحتانى وتضرب بيدها على لحمها الأبيض فى الأماكن الحساسة فيدير الرجال رؤوسهم ويغضوّن الأبصار، وتتهامس النسوة عن «الطوفة» التى أصابت «زينة البنات» وعن المكتوب وقد سلَّط الخالق أبدانًا على أبدان فعرّتها وفضحتها وقد كانت مستورة على امتداد السنوات.

وبعد أن كان رجال كفرنا يسخرون من بلادة رجال الكفر الجوّانى وسكوتهم على الشر المتسلّط على أرواحهم ونفوسهم والكاسر لأنوفهم والكاتم على قلوبهم بحيث يرون ويسمعون ولا ينطقون، صاروا هم أيضا أهدافًا محتملة لمصائب يدبّرها الناس الشراودة بمعاونة الناس الشلبى أو يدبّرها الناس الشلبى بمعاونة الناس الشراودة ويسكت الناس العوف، كأنما تواطئوا بالسكوت أو رضوا بابتعاد الشر المباشر عن دربهم وناسهم، وربما أغراهم ما كان يتبدَّى لهم أحيانًا من أمارات الاحترام الزائف عندما كان رجال الشراودة يتعاملون مع أكابر الناس العوف، ولابد أن أتفاقًا أو مجموعة من الاتفاقات قد أبرمت بين العوف والشلبى وأحفاد «الغزالة الشاردة» جارية أفندينا القديم، اتفاقات بالسكوت الممدود على الشر ما دام قد ابتعد عن باب الدار ولا يهم بعد ذلك إذا طال الضرر بسطاء الناس فى كفرنا مثلما طال رجال الكفر الجوّانى وحريمه والأجيال الطالعة محنية الرؤوس لا ترى أبعد من محيط حركات أقدمها على الأرض، أيامها همست فى بعض الآذان بما

سوف يجرى عندما تتوازن الكفتان أو ترجح الكفة الشلبى على الكفة العوف وساعتها ينقضّون عليهم ويفتكون بالرجال ذوى الشوارب المبرومة الفارغة الطول فارغة العقول، بستبيحونهم ويتقافزون ويتفرعنون على نسل الفراعين.

* * *

وكانت لأمى أخت لأم كنت أناديها «كاف» دون أن أسبق «الكاف» بلفظ الخالة، وربما كان ذلك بسبب أنها كانت عبيطة أو لأنها كانت تضربنى وأكرهها، ولخالتى «كاف» العبيطة حكايات وروايات لها علاقة بحكايات السيرة، سيرة عمدتنا الشلبى، لكنه يلزم أولاً أن أصف لكم بداية علاقتى معها ، سيقول البعض إننى لم أكن فى المكان وقتها لكننى كنت فيه والعكس أيضا صحيح لأننى لم أكن فى المكان بعد، وأحسبكم عرفتم بفراستكم التى لا شك فيها أننى كنت وقتها مازلت جنيناً فى بطن أمى ساعة الاستعداد للولادة، ولابد أن أمى كانت راقدة نصف رقدة وقد ثنت ركبتيها تنفيذا لأوامر «أم إبراهيم» الداية، تكتم أنفاسها وتدفعها لتحت ثم تكتم أنفاسها وتعاود دفعها لتحت، ولابد أننى كنت أتزحزح أو أتمرجح بفعل هذه الأنفاس المكتومة قبل اندفاعها لتحت، أكذب عليكم لو قلت أننى شعرت بهذه الزحزحة، وأكذب أيضًا إذا قلت إننى لم أشعر أو أحس، لقد كنت بين بين، أتهزهز وأتمرجح استعدادًا للنزول فى المكان المعد لنزولى، ولا بد أنه من كثرة ترددى على نفس المكان بعد أن وعيت لنفسى ومن كثرة ما سمعت من حكايات وحكايات حول

لحظة نزولى وما جرى لى فيها تخيَّلت كل شىء، تخيَّلت نفس القاعة المعتمة التى مازالت فى مكانها فى خلفية الدار، مهملة وأرضيتها الرطبة غير مستوية، فيها ارتفاعات وانخفاضات لم يتطوع أحد أبدًا بتسويتها ولها باب سميك وعريض ومفتوح نصف فتحة، ولابد أنه كان وقتها ثابت فى نفس مكانه لأنه مسنود من الأمام والخلف برماد الفرن والتراب والتبن المتناثر ومئات الأشياء الدقيقة والظاهرة التى انعجنت أو أوشكت أن تنعجن فى «بحراية» القاعة التى هى أوطى من أرضيتها غير المستوية، فى معجونها ريش طيور من أحجام كبيرة وصغيرة وحصى طوب أحمر وقطع فخار وجذور مكسَّرة لحطب قطن وذرة وفول وعيدان برسيم ورماد خشن وجاف ومبلول ونوى بلح تمر وحيِّانى وقطع زجاج صغيرة متناثرة تلمع وخرق قماش قديم كان يستخدم فى كل الاستخدامات ابتداءً من قمصان أوجلابيب إو حتى ألبسة داخلية إلى كونها مزق مستخدمة فى تنظيف بلاطة الفرن أو ربط جناح بطة، ولا بد أن بعض هذه الأشياء وغيرها كان فى نفس المكان أو أن أشياء تماثلها كانت فى نفس المكان، وقد تكونت على شكل تل صغير يخترقه مجرى مستقيم يسكنه بالكاد القائم السفلى العريض لباب القاعة الذى انكسرت مفصلاته بفعل الصدأ وانعدام الاستخدام الذى طال وطال وطال منذ ما قبل يوم مولدى بسنوات وحتى هذه اللحظات التى أخط لكم فيها هذه الجزيئات من سيرتى ضمن ما قررت أن أبوح به مكتوبًا من سيرة العمدة الشلبى ومسيرته.

نرجع لخالتى العبيطة «كاف» التى قالوا وأكدوا وكرروا مرارًا حتى أيقنت أنها كانت تقف مسنودة إلى ذلك الباب المسنود على أرضية «البحراية» أو المجرى الغويط منها الذى جعل الباب مسنودًا وثابتًا رغم فساد مفصلاته، كانت «كاف» لاتريد أن تستجيب لأوامر أم إبراهيم اللَّينة بأن تنزاح من مكانها بالخروج أو الدخول لتمسح لنور ربنا بدخول القاعة المعتمة، ولا بد أن البنت رغم العبط قد أدركت أن مثل هذه الأوامر اللينة تقال فى مثل هذه الساعات لإزجاء الوقت أو تتويه اهتمام الست الوالدة عن مواجع الولادة، بقيت «كاف» مزروعة فى أرضية البحراية تطل على أمى التى كانت تكتم الأنفاس وتدفعها تنفيذًا لوصايا أم إبراهيم وانتظارًا لفرج الله القريب الذى يظهر فى صورة مجموعة من الطلقات الهوائية المصاحبة لتقلصات بدنية تساعد إحداها أو أقواها المولودعلى الخروج مندفعًا بعد الهزهزات والمرجحات والزحزحة، وبينما كانوا ينتظرون فى الخارج اندفعت أنا من الداخل بفعل الطلقة المباغتة التى جرَّبتها أمى لأول مرة فى حياتها، وقبل أن تأخذ نفسًا عميقًا أو أن تجفف لها أم إبراهيم عرق جبهتها اندفعت «كاف» وتناولتنى من فوق الأرض واستدارت لناحية الباب ربما لكى ترانى فى النور، ولولا أن الخلاص نزل فى نفس اللحظة وأن إلهامًا نزل على أم إبراهيم لكى تحمل الخلاص وتتحرك مع حركة خالتى العبيطة«كاف» لا نقطع الحبل السرى وانتهى الأجل، لكنها هى أم إبراهيم التى استطاعت بوعيها أن تخلصنى من بين يديها فى الوقت المناسب بين الحياة والموت رغم ما قالوه وأكدوه من أن

«كـاف» كـانت مـثل الحـدأة التى فـاجـأت الكل باخـتطاف الكتكوت الوحـيـد، سـتـر المولى وخلصـتى أم إبراهـيم من بين مـخـالب «كاف» إذن فـإكتب لى عـمـر على يديها فى ذلك الصـباح البـاكـر من شـهـر بؤونة الحـجـر، لولاها لخسـرت عـمـرى مبكرا وخسـرتم أنتم شـاهـدا عـاش وشـاف وبـاح بالمكتـوب، وربما بسـبب ذلك لـم اطمئـن أبدًا إلى «كـاف، كنت أنفـر منهـا وأتحـاشـاهـا وأتبـاعـد عنهـا دون قـصـد، لكن الحكايات التى سـمـعتها فسَّرت لى أسـبـاب نفورى وابتعـادى، ولا بد أن الخـلايا المولودة سـجلت رائحـتهـا وصنفـتهـا فى خـانة الأعـداء الغـادرين، أو أنه عـبطهـا وعـدم درايتـهـا جعلتنى لا أرتاح لهـا، كـان هناك فى كل الأوقات عداء غير مـعلن بينى وبينها، حتى فى ساعات الصـفـاء كـان هـنـاك بينى وبينهـا حـاجـز يمنعنى من الاطمئنان إليهـا بشكل كامل.

ولولا وجـود دليلة مـا كنت أسـرح وأدخل دار جـدتى لأمى، كـانت دليلة فـى مـثل عـمـر «كَاف» لكنهـا كـانت تخـتلف، تـرعـانـى وتحـملنى وتطمعنى بيدهـا، وكانت بارعـة فى مـلاعبتى، تحمينى إذا بدا لها أن ثيـابـى قـد اتسَّـخت أو أن الجـو قـد صـار صـهـدًا، ترطب جـسـمـى وتأخـذنى فى حـضـنهـا، وإذا فـكـرت هـى فى الاسـتـحـمـام أخـذتنى وخلعت ثيـابى وأجلسـتنى على ركـبـتـهـا ورشـرشت الماء على بدنى فأضـحك وتضـحك هـى، وكـانت فى بعض الأحيان تفعل نفس الشىء مع يوسـف فـأشـعـر بالغيـرة منه وأطالبهـا بإعـادة تحـمـيـمـى وحـدى، كـانت دليلة فى دار جـدتى مـعكوس «كـاف» فى كل شىء، ولـم أكن أعرف أيامها درجـة قرابتها لجدتى، لكننى كنت أشعر أنها أقرب لى

من «كاف» وأحب، وفكرت فى أحد الأيام أن تأتى دليلة وتعيش فى دارنا، كان ذلك فى أوقات الخصام بين أمى وجدتى وقد كانت تطول وتتكرر، قلت لدليلة هامسًا:

- تعالى عندنا.. وباتى عندنا.

- ياريت.

قالتها هى بفرح واشتياق وشعرت أنا بالفرح وقلت لروحى لابد من حيلة، تخلفت عن الكتَّاب وقلت لأمى أننى مريض، العجيب أن أمى تحسسَّت جبهتى وقالت بفزع وهى تنظر ناحية أبى:

- الولد سخن نار

تحسَّس أبى جبهتى وأبدى خوفه المفاجىء وسألنى:

- أنت كلت إيه عند ستَّك؟

- ماكلتش غير كوز ذره وزر بطاطا.

التفت هو إلى أمى وطالبها متعجلاً أن تلبس الملس استعدادًا للذهاب إلى عيادة الدكتور جمعة قبل أن يغادر عيادته، فخرجت أمى بينما يطلب منى القيام لأتبعها غير لى ثيابى فقلت بضعف:

وخللى دليلة تشيلنى.

لابد أن الفكرة أعجبت أمى ولم تجد اعتراضًا من أبى، أرسلوا إلى دليلة عند جدتى عدلات فجاءت ملهوفة تتفحصنى بعينيها وتساعد أمى على تبديل ثيابى قبل أن تحملنى على صدرها

الطرى، جعلت تلاعبنى وتداعبنى حتى جاءت العربة المخصوص وزمَّرت فلحقنا بأبى الجالس إلى جوار السائق مصطفى يستعجله الذهاب إلى عيادة الدكتور جمعة فى البندر قبل أن يتركها ويذهب لداره.

لم تكن تشغلنى مسألة اللحاق بالدكتور لأننى من داخلى لم أكن أشعر بمرض، كنت أشعر بنوع من عدم الرغبة فى أى طعام أو مشروب وبرغبة فى استمرار مداعبات دليلة وتحسسها لجبهتى ورأسى، حتى عندما فحص الطبيب كل جسمى وغرس حقنته فى لحم مؤخرتى لم أصرخ أو أشعر بكل الوجع، ربما لأن دليلة كانت إلى جوارى تحوطنى بذراعيها وتدفن رأسى فى صدرها بينما تدارى مؤخرتى العريانة بثيابى وأمى تبتسم.

لا أدرى إن كانت دليلة قد أبقت نفسها تنفيذا لرغبتى أو أنهم أبقوها بسبب ما بدا لهم من شدة تعلقى بها وزوال السخونة التى أصابتنى وانفتاح شهيتى لكل الأطعمة والمشروبات التى كانت تأتى بها، وربما حيرنى فى تلك الأيام أن الطبيب المشهور صدَّق ما كنت أحسبه كذبة دبرتها لأغراض تخصنى، صدَّق مثلما صدَّق أبى وكتب لى شرابًا فى زجاجة اشتراه أبى وثلاث حقنات أخرى غرسها فى لحم مؤخرة فتحى المزين الساكن جنب دارنا، بعدها كنت أشعر أننى قادر على الرمح من باب دارنا ولغاية غيطان الكفور الجوَّانية، ومن جديد صرت أذهب إلى كتاب الشيخ درويش وأكيد يوسف بأن دليلة تسكن الآن فى دارنا وأنها لن تعود مرة أخرى إلى دار جدتى

عدلات ويشاركنى فيها مثلما يشاركنى فى كل شىء، لكن الولد حاول أن يذكرنى بامتلاكه للصندل الأزرق بينما انقطع صندلى الأحمر، أشعر ببعض الحزن ثم أتذكر دليلة فأنسى حزنى وأتعجل الذهاب إلى دارنا فأجدها هناك مستعدة لتلبية كل طلباتى وجاهزة لملاعبتى ورواية الحكايات عن ست الحسن والجمال والشاطر حسن عنتر وعبلة والولد الشجاع الذى ركب على ظهر الجنى الكبير وسافر به لآخر بلاد المسلمين.

* * *

قلت لكم أكثر من مرة أننى انخدعت وركبت حمار حياتى بالمقلوب، ولأن الدنيا انقلب ميزانها وتغيرت أحوالها بأسرع وأشد مما كنت أتصور فقد تاه العقل أو كاد، لأنه كان من الصعب على رجل مثلى أن يقر ويعترف بما يجرى حوله بكل هذا القدر من السرعة فقد فكرت بعد انقطاعى فى اللجوء إليكم أستفتيكم فى أمرى وأستوحى منكم ما غمض على عقلى فى نهايات العمر، وأنا يا ناس شفت ما شفت أيام القدرة وأيام الضعف، شفت الحق المخزى الخسران، والباطل العاطل الكسبان، شفت ابن الغسَّالة وابن الخبَّازة اللَّتاتة العجَّانة يرتفع نجمه ويزهزه ونجمى يخبو وينطفىء أو يكاد من قلة حيلتى تشككت عشرات المرات فى أمر نفسى وقد خسرت فى نهاية المطاف كل شىء.

انخطفت فردوس وأنا فى مضيفة حضرة جناب العمدة الشلبى، وانخطف العيال، آه.. هل أحدثكم عن عيالى أو أدارى حكاياتهم،

أخفيهم بالسكوت حيث يختفون بعيدًا عن بطش الباطشين ممن برعوا فى إبعادهم عنى وإبعادى عنكم حتى أصل إلى حالة من حالات التوحش والتوحد والتوجس وقد فارقتكم بعد أن فارقونى وإنحرمت منهم بأفكارهم التى هى ضد أفكاركم وأفكارى، لو بحث أكثر لا نكشفت هويتى وانزاح عنى كل ما يدارينى وقد اتفقنا على أن أتدثر ببعض الحذر حتى لا يعرف من يحاصروننى فى عقر دارى اسمى ورسمى، يضغطون على مناطق ضعفى ويزودون خوفى، يحكمون الحصار فيزيد وجعى وأنا أكتب سيرة عمدتنا الشلبى لأسرِّبها لكم قبل أن ينساها الناس فى كفرنا أو تختلط فى ذاكرتى أكثر مما هى مختلطة، أصبح مثل الذى انضرب فى السابق بالشوم على بطنه وهو مربوط ومعدوم الحيلة، انضرب وتوجع ثم أفاق ليشهد فى لحظات الإفاقة ناسه وهم يتعذبون ليتعذب أو يمارسون خيانته والشهادة ضده فى جرائم يثقون مثلما يثق أنه لم يرتبها ولا خطرت فى خياله، لن أحكى لكم عن أخوتى الذين تفرقوا عنى خوفا أو طمعًا فى حسابات عبيطة حول ميراث قديم، هى على أى الحالات بعض الاحتياطات المكشوفة لكننى أحوط بها نفسى لأقنع روحى بأننى فعلت ما كان من اللازم أن أفعله بعد رحيل عمدتنا الشلبى، أستميحكم كل الأعذار كى أخفى عنكم ما ظهر للبعض منكم من مصائر أخوتى وعيالى.

ربما لأن المسألة فى حالة وجود الشراودة والدكارنة داخل زمام كفرنا وخارجه صارت أخطر من عمدة شلبى انقتل واندفن فى جلبة وصخب داخل محيط دائرة ضيقة لا يطلع من حدودها صوت

مسموع ومؤثر، المسألة أخطر من رجل تاه أصله وفصله فى زمن توهان الأصول.

سامحونى لأننى لن أحدثكم عمن اعتزلنى وهو ساكن لدارى، أو الذى هجرنى دون أن ينبئنى عن مكانه خارج حدود كفرنا الكافر كما كان يهدر فى آخر مرة أراه فيها، أداويه بالوعى فلا يتداوى ويوشك أن يشهر فى وجهى سلاحه، تتوجَّع هى فاهدئها وأنا الذى يحتاج إلى التهدئة، يرحل ساخطا ويتركنا فأتساند عليها وأجعلها تتساند علىَّ، تصبح هى ملاذى وملجأى وسكنى وأصير لها ملاذًا وملجًا وسكنًا، تتحول فردوس وقد شاب شعرها إلى بلسم لجراح عمرى، لولاها لأصابنى مزيد من الخبل إن كان قد أصابنى بحسب ما أشاعوا كثيرًا من الخبل، لكنها انخطفت فتوَّهت باختفائها ما تبقى من عقلى، ولا بد أننى انكمشت على روحى بوعى حتى أحمى الناس من توهان العقل وشططه الذى كنت أستشعره فى حدقات العيون فأشفق عليهم وعلى نفسى وأختار لروحى ذلك الاعتزال أو تلك العزلة أفرضها على نفسى بدلاً من أن يفرضها علىَّ فارض، ربما أكون قد تعلَّلت لنفسى ببوادر ضعفى ووهن عزمى فأجرت الأرض لمن يزرعها ويقاسمنى المحصول، ويحق لمن عاش مثل حياتى وواجه ما واجهته أن يتشكك فى الدنيا وقد دارت ولفت حول نفسها وحول الشمس فارتجت مثل زجاجة دواء راكد وطرحت على سطحها مزيدًا من الأشواك والحصرم وأصابتنى بكل أنواع الشرور، وربما بعد ضياع فردوس صرت أنا فى نظر الناس ونظر نفسى مثل جمل أجرب يستحق كل أنواع العزل والعزلة، كأنهم وهم

يبترون أطرافى ويمزقون أحشائى بتؤدة قطعوا لسانى أيضًا وأخرجوا لى ألسنة المعايرة، وجرؤ صلاح الشارد أن يكايدنى:

- العمدة يوسف يظهر باقى ع العشرة القديمة والقرابة، وأنا لو كنت مكانه كنت طلبت لك الخانكة من زمان.

كأنما اشتعل دماغى بنار فرن عالى من أفران الحديد والصلب، شعرت أن صلاح الشارد يستكثر علينا الهواء السارى فى الفراغ ويستعجل الإجهاز على ما تبقى منا وهو الداخل كفرنا والساكن فيه والبانى على أرضه بسبب علاقته بأصيلة، كأن البلد التى هى بلد أجدادنا قد طابت لهم وصاروا يتحكمون فى مصائرنا من غير علم العمدة وإن تجاسر صلاح وتكلم بلسانه فلا بد من منعه، ولم أكن أملك المنع لكننى كنت أملك فى تلك اللحظات القدرة على الاحتجاج كانت أمامى دواة حبر أسود مفتوحة فتناولتها ربما بنصف وعى وألقيت بها فى اتجاهه، تناثر حبرها وعاصنى قبل أن تتناثر بعض نقاطها على ظهر جلبابه وقد استدار فى محاولة للهرب، أمثال هؤلاء الناس يبرعون فى الهرب من وجه الخطر ويتهمون الناس بالخوف منهم، وعندما جذب باب المضيفة وراءه فصرت محبوسًا مرتين، مرة بالباب ومرة بقدرتهم على استثارتى فى أى وقت، وساد صمت خجلت فيه أن أقوم وأحاول فتح الباب المسكوك من الخارج، ربما طمأننى أننى فى مضيفة يوسف وبه أحتمى، لكننى سمعت الأصوات تدنو وتقترب ثم تتعالى، وصحوت من شبه غفوة عندما انفتح الباب ورأيتهم يقتربون وأتراجع حتى صدَّنى الجدار

ويتقدمون، أمسكونى من الذراعين والقدمين ورفعونى كذبيحة متجهين إلى الخارج الدوَّار وأنا أنادى يوسف فلا يرد ولا أراه، بعدها وجدت عند الباب جماعة منهم يتداولون الكلام بأصوات مرتفعة تعلو على احتجاجاتى واستغاثاتى:

- انهبل.. جاله لطف اللهم احفظنا.. ما عادش وراعى لروحه خالص، ع الحمار.. ركبوه بالمقلوب واعدلوه.. زفوه يا عيال.. ياللاَّ يا إبن الكلب يا مدندش.. قول.. العبيط أهه.

كان الحمار يمشى وقد أركبونى بالمعكوس، أشهد ذيل الحمار وباب دوار العمدة الذى يتباعد، لم أكن بالقطع واعيًا لروحى ولم أكن تائها تمامًا.. هل أسلمت نفسى للغياب وأنا أعبر الدرب الشلبى ثم أتباعد عنه وأراه وهو يتضاءل ويتضاءل ثم يختفى عند المنحنى وكأننى كنت أتنبأ بزوال الزمن الشلبى وطلوع الزمن الشارد؟ لكننى فى غمرة التوهان سمعت صوت يوسف أمرًا:

- ما يصحش كده يا صلاح نزل الراجل واخرس يا بن الكلب منك له.

وبدا لى يوسف متضخمًا وفى حجم الكرة الأرضية ذاتها، تلقانى فى حضنه وكأننى محبوس ظلم طالع من باب السجن ومرمى فى أول حضن يتلقاه، لعله كان يوسف الذى تحول إلى ملاذ وملجأ أو أنه الوهم الذى صوَّره على هذا النحو، ومن أدرانى أنها لم تكن حيلة رخيصة دبرها هوليرانى ويتظاهر بانقاذى من صلاح الشارد وناسه حتى نتضاف إلى صفاته الجديدة صفة الوفى لصلة الدم، وربما

يكون على غير علم وأن الشراودة فعلوها فى غيابه فاحتج وأمرهم بهذه الحدة لينضاف إلى صفاته صفة القادر على حماية ناسه من الغرباء، يعلم الله وحده بما خفى عن علمى، ومن جديد دخلت الدرب الشلبى ماشيًا هذه المرة إلى جوار العمدة الشلبى الذى كان يربت على ظهرى وكأنه يصالحنى على الملأ وأنا ذاهل عن روحى والناس أمامى وإلى جوارى مثل خيالات أو أشباح بلا ملامح أو صفات، أصوات وعيون منطفئة البريق وألسنة تغمغم وتهمهم وتدمدم وتهدر وتهمس بوهن وشوارب مرتخية وأنوف محنية وذقون وجلابيب ولاسات وطواقى ومداسات، أول من عرفت وجه دليلة الملتّاعة التى تمسكها النسوة وهى محلولة الشعر حافية القدمين تهبد صدرها بحرقة أو تلطم إذا انفلت الساعد أو الساعدين كأنما كانت تندبنى قبل موتى أو أنها كانت تشعر بالفجيعة أكثر منى ومن كل الناس، وكانت تهدر مثل موجة صاخبة لا يقدر على إخفاء هديرها أحد:

- على عينى يا حبة عينى.. على عينى يا حبة عينى.

اقتادنى يوسف إلى الدكة وأجلسنى وكأننى تمثال متخشب ثم جلس إلى جوارى، بعدها صرخ فى دليلة بغضب:

- كفاية قواق يا أم قويق.. محصلش حاجة لده كله، والراجل قيمته محفوظة.. غورى من قصادى..

وغارت دليلة إلى وسط الدار لكنها لم تكف عن الهدير الصاخب أو الهمس المبحوح:

- على عينى يا حبة عينى.

وبمرور الوقت كنت أفيق على أصواتهم المتداخلة وكلامهم واكتشف كذبهم المحبوك الذى كان يسرح فى الدوَّار وكأنه الحقائق وصلاح الشارد واقف يستشهد بأعوانه وأعوان العمدة، فى الكذب أمسكت برقبة صلاح الشارد وكدت أقتله خنقاء، وفى الكذب خلصوه من قبضتى المستميتتين بكل العسر وهو بين الموت والحياة، وفى الكذب أسعفوه ببصلة مكسورة ونصف زير ماء صبوه على دماغه ليفيق، وفى الكذب شتمت العمدة يوسف وكل سلساله وشتمت مأمور المركز ومدير المديرية ومن عيَّنه مديرًا، وفى الكذب تعرَّيت فى وسط الدوَّار وطرطرت على جلابيب بعض الحريم الجالسات فى حضرة الست «أصيلة» والست بنت بنت هارون، وفى الكذب فعلت الأفاعيل والأباطيل بأكثر من قدرتى على التذكر، لكننى باختصار أفسدت نظام الكون الهادئ المستتب، كانوا يقسمون بأغلظ الأيمانات إلى الحد الذى جعلنى أراجع نفسى وذاكرتى وأميل إلى تصديقهم، ربما كنت من داخلى أرغب فى فعل كل هذه الأفاعيل وأن أسبَّهم كل هذا السباب وأن أقتلهم كل هذا القتل وأن أتعرى أمام كل هذه النساء، وربما أكون قد فعلت فى الخيال أفظع من هذه الأفعال مجتمعة، لكننى فى الحقيقة كنت أحاول الإجابة عن سؤال حيَّرنى: متى رتبوا كل هذه الأكاذيب وكيف وزعوا الأدوار إلى الحد الذى يجعل العرض ناجحا كل هذا النجاح رغم التدنى والإسفاف؟

أشار العمدة إلى كتلة الكذب بأنه اكتفى وطالبهم بالانصراف وقال لصلاح الشارد متوهمًا أنه يرضينى:

ـ وأنت يا صلاح لى كلام تانى معاك.. كان لازم تشاورنى أو تستحمل علشان خاطرى.. اتفضل دلوقت وكلامى معاك بعدين.

ولم يبق فى المكان غيرى أنا وهو.. لا كنا صدقنا شهود الزور ولا كنا نحتاج لتكذيبهم، كان إلتقاء النظرات بيننا كفيلاً بكشف كل ما نسجوه ودبَّروه وعرضوه، تنهدت فتنهد يوسف، انتظرت أن يفاتحنى بالكلام وانتظر هو أن أفاتحه، ولما طال انتظارنا تنحنح واعتدل فأومأت له علامة استعدادى للسماع فهمس ناصحًا:

ـ مش ناوى تهمد بقى وتكن؟

ـ رجعلى فردوس..

ـ فتشنى.. أنا ساكت عليك بمزاجى.. لو ركبتنى العفاريت ح أسيبك لكلاب السكك تاكلك..

ـ ليه كل ده يا يوسف..؟

ـ أنت عارف

ـ مش عارف

ـ لأ عارف

ـ مش عارف

ـ لأ عارف..

كررنا بنفس الإيقاع والإصرار ربما عشر مرات ليتأكد لى أكثر من كل الأوقات السابقة أنه وراء اختفائها، لعله لو طلب منى فى تلك اللحظات أى شئ يخطر على خياله وفى استطاعتى عمله ما كنت تردَّدت أبدًا، لكنه أشعل النار أكثر:

ـ اللى حصل النهاردة لعب عيال، لكن لو ماهمدتش وبعَّدت عنى ح أخلِّى الديابة تنهش لحمك وأنت حى.

انتهى فاصل الصلح الزائف الذى استمر زمنًا طال بطول عمرى وعمره، وانكشف المستور المخفى فى الأعماق وأطلَّت الكراهية المدفونة من وراء الكلمات تنذرنى بأسوأ مصير، وكان من الممكن أن أفكر فى الفرار والهرب تاركًا ليوسف كفرنا ودكة العمادة يتهزهز فوق خشبها ومساندها ما تبقى له من عمر، لكننى استعدت شجاعتى القديمة وسكنت دارى أنتظر الرصاصة الغادرة تصيبنى من أى اتجاه، وربما طاف بخيالى إمكانية المواجهة وصرت أحلم بإزاحته فلعلنى إذا أزحته اكتشفت مكان فردوس، ربما فكرت أن خروجها من القمقم الذى انحبست فيه يتطلب دمه على وجه التحديد، لكن الولد إبراهيم ابن حسين البرادعى أخرجنى من سجنى وحررَّنى من كوابيسى وأعفانى من تلويث أصابعى بالدم، وربما يكون الولد قد أراح يوسف نفسه من مداومة التظاهر بأنه قادر على تسيير أمور الناس فى كفرنا والتظاهر بأنه قادر على اقتناء ثلاث زوجات فى دوار واحد رغم الفضائح التى كانت تجرى بين الحيطان، أراحه وأراحنا لفترة قصيرة تولدت بعدها المشاكل

والناس تسأل عن المرسى شلبى وقدراته على الوفاء بوعوده التى وعدها وأيماناته التى أقسمها إذا تولى عمادة الكفر أو حتى مشيخة البلد.

* * *

وأنا شفت الموت مرتين، واحدة كانت لعب والثانية كانت جد، نبدأ بحكاية الموت اللعب لأننى أحب اللعب مثلما تحبونه وربما أكثر، كانت رؤية الموت سوف تحدث بواسطة خالتى «كاف» التى لم أكن أطمئن إليها أو أشعر ناحيتها بأى ود وأى أمان، ربما كانت فى الخلايا نفسها مشاعر تدعونى لأن أنفر منها وأتباعد، أحذر منها وأخاف، لكنه كان يحدث أيضًا فى بعض الأحيان أن ألعب معها، أجدها أمامى تلاعبنى فألاعبها بحذر، لكن ما جرى فى تلك الظهيرة كان يختلف، كانت الدار خالية وكانت «كاف» قد جاءت تسأل عن أمى فلما لم تجدها حدثتنى بعقل عن الترعة التى فاضت منها المياه الحمراء وعن العيال الكثار الذين ذهبوا للاستحمام، ولابد أنها نجحت فى إقناعى بصحبتها إلى الترعة، ومثلما كانت تفعل دليلة قبل تحميّمى فعلت كاف، خلعت عنى قميصى الدمور الذى كنت ألبسه على اللحم ثم اقتادتنى فى اتجاه الشط بحذر، تقدمت هى إلى الوراء فتقدمت إلى الأمام، رشرشتنى بالماء فضحكت وفرحت ورحت أرشرشها بالماء فتضحك بفرح، ولابد أننى شعر ناحيتها بشئ من الاطمئنان الزائد دون أسباب، وربما كان ذلك بسبب سخونة الجو أو برودة الماء، كانت تدفعنى للأمام والخلف

فأضحك وأتساند عليها، لكنها فاجأتنى وقد خلا المكان من الناس بأنها ركبتنى، لا أعرف متى وكيف طلعت إلى شط الترعة وكيف وضعت ساقيها على اكتافى ثم ركبتنى ركوبًا وقالت آمرة:

حا.. حا يا حمار.. حا

شعرت بنفسى أنزل وأنزل وهى تكرر أمرها للحمار المركوب، وكنت أنزلق وأنزل وعيناى مفتوحتان تريان الماء الذى كان أكثر حمرة، ولم أكن أتنفس بالطبع وثقلها يزهق بدنى، ولابد أن الوقت طال وطال قبل أن أغيب تماما وأسلم نَفسى لطلوع الروح بحسب ما كنت أتخيله، لكنه بين لحظة الاستسلام الخالص والتعلق برغبة الطلوع حدثت المعجزة بحسب ما قالوا وكرَّروا عن لحظة الانتشال والإخراج من بطن الترعة لينكتب لى عمر جديد على يد «البهنسى» كانت هناك أفاقة ضئيلة وخافتة سمعت فيها أصوات واندفس سيخ فى حدقتى العينين من شعاع الشمس الأحمر، ونهَّق حمار وتناثر على بدنى رماد ثم غطَّته عباءة ثقيلة سوداء تسمح لى بالتنفس وكانت هناك خبطات على الظهر والبطن ثم صراخ وإفاقة كاملة على صوت أمى التى كانت رغم نجاتى تولول وتشتم البنت العبيطة المهبولة المطلوقة على عيال الناس لأنه لا يحكمها حاكم أو يبعد عن الخلق أذاها، وكانوا يقدمون إلى «طاسة الخضة» فلا أشرب منها وأفضل سماع صوت أمى التى لعنت «كاف» وأباها وكل صنفها الشلبى ثم لم تنس جدتى التى هى أمها والتى من قلة تمييزها رضيت بعد معاشرة السبع المهاب أن تعاشر الكلب الجربان الحافى

الذى لم يكن يساوى عبدًا من عبيده فى حياته، لكن جدتى كانت هناك أيضًا ترد لها الصاع صاعين، تسب أباها الفسدان الذى باع أرضه ومحتويات داره بما فيها عروق خشب السقف ليلعب بها القمار ويموت مديونًا ويندفن بالدين الذى حاولت أن تسدده هى من حر مالها، بعدها غفلت ولم أشعر بروحى إلا بعد طلوع الفجر.

صحوت على هزة رقيقة من أصابع دليلة، فتحت عينىّ فرأيتها تبتسم وتهمس:

ـ قوم استحمى.

كان طشت الحموم فى وسط القاعة وبداخله الكرسى الخشبى، وكانت حلة الماء الساخن يتصاعد منها البخار بينما تزودّها بالماء البارد، طالبتنى بالنزول دون أن تلتفت ناحيتى فنزلت، طالبتنى وقد صرت واقفا على الكرسى الخشبى وسط الطشت بأن أخلع ثيابى فخلعت، صارت هى تدعك الصابونة فوق سطح اللوفة ثم تدعكها فى ظهرى وأكتافى والذراعين والصدر والفخذين ثم تملأ الكوز بالماء الدافئ وتصبه على جسمى، أشعر بالدفء وأنعم برائحة الصابونة وقد ناولتها لى أمسكها وأغسل بها شعرى وهى تتابع صب الماء فوق رأسى وكل جسمى، ولابد أنها لمست أعضائى دون قصد فشعرت بوجودها بشكل مختلف لأول مرة فى حياتى، وعندما صبّت كل الماء الدافئ فوق رأسى كدت أطلب منها أن تدعك جسمى مرة أخرى، لكنها جففتنى بالفوطة وتحسستنى من كل الأماكن قبل أن تلبسنى الجلباب وتحملنى حملاً على صدرها فاكتشف أننى

صرت أطول مما كنت فى المرَّة السابقة، كدت أصير فى مثل طول دليلة، ومرة أخرى وجدتنى أتمدَّد على الفراش ودليلة تغطينى وتحادثنى بينما تحمل ماء الحموم الذى أفرغته فى الحلة الكبيرة لترميه فى وسط الدار وتركن الطشت واقفًا ومسنودًا إلى الجدار ثم تأتى لتسألنى عن الفرق بين الاستحمام فى الترعة والاستحمام فى الدار بالماء الساخن والصابون المعطر فأنظر إليها ولا أتمكن من الرد، أشعر أننى أحببتها فى تلك الساعة البدرية أكثر من أى وقت مضى، وعندما اقتربت منى همست بخجل طارئ:

- نامى جنبى واحكى لى حكاية.

كنت أطلب منها نفس الشئ بعد كل استحمام وتطاوعنى مثلما طاوعتنى هذه المرة أيضًا، لكننى فى هذه المرة كنت أقترب منها وأتظاهر بالارتعاش فتحوطنى بذراعيها وتحرك كفها المفرود على ظهرى لتشعرنى بالدفء، أقترب منها وأتشمم رائحة صدرها، وبينما كانت تحكى لى حكاية الدب والعنكبوت كنت أشعر بسخونة طارئة، ولا أعرف إن كان بسبب سخونتى أو دفئها الذى كنت أحسَّه، قامت فجأة وتركتنى أحضن الفراغ واقفة على الأرض تنظر ناحيتى بفزع وتحادث نفسها أكثر مما تحدثنى:

- لا.. ما أرقدش جنبك تانى أبدًا.. ولا أحمِّيك تانى أبدًا، ولا عدت أحكى لك حكايات.. يا حوستى..

قالت وتركت القاعة وسحبت وراءها الباب فاختفت تمامًا وإن كنت أتسمَّع أنفاسها البعيدة وأسمع صوتها وهى تحادث نفسها

بكلام لا افهمه مثلما هى عادتها إذا انشغلت بشئ أو زاد عليها شغل الدار.

لابد أنه كان نهارًا خائنًا ذلك النهار الذى بدأ بالاستحمام، كان الكلام يدور همسًا بين أمى ودليلة فلا أسمعه رغم محاولاتى للسمع، وكان يدور همسًا بين أمى وأبى فلا أفهمه، خاننى ذكائى فلم أفهم سر هذا التبدُّل الذى أصابهم جميعًا تجاهى، كانوا ينظرون ناحيتى بارتياب وحذر ويسكُتون بعضهم البعض فى وجودى، صحيح أننى لم أطلب أى شئ ولم أحصل عليه، حصلت على إفطارى وغدائى وشربت اللبن وأكلت البطيخ ولعبت فى الدرب بالكرة الشراب فشطَّفتنى أمى وألبستنى جلبابًا أبيض جديدًا وطاقية بيضاء جديدة وصلتها للتو من عند الخياطة وكان الوقت يقترب من ساعة الغروب؛ وجاءت فرحانة إلى دارنا وكثيرًا ما كانت فرحانة تأتى إلى دارنا، جلست إلى جوار أمى وتهامستا بود على عكس ما اعتدناه منهما، شربت الشاى الذى أعدَّته دليلة ثم قامت لتخرج واكتفت بأن قالت لأمى:

ـ حصَّلينى.

ـ فى كعبك على طول.

وبعد صلاة العشاء أخذنى أبى إلى دار جدتى لأمى وأجلسنى إلى جواره، حسبته سوف يعاتبها بسبب ما جرى من خالتى «كاف» التى أوشكت أن تغرقنى فى ظهيرة اليوم الفائت لكنه لم يفعل، جاءت أمى مع دليلة وفرحانة مع حلاق الحمير ومعهما يوسف وقد

لبس جلبابًا أبيض مثل جلبابى وطاقية بيضاء مثل طاقيتى، أجلسونا على الحصير معًا فى وسط القاعة ثم حملت فاطمة بنت السعيد الخروبى كلوبًا يوشّ مثل وابور الجاز وينوِّر القاعة ووجوه الحاضرين فى شكل مربع ناقص ضلع، يتساندون على المساند المركونة على الجدران وأنا ويوسف فى المنتصف، شربنا شرابًا وردى اللون فى أكواب زجاجية وكأننا فى فرح، ثم جاء مصطفى المزيِّن ووسَّعوا له مكانًا بين أبى وحلاق الحمير، كانت فى حوزته شنطة الحلاقة التى يدور بها على البيوت فحسبته جاء يحلق ذقن أبى النابتة فى ضوء الكلوب وقد أخرج الموس وراح يسنُّه على المسن ويضحك لى وليوسف ولكل الحاضرين، وقبل أن أكتشف الفخ المنصوب كنت بين قبضات أبى وحلاق الحمير وحسنين المدندش الذى طلع من تحت الأرض أو دخل القاعة وأنا غفلان، خلعوا لباسى ورفعوا جلبابى وسمعته يأمر مصطفى:

- شد الغلفة كويس يا مصطفى.. اقطع مستتى إيه؟

وسال دمى من عضوى المجروح وهم يقهقهون وفاطمة تزغرد وأمى تضحك، أمرنى مصطفى بأن أطرطر ليخف الألم فطرطرت وشعرت باللَّسعات تكوينى وكأننى جلست على كانون ملتهب تحرقنى ناره، ولولا أن يوسف إنمسك مثلما انمسكت وانقطعت «غلفته» مثلما انقطعت «غلفتى» ما كففت عن الصراخ، كانوا يأمرونه بأن يطرطر مثلى بعد أن ربط مصطفى المزين عضوه مثلما ربط عضوى بالشاش، يشجعونه ليطرطر فلا يطاوع وأنا أريده أن يفعل، أصرخ فيه من وجعى:

ـ طرطر يا بن الكلب يا يوسف طرطر.

فيضحكون بشكل جماعى وتزغرد فاطمة بنت السعيد الخروبى وتسرسع «كاف» فى محاولة فاشلة لزغردة فيضحكون عليها ويوسف يصرخ رغم أنه لم يكتو بالنار التى اكتويت بها عندما طاوعتهم، وعندما حملت فرحانة وفاطمة صينية العشاء النحاسية بعد مدة وعليها البط المحمَّر والحمام المحشى الذى يتصاعد منه الدخان فوق طواجن الأرز المعمَّر شعرت باللَّسعات أكثر، طالبونى بأن آكل فلم أطاوعهم لكن يوسف كان يأكل مثل كلب مسعور فيتأكد لى أننى انخدعت وأنه كان نهارًا خائنًا من بدايته، لعلنى كنت أشعر بالجوع أو بالغيظ من كل الأفواه التى تلتهم بنهم ولا تعيرنى ما أستحقه من اهتمام ورعاية، ولولا صدر دليلة التى حملتنى بحنو وحذر لظللت أصرخ وأبكى طول الليل، لكنها هربت بى من وسطهم وأرقدتنى على فراشى وراحت تحكى لى حكاية الأميرة صاحبة البنورة المسحورة التى كانت تسكن القصر العالى وكيف أنها شاورت للولد المؤدب وطالبته بأن يصعد لها فسألها عن باب القصر وجاوبته بأن القصر مسحور وليست له أبواب وأنه لابد أن يذهب بنفسه إلى مدينة الحبال الطويلة ويشترى أطول حبل ثم يستخدمه فى الطلوع إلى شرفتها قبل أن يطلع النهار ويستيقظ الحراس، و..

وفى المنام رأيتنى أسعى للوصول إلى مدينة الحبال الطويلة وأشترى بجلبابى الأبيض وطاقيتى البيضاء أطول الحبال ثم أشترى بما تبقى من ثيابى سلمًا من مدينة السلالم، أسنده على جدار

القصر وأصعد وأصعد والنسيم يداعب جسمى العريان والأميرة تتناول طرف الحبل وتربطه فى عامود الشرفة فأتعلق به وأطلع دون أن يشعر بطلوعى الحراس، أصل إلى الأميرة فأرى فيها وجه دليلة وقد رجعت صبية فى مثل عمرى، تلاعبنى وتداعبنى وتداوى فيها وجه دليلة وقد رجعت صبية فى مثل عمرى، تلاعبنى وتداعبنى وتداوى جرحى فأنساه، أشعر بكفها يتحسَّس صدرى وظهرى بنعومة فأنتشى وإن كنت أشعر ببعض الألم وقد بدأ يزول إلى الحد الذى يجعله ألمًا لذيذًا وناعمًا وقد طاب الجرح وتداوى بمساعدتها ولم يعد باقيا من آثاره غير قشرة الجرح الجافة الرقيقة تنتظر أصابعى لتشيلها، لكننى عندما أتجاسر وأفعل وأشعر بلسعة مفاجئة وأصحو فتختفى الأميرة وأرى وجه دليلة التى تبكى من أجلى وتجفف عرق جبهتى، أشعر بالسخونة من جديد وأرغب فى البكاء من أجل نفسى ومن أجل دليلة لأنها بكت من أجلى بينما كان الكل يضحكون، بعدها تداخلت فى ذاكرتى الصور والأصوات، ما عدت بقادر على التمييز بين صوت دليلة وصوت أمى أو صورة بنت سعيد الخروبى وصورة دليلة، كنت إذا أفقت أشعر بالصهد فى داخلى يغرقنى، أنازع وأتأوه ولا أستطيع الشكاية بالكلام المفهوم، كنت أكتفى بالإشارة فيعجزون عن تفسيرها إلاَّ دليلة، تسقينى أو تحاول إطعامى حتى تتداخل الأصوات من جديد فلا أتمكن من التفريق بين نهيق الحمار أو نباح الكلب، وما كان يؤلمنى أكثّر هى تلك الأوقات التى ينفك فيها رباط الجرح بكل العسر، أصرخ متألما وألعن مصطفى المزين الذى يضع فى أصابعه

الخشنة مسحوق الشطة الحامية بحسب ما كنت أقول، أشعر فى كل مرة بسخونة الجرح الذى ينزف ويختلط دمه بالماء الساخن الذى يتساقط بين الفخذين، كانت دليلة تتجلّى لى وتزيحهم عنى، يتباعدون خوفا من شتائمها، تمسح عرق جبهتى بكفّها الناعم وتحكى لى نصف حكاية أحلم بنصفها الباقى، وما بين الحلم واليقظة أرى فرحانة وأمى وجدَّتى لأبى ثم جدَّتى لأمى وأرى يوسف وقد أعدوا له فراشًا مجاورًا لفراشى، ينادى دليلة هو الآخر فيأخذها منى فأناديها وتأتينى ثم يعاود هو نداءها فتتركنى وتذهب إليه، ولابد أن زمنًا طويلاً قد انقضى تحوَّل فيه اهتمام دليلة وتلبيتها للنداء إلى غرض فى حد ذاته، يحتال لتحقيقه فأحتال مثله، وربما كانت أول مرة يترك فيها الفراش قد تبدَّت لى فى حلم سباق بينى وبينه حاولت فيه رغم لسعات الجرح الساكن ما بين الفخذين أن ألحق به، ومرة رأيته واقفًا وقد وسَّع ما بين قدميه وقد أمسك بيديها وهى تدعوه لأن يخطو خطوة أخرى فيخطو، ناديتها فاستمهلتنى حتى أجلست يوسف على طرف فراشه وساعدته ليرقد ثم مدَّت يديها ضاحكة لكى أتساند عليها وأقوم بحذر، أقف رغم الوجع لكننى أعجز عن تحريك قدمى بخطوة إلى الأمام، ربما أكون قد قاومت لسعات الجرح مرة بعد فك رباطه وتطهيره وإعادة ربطه بيد دليلة الناعمة، ساعتها سمعت أبى يتنهَّد عند باب القاعة ويحمد الله على سلامتى.

كانت هذه هى المرة التى رأيت فيها الموت بجد، كنت أرانى فى الكوابيس راقدًا والعيال يدوسون بأقدامهم فوق جرحى، أصرخ

وأستجير ولا أسمع صوت صراخى او إستجاراتى، أشعر أن صوتى مكتوم فى صدرى وأننى غارق حتى رأسى فى بحر من العرق اللَّزج وأن حرارتى ترتفع وترتفع، أفيق لفترات قليلة من الكابوس ثم تغلبنى الغفلة وأدخل الكابوس الجديد، ومرَّة صحوت فرأيت أبى جلس على طرف فراشى ويبكى بدموع وقد أسند رأسه على كفه المفرود، ولابد أنه قال كلامًا لم أتبينه قبل أن تأتى جدَّتى لأمى وتحادثه بصوت مسموع واضح:

ـ قوم يا راجل بلاش ولوله جنب الولد، ما هو بقى زى الفل أهه، قوم شوف شغلك وسيبه لدليلة اللِّى عارفه دواه.

ساعتها شعرت بضعفه وهو يقوم مستسلمًا وقد انحنى ظهره ورأسه إلى الأمام، كرهت ضعفه فى تلك اللحظات وكدت أناديه وأطلب منه أن يحتمل وأعده بأن أحتمل لكننى لم أفعل، انخرست وتنبَّهت لأول مرة أننى مازلت موجودًا فى دار جدتى لأمى وأن يوسف غادر المكان، وعندما جاءت دليلة تبتسم فرحت لوجودها، حطَّت على الفراش طعام الإفطار الذى أعدَّته وبدأت فى إطعامى بيديها وتحدثنى عن يوسف الذى سبقنى وطاب جرحه فقام وراح يلعب فكدت أسألها عن الأسباب لكنها حدثتنى قبل أن أسأل عن اختلاف الناس واختلاف الجروح وأنه هناك دائمًا جرح أصعب من جرح وأبطأ فى الالتئام لكن كل الجروح تطيب مهما طال الوقت وتلتئم، ولابد أن دليلة هى التى طيَّبت جرحى بصبرها وعطفها فى تلك الأيام، وأنها داوت قلبى فى زمن الصبا البدرى الحيران.

* * *

حبست نفسى فى دارى واعتزلت الناس، لم أكن أهرب من يوسف ورجاله الأراذل أو أفرّ منه ومنهم خوفًا من المواجهة وقد صارت العداوة معلنة على رؤوس الأشهاد، كان من المحسوب أن تصيبنى ضربة غادرة حتى ولو كنت فى دارى مسكوكة الأبواب والفتحات، وكان من المحسوب فى زمنه أن يحدث أى شئ، حرق أو خنق أو خطف وزرع رعب فى قلب القلب، أكذب عليكم وعلى روحى إذا قلت أننى فى تلك الأيام لم أكن أهتم أو أحرص على استمرار الحياة، ربما لو كان غيرى فى مكانى وفى مثل عمرى يقول لنفسه إنه شبع من الدنيا وعاشها بالطول والعرض، تزوّج وخلّف للدنيا نسلاً يحمل اسمه من البنين والبنات، ربّاهم وعلمهم حتى تكونت لكل واحد منهم شخصيته المعدودة المحسوب حسابها، صاروا اباء وأمهات وأعطوا للدنيا خلفة تحمل اسمى فى شهادات الميلاد، وربما.. أقول ربما يتهوّر ويرمى نفسه فى سكة الخطر بدلاً من أن يتحاشاه ويتباعد عنه، ربما ليثبت لنفسه والناس أنه جسور وقادر على المواجهة فى الوقت اللائق، ذلك أن الحياة نفسها تتطلب الجسارة والإقدام، لكن المسألة لم تكن بمثل هذه البساطة، شجاعة أو جبن، خوف أو اندفاع، أبيض أو أسود، المسألة أنه لكل كائن حى تاريخ وطباع وفكرة ثابتة عن نفسه وعن الآخر، طيب نتكلم بوضوح أكثر، لو افترضنا أن فارسًا مغوارًا اختار أن يتعارك فهل يتعارك مع فارس يساويه أم يرمى نفسه وسط مجموعة من الكلاب المسعورة؟ أحسب أن المسألة اتضّحت أكثر، سوف يختار الفارس فارسا ليصارعه، يصرعه أو يسقط فى الساحة مهزومًا بشرف، ولابد أنه

سـوف يـرفض الـدخـول فـى عـراك مع الـكلاب المسـعـورة، طيب.. نفـرض أنه ليس هنـاك فـى السـاحـة غـيـر قطيع من كـلاب أصـابهـا السعار فماذا يفعل الفارس؟ يهرب أم يندفع مضحيًا بعمره ويحصل على لقب فارس شجاع فى مواجهة قطيع من الكلاب المسعورة؟

أعـتـقـد أننـى أوضـحت كل شئ، ويلزم أن أطمـئن إلى وصـول رسـالتى إليكم على الـنحـو الـذى كنت أرجـو لهـا الوصـول، بقى أن أذكِّركم بالناس الشراودة الذين اندسُّوا فى أركان الكفر وصارت لهم أنياب ومخالب، دسُّوا عـيونهم فى الأركان وباتوا مـثل الـهمِّ الثقيل على قلوب الناس، يوهمونه بأنهم حراسه ورجـاله الأوفياء وما هم بأوفـيـاء إلاَّ لذواتهم حـتى وإن كـانوا يحـيطـونه بكل هذه الـهـالة من التوقير الزائف لأغراض تخصهم، وقد يتبدَّى له أنه يكبر بهم ويعلو شـأنه لكنه علو وارتفـاع لحـسـابهم لأنه يتـحـول دون أن يدرى إلى سـاتـر أو سـتـار يحـتمـون وراءه ويمـارسـون الحـياة مـن خلف البعبع المرسـوم فـى عـقـول الناس، يطلقـون أياديهم فى أركـان الكفـر بكل ناسـه وحـيـواناته وأرضـه، وهـو مـثل خـيال مـآته زوج لـواحدة منهم اسـمـهـا «أصيلة» وإن كـانت فى الأصل بنت قـاطع طريق أو شـيخ منسـر سـابق، فهل كان من الحكمـة أن أدفن نفسى وأنـا حىٌّ أفكر وأحس وأشعـر بالخطر الداهم الذى استتبَّ أو كاد أن يستتب ـ هل كان من الحكمة أن أدفن نفسى فى قبرهم الغويط حيا؟ أم كان من الأفضل أن أرتِّب نفسى وأن أستعد، أستعين بمن يعين من الأهل والأصحاب وأصحاب المصلحة فى بقائى لأشهد بما جرى وما كان من أمرهم وأمره؟ ولابد أن الحياة نفسها تستحق من العقلاء بعض

الانتظار والصبر قبل دخول مثل هذه المعارك المتداخلة والتى تختلط فيها صفات من يخوضونها بالرغبة أو الإكراه، وطبعا هناك فروق بين من يدخل معركته برغبته ومن يدخلها مكرهًا أو شبه مغصوب، لكنه هناك أيضًا أنواع أخرى من المعارك، غصب بالإرادة أو إكراه بالرغبة، مثلا، لو أن صبيًا شاء أن يتعلَّم العوم فى ترعة وتجاسر ورمى نفسه فى وسط الترعة مثلما كان نفعل ونحن صغار، سيكون أمامه مهرب وحيد، أن يعوم لينجو من الغرق أو احتمالاته على الأقل، وفى مثل هذه الحالة يكون دخول معركة العوم فى الترعة إكراه بالرغبة أو غصب بالإرادة، طيب لو أن رجلا مثلى شاء أن يحسن الشهادة وتداخلت فى ذاكرته أشياء وتاهت أشياء وخلط هو بعض الأحداث بقصد كى لا يتوه القصد الأصلى من شهادته، وفى مثل هذه الحالة يحدث أن يتوه هو نفسه عن أغراضه البسيطة فى بعض الحالات، فلابد أنه فى مثل هذه الأحوال يكون قد دخل معركته الصعبة غصبًا بالإرادة أو إكراهًا بالرغبة، طيب، وماذا عن مواطن من أوساط الناس يواجه عصابة من مشايخ المنسر استولوا على كفر كامل بعمدته الشلبى، هل يقتحم بكل التهور وينتهى أمره برصاصة فى الظهر أو فى الصدر ليلا فى قلب العتمة أو نهارًا وجهارًا فى عز ظهيرة يوم مشمس وهم جاهزون بشهود الزور الذين يعلقون التهم الشنيعة فى عنق المقتول، يهدر الأوغاد دمه مجانًا وعلى رؤوس الأشهاد وقد حملوا على أكتافهم سلاح الجريمة مثلما فعلوا عشرات المرات والناس ساكتة، والعمدة

الشلبى فى حالة دروشة أو غياب غصب بالإرادة أو خاضع لحالة من حالات الإكراه بالرغبة المسبقة؟ قلت لروحى لأخلِّص روحى من الهم الثقيل:

«يا ولد.. لقد كان من صار اليوم عمدة كفرنا محسوبًا على داركم سابقًا فلماذا لا تحاول أو تكون اليوم محسوبًا على دوَّاره؟ ولماذا تركته لهم كل الوقت ولم تلازمه فى الأوقات الحرجة لتحميه من قلة وعيه بهؤلاء الناس؟»

وقلت أيضًا:

«لماذا لا تحاول فى الوقت الضائع أن تعيد الأشياء إلى أصولها الأولى، لماذا لا تعيد ترتيب الأحداث مرة أخرى بحسب ما تسعفك الذاكرة؟..

وجاوبت نفسى:

«أعرف أن للعمدة الشلبى صلة قرابة من بعيد بناسنا، وأنه لابد أن فرعًا من فروع الشجرة القديمة لأهلى كان قد التقى بفرع من فروع الناس الشلبى، وما دامت البداية كانت بآدم فلابد أنه هناك التقاء بين كل البشر بنسب متفاوتة، ولابد أن علاقتى بالعمدة أوضح وأقرب من علاقته هو نفسه بالناس الشراودة، ولابد أن الدم سوف يحن يومًا حتى وإن طال الانتظار، وما دام هو قد طلع من فرع شجرة قديمة طلعت أنا من فرعها المجاور أو البعيد فلابد من الغوص وراء الجذر المدفوس فى الأرض، صحيح أن الأكفان تقادمت وأن الأبدان تحللت وأن عظام الأموات تفككَّت، لكنه سبحانه واهب

الذاكرة التى تعيد أسماء من رحلوا عن دنيانا بنفس قدرته على إحياء العظام وهى رميم».

فى حكايات جدتى لأبى حكاية عن أصل جدتى لأمى، كانت تقولها لنا ونحن صغار بينما تتلفَّت حواليها مخافة أن تسمعها أمى أو غيرها من أقارب جدتى لأمى، وربما بسبب ذلك الخوف نفسه كنا نحاول أن نصدقها ولا نستطيع، لكن تكرار الحكاية جعلنا نحفظها ونحتفظ بها دون أن يجرؤ أى واحد منا على البوح بها أو الاستفسار عن مصداقيتها من أحد، كانت حكاية مخبوءة وتوشك أن تكون مدفونة فى الوعى القديم القديم، لكنها فزَّت من ذاكرتى واستقامت بتفاصيلها الشاحبة بينما كنت أحاول أن أعيد الأشياء إلى أصولها القديمة، أحسبها حكاية عارضة وهامشية وبلا وزن إلاَّ لكونها ممدودة فى الجذور القديمة التى اندفنت مثل أصحابها فى التراب، .

«كانت جدَّة جدَّتى لأم قد ولدت سبع بنات سبحانه الواحد الوهَّاب مانح الجمال والأرزاق، أعطاهن من الجمال ما يفوق الوصف ويعجز عن وصفه اللِّسان، لكنه ضيِّق فى زرقهن فى الدرب مثل عرائس المولد النبوى وقد غطَّت حلاوتهن أسراب الذباب فتلوَّث البياض بالفضلات المدوَّرة التى يفرزها ويتركها دوائر سوداء متقاربة تعافها النفس رغم أنها فى الأصل حلوة».

ولابد أن الفقر عاندهن فى صباهن مثلما عاندهن فى طفولتهن، كان شباب الكفر يتحدَّث عن الواحدة منهن زمنًا، يتمناها

الواحد منهم لنفسه زوجة وقد نضجت وزادت حلاوتها لكنه لا يفعل، ربما بحسب رأى البعض بسبب وضاعة الأصل أو الجهل به، وربما لأن الحسابات كانت تلعب دورها فى ذلك الزمن السهل أيضًا، وربما كان عبد الله الشوكى هو أول من امتلك الجسارة ليطلب أكبر البنات سنًا ويقبل شروط أهلها بأن يأخذها بالجلباب، صحيح أن عبد الله الشوكى كان مجرد نفر «تملَّى» فى دار مصطفى عوف وأنه كان يحصل على ثمانية عشر قيراطا من أرض مصطفى عوف يزرعها لنفسه مقابل العمل طوال السنة فى أرض مصطفى عوف أو داره بحسب ما يشاء المالك، لكنه فى كفرنا قاعدة تقول إنه لا يموت فى البلد إنسان بالجوع، كل الناس كانت تتعشى، الغنى والفقير، المالك والمعدم، صاحب العيال الكثار والمقطوع، وربما كان عبد الله الشوكى هو فاتحة الخير على السبع بنات، ما إن تجرى على ألسنة الشباب حكايات عن واحدة منهن حتى يبعث الله إليها صاحب النصيب يطلبها لنفسه ويوافق على الشرط المعلن بأنه سوف يأخذها لداره بجلبابها الذى يسترها، بعضهم كان يتطوع بإلزام نفسه بالقبول سلفًا قبل أن تقول أم البنت أو يقول أبوها:

ـ موافق يا جماعة.. ح آخذها بالجلابية اللِّى عليها.

وانسترت على هذا النحو ست بنات من السبع بنات وبقيت فى الدار أحلاهن وأصغرهن وأكثرهن جرأة، وكلَّما دقَّ الباب طالب قرب رفضت بعناد بغلة، كانت تعلن بجسارة أنها لن تسلِّم شبابها

وجمالها لفلاح جلف أو «تمللى» جربان أو نفر أجير، وعندما تسألها أمها عن مصيرها تجاوبها بجرأة:

حاخد واحد أفندى بماهية، ويمكن واحد بيه.

تضرب أمها كفًا بكف وتتعجَّب، تجادلها وتذكِّرها باختها التى تزوجت عم جدِّى لأمى من دار الخروبى وكيف أنها مستورة ومالكة لدار وعندها خلفة فتعترض وترفض، وتذكِّرها بعبد الله الشوكى نفسه الذى فتح الله عليه وامتلك الأرض التى كان يزرعها وزيادة، وإنه بعد العدم صار مالكًا لدار واسعة فلا تقتنع، ولابد أنهم سكتوا على البنت لسببين: أولهما أنها كانت حلوة وشاطرة وقادرة على أن تسحر العابد إذا شاءت وأنها فى كل الحالات لن تبور أو تتعطَّل مركبتها فى مجارى الدنيا السائرة، وثانيهما أنها كانت أصغر البنات وأكثرهن تدليلاً وقدرة على الحصول على قبول أهلها وكل ناس كفرنا، تركوها تتمنى وتتمرَّد قائلين أن نصيبها الغلاَّب سوف يغلبها مهما طالت الأيام..

«أيامها كانت» الغزالة الشاردة قد جاءت إلى الكفر الجوَّانى بعد أن أقطعها السلطان جزءا من زمام الناحية مقابل سنوات المعاشرة الطيبة وقد أعتقها بعد أن كانت جارية مجلوبة من البلاد البعيدة البعيدة، وقال الناس للناس أن طبع الجوارى غلاَّب، فما أن استقرَّت حتى فتحت مسكنها لأكابر الناحية، مدير المديرية وناظر الداخلية الذى كانت له عزية مجاورة لأرض الكفر الجوَّانى، وقالوا فى سيرتها كلام يشيِّب - عند سماعه - شعر رأس الحريم الأحرار،

كلام فى العهر والفجر وقلة الحياء، واتفق الناس مع الناس على تسمية الزمام الذى امتلكته «الأرض العريانة» ولا أحد كان فى أيامها يستطيع أن يفسر أسباب زيارات أكابر ضباط الاحتلال لسراية الست هانم جارية سلطان المسلمين وإن اتفقوا على فساد الأغراض، ناس لهم نفس الوجوه البيضاء بحمرة، والعيون الزرقاء بخضرة، والشعر الذهبى الناعم بصفرة، ولهم رطانة مشتركة لا يفهمها سكان العبِّ الجوَّانى كله، وفى سراية الست هانم جارية مولانا كانت تأتى الجميلات، كل أنواعَ وأشكال وألوان الجميلات، تبحث عنهن الغزالة الشاردة التى غزت التجاعيد وجهها ورقبتها وكفيها لكنها لم تفقد قدرتها على الحركة فى كافة أنحاء المديرية لتبسط هواة الانبساط من الأكابر سواء من أهل البلد أو الغرباء».

«وكانت قد سمعت عن السبع بنات وبعثت لأم جدتى لأم مرسالاً فجاءتها تسعى وملء قلبها الخوف، يقول الناس للناس أن اتفاقًا قد تم بالاختيار أو بالإجبار، وأن أحلى البنات من بين السبع بنات راحت فى سكة الذى يروح ولا يرجع، وظهرت علامات النعمة على الدار لكنها لم تدم كثيرًا، ذلك أن كلام الناس يساوى وسوسة الشيطان، كثر كلام النساء فى أذن الرجل الذى هو أب البنات فراح وهجم على بوابة سراية الست هانم جارية «مولانا» فكان نصيبه فى صباح اليوم التالى أن ربطه الأنفار إلى نخلة فى مدخل البلد وتناوب الأكابر من أهل البلد والغرباء ضربة بالكرباج حتى لفظ آخر أنفاسه، ولكن مصير البنت اختلف، وجدوها عريانة كما ولدتها أمها فى بطن المصرف فأخرجوها ولفوها بلحاف ساتان ملك

الهانم وأحضروها ليدفونها إلى جوار الرجل المجلود بالكرباج لتطمئن روحه ويهنأ بوجودها إلى جواره عذراء لم تمسسها يد فى رأى البعض، وضحية لغدر امرأة فاجرة ومدرَّبة على قلة الأدب وانعدام الحياء مثل كل نسلها الأجنبى الساكن مدخل الكفر الجوَّانى متباهيًا باسمها الأجنبى عسير النطق على ألسنة الناس فى كفرنا الغلبان وكل كفور العبِّ الجوَّانى الذى سماها «كعب الغزال».

«وأيضًا قالت جدتى لأبى بأن صلة قرابة حقيقة مؤكدة وثابتة بين الناس الشلبى ونسل الست هانم جارية مولانا سلطان المسلمين الذى سلم البلد للإنجليز والذى خان «عرابى»بمعاونة أتباعه فى النواحى الشرقية من المجاليب العبيد الذين تحوَّلوا إلى سادة وأصحاب معالى بدون أسباب ولا مقدمات فى زمن السلطة» وقالت إنه فى زمن السلطة أخذوا من الناس العوف رجالاً ما كان من الممكن أن تأخذهم غير سلطة غشيمة وغريبة، تربطهم فى الحبال وتسوقهم كما تسوق المواشى وهم أولاد الناس، يحفرون البحر البعيد ويموتون بالجوع أو الكرباج ويرجعون فى أكفان رخيصة لتندفن جثثهم مع حقيقة أسباب موتهم، تتكسر شوكة الناس العوف ويظهر نجم الناس الشلبى وتبرز أنياب الناس الشاردة، يحملون السلاح ويقتلون بالرصاص حملة النبابيت والشماريخ مهما كانت قوة الأبدان».

«تبدل حال العبِّ الجوَّانى وناسه ولا ينجو كفرنا الغطسان وسط غيطان الدلتا وترعها ومصارفها وتتراخى عزائم الرجال لولا

صحوه أخيرة جاءت على يد عبد القادر عوف الكبير وعياله فأجلَّت ضياع الهيبة والعزوة إلى زمن آخر ليس ببعيد يخسرون فيه على مشهد منًّا سيادة الكفر لحساب الشراودة والناس الشلبى.

وفكرت هل أحمل فى داخلى بذرة الناس العوف من صلب أبى وخلايا الناس الشلبى من بطن أمى؟ وإلى أى حد أستطيع أن أتخلص من الخلايا وقد دخلتنى أو البذرة وقد كانت أساسًا لكيانى كله؟ وكيف ومتى انفصلت عن هذه الأصول الأولى لأكون فرعًا من الزرع النعناعى الذى يعيش فى المنطقة البين بين والذى يتعلم لبس البنطلون والقميص والسترة ويمسك بالقلم ليحسب ويكتب ويصير مستخدمًا على درجة ينتظر العلاوة اوالترقية ويرتكن إلى ضمان المعاش فى سن المعاش؟

وفكرت أيضًا.

أن الوظيفة استخدمتنى واستعبدتنى ومنعتنى من أن أكون حاكمًا أو مساعدًا لحاكم شأن يوسف ابن حلاق الحمير، أو أن أكون فلاحًا محكومًا شأن كافة أهالى كفرنا من العوف والساكت والبرعى والشوكى والخروبى والجمَّال والبقرى والعريان والناصح وكافة الكافة من العائلات صغيرها وكبيرها، أصيلها وعويلها وخسيسها، وانطرح السؤال المخيف من دماغى يسألنى ولا أجيب، ويتكرَّر السؤال فلا أجيب، وأسمع صوت فردوس نفسه يسألنى:

من تكون؟ من تكون؟ من تكون؟ لا حاكم ولا محكوم؟

* * *

لا أذكر على وجه التحديد متى تحوَّلت دليلة إلى هدف أسعى إليه واقترب منه، لكننى وجدتنى أفعل، أفتعل الأسباب وأذهب إلى حيث تتواجد، أتأملها وهى تعجن أو تخبز أو تحلب أو تفرش القمح المغسول على الحصائر فى شمس السطح، أو تنحنى على ذراع الطلمبة بذراعيها وتحركه صعودًا وهبوطًا لتملأ حوض المواشى، كأننى فى تلك الأيام كنت مسحوبًا إليها بحبل طويل لا أراه أو يراه غيرى لكنه موجود يسحبنى وراءها كلما لاحت الفرصة، لكننى أتذكر على وجه الدقة يوم دخلت وراءها المتبن فى ذلك النهار الصيفى الملتهب، كانت هى محنية تملأ الغربال بالتبن وأنا أقف خلفها أتابع اهتزازات جسدها فى صمت، ولابد أنها كانت تشعر بوجودى لأنها عندما استدارت تبسَّمت بسمة خفيفة ورائقة بعد أن سألتنى:

ـ واقف ورايا كده ليه؟

ـ واقف.

رددت عليها محاذرًا وأنا فى نفس مكانى، لكننى عندما لمحت ابتسامتها الودودة ضاع نصف ارتباكى وتفكرت فى الخطوة التالية، ولابد أنها أحست وراحت تتحسَّس بكلتا يديها لحم صدرها نصف العريان وتتراجع إلى الوراء نصف خطوة فأتقدم خطوة حتى تلامسنا ولابد أننى اندفعت ناحيتها نصف اندفاعة أو أنها ارتمت ساقطة على ظهرها فجأة مطمئنة إلى طراوة التبن ومتساندة باجتذابى المباغت لأسقط فوقها، كنت أرتكز على الركبتين

الغائصتين فى ليونة التبن وكان صدرى فوق صدرها اللَّدن، كان المنديل الذى يربط شعرها قد انحلَّ فرأيته متناثرًا بسواده الداكن ونعومته على سطح التبن المعزول عن النخالة، أسبلت هى عينيها فاكتويت بالرغبة واستويت راكبًا فوقها وكانت هى تلهث وألهث وشعرت بذراعيها تحيطانى وتجتذبانى فأنجذب وأجذبها وتتجذب، تعتصرنى وأعتصرها وتسألنى بينما تلهث:

ـ عاوز إيه؟ .. عاوز إيه؟

لم أكن أعرف، ولابد أننى شعرت ناحيتها بمشاعر متداخلة، كنت أرغب فى الكشف والاكتشاف وأحنو عليها باشتياق قلق وراغب فى الالتصاق الكامل وتحسَّس طراوة الأعضاء، استشعر قوتها وضعفى ثم ضعفها وقوتى، مدفوعًا إليها وراغبًا فى التراجع، ولابد أننى قبَّلتها وقبَّلتنى على عجل، كان هناك فى القلب لهب وشئ من غضب ثم انتشاء وسكون وبحر من عرق، ولابد أن نسمة هواء طارئ لفحتنى ولفحتها فانتحينا واقفين وكل منا ينظر إلى الآخر وكأنه يراه لأول مرة، كان من العسير على أى منا أن يتهم الآخر بالغلط، وكان من الصعب أيضًا أن يشعر أى منا بتفسير لما حدث، قالت هى لائمة:

ـ كده تقلعنى منديلى؟

ثم انحنت وتناولته ولملمت خصلات شعرها وقد علقت به نخالة التبن وجزئياته، ربطت رأسها وأنا ساكت وواقف فى مكانى بينما تعاود هى ملء الغربال بالتبن كأنما لم يحدث شئ، وبصوتها المحايد قالت:

ـ قلة أدب.

ولأن دليلة كانت أكبر منى بسنوات وسنوات فقد كنت واثقًا من أنها تعرف أكثر مما أعرف عن الأدب، لم أدافع عن نفسى أو أتبعها وهى تخرج من باب المتبن وعلى رأسها غربال التبن المنخول، انكمشت على نفسى فى نفس مكانى، أتشمم رائحة المتبن العطنة وقد اختلطت برائحة العرق التى كانت تنفذ من طوق جلبابى، ربما أكون قد كرهت نفسى فى تلك الظهيرة لأنها كانت على وجه التحديد دليلة التى وسوس شيطانى الفاسق بأن أجرب معها ولأول مرة فى حياتى شيئًا من تلك الحكايات قليلة الأدب والحياء التى كنت أسمعها من يوسف والأولاد الأكبر منى، حكايات تحدث فى الزرائب مع العنزات والمواشى وبين الصبيان والبنات فى الغيطان وقاعات التبن وأسطح الدور فى عز الظهيرة أو أنصاف الليالى، ولابد أنه يوسف الذى سألنى عما فعلته مع دليلة وهى الساكنة دارنا وقد دارت واستدارت وصارت مثل حقل عطشان شراقى يتشوق إلى قطرة ماء، كان يوسف فى تلك الظهيرة ماثلاً قبالتى يضحك مثل إبليس وقد أفلح فى أن يوقعنى فى المحظور، ولابد أننى كنت أشعر بالهزيمة والعار رغم ما كدت أتصوره من قدرتى وانتصارى على بدنها الطرى الذى استجاب وطاوع.

هل كانت دليلة تتحاشانى خلال اليومين التاليين لموقعة المتبن أم أننى الذى حرصت على أن أتحاشاها؟ لعلنا اتفقنا دون كلام على أن يتباعد كل منا عن الآخر، لكن الفجيعة لم تكن فى زمن التباعد وإنما جاءت فى قرار الابتعاد أو الإبعاد، ذلك أن دليلة جمعت كل

ثيابها القديمة والجديدة وصرتّها فى صرَّة حملتها فوق رأسها وسارت مع «كاف» فى اتجاه دار جدتى، كنت أريد أن تلتفت ناحيتى أو أن تحدثنى بأى كلام أو أن تدعونى لرؤيتها فى دار جدتى إذا شئت مثلما قالت للكل، لكنها لم تفعل، وكان من العسير أن أطالبهم بإبقائها مثلما كنت أفعل فى الماضى ويستجيبون، ولعل هواجس كثيرة ركبت دماغى بأن تكون دليلة قد باحت لأمى بما جرى أو أن تكون أمى قد شافت بنفسها أو أن أبى اكتشف ما أخفيته وأصدر قراره بإبعادها عنى وإبعادى عنها، كانت الهواجس تركبنى وتجعلنى أرتاب فى مبرراتهم التى قالوها بفرح عن خالتى «كاف» التى طلبها الشيخ الليثى شلبى خال يوسف لنفسه زوجة، كانت حكايات الليثى تصلنا من خلال فرحانة أخته عندما يصفو الجو بينها وبين أمى، أسمعها تتشكى لأمى أو لجدتى على عمره الذى راح منه وكيف أنه شاب دون أن يخلِّف من صلبه ولدًا أو بنتًا:

- دى داره عمرت وخربت ياختى تلات مرات ولا فيش نصيب، داخ ع الحكما وصرف فلوس ماهيش فلوس، يا حسرة قلبى عليه.

- نصيبه بقى.

- وإذا كانت جدتى موجودة فقد تواسيها أكثر:

- مين عارف يا فرحانة يا بنتى.. يمكن تيجى على أهون سبب.

- إمتى بس يا خالة؟ دا عدى الخمسين ولا الستين أهه، دا لو كان له نصيب كان حصل من زمان، دول تلات جوازات.

- خلاص بقى يا فرحانة، إن حصل حصل وإن ما حصلش ربنا يخلِّى يوسف.

كنت أسأل يوسف عن خاله الليثى صاحب دكان البقالة فيقول إنه يستأهل ما جرى له لأنه نهب ميراث كل أخوته البنات وحطه فى بطنه وأن الله ينتقم منه فى حياته قبل أن يرميه فى جهنم بعد موته لأنه وسع تجارته بمال حرام، ولأنه يكره عيال الناس فقد حرمه الله من خلفة العيال، كان يقول إن أمه فرحانة تكرهه رغم كلامها عنه لأنه أخذ أرضها بأبخس الأثمان وإنه لم يحدث أبدًا أن أعطى فرحانة أو يوسف قرشًا أو حتى مليمًا أحمر فى أى مناسبة، حتى فى الأعياد كان يوسف يطلب منه أى شئ من بضاعة الدكان فلا يسلمها له إلاَّ بعد أن يأخذ ثمنها مقدمًا على رؤوس الأشهاد، يذكِّرنى بمعارك فرحانة أمه مع الليثى خاله عند باب الدكان وكيف أنه رجل مفضوح وبخيل لحد الشح رغم أنه يمتلك الكثير، أرض ودار واسعة ومنحل ودكان، وكيف أنه رآه أكثر من مرة يستِّف الجنيهات الجديدة ويرصَّها على بعضها قبل أن يربطها بالأساتك ويداريها فى صندوق الكنبة التى يرقد عليها فى الدكان.

كان يوسف يتمنى موت خاله الليثى متوهمًا أنه الوحيد الذى يعرف مكان الفلوس، وأنه ربما يكون الوحيد الذى يشترى من دكانه من بين كل أولاد خالاته الذين قاطعوه تنفيذًا لأوامر الأمهات بينما بقيت فرحانة أم يوسف قادرة على التعامل معه من بعيد لبعيد دون أن تخفى غرضها الحقيقى عند الحديث عنه مع جدَّتى:

ـ دا إن مات ف داره ح يعفن وريحته تفوح، هو حد بيرضى يطل عليه م البنات، أنا باروح له يا خالة وأطل عليه، يمكن يجرى له حاجة ويدخل عليه ولاد الحرام ياخذو اللِّى وراه وإحنا مش داريين، داحنا، ما نعرفش حتى بيدفس فلوسه فين.

ـ شاطره.

ـ تعلّق جدَّتى باللفظ وتغيِّر الموضوع فيتغيَّر الكلام.

لكن مسألة زواج الليثى من خالتى «كاف» لم تكن تخطر على خيال، ولعلنى لم أصدقها بعد أن سمعتها عشرات المرات، كنت أحسبها حكاية ملفقة تهدف إلى تبرير إبعاد دليلة عن دارنا، لكن الليثى نفسه جاء إلى دارنا لأول مرة فى حياته ربما، جلس فى المندرة وان إلى جوازه أبو يوسف حلاق الحمير وإلى جواره من الناحية الأخرى أبى وقد لبس العباءة الجديدة ونادانى أنا ويوسف لنشاركهم لأننا صرنا بحساب كلامه رجلان ولنا فى الموضوع رإى، تضاحك الكبار بينما جلسنا متجاورين محاذرين أن نغلط بكلمة لا تليق بالرجال، اتفقوا هم على ميعاد عقد القران والدخول وقال الليثى:

ـ نكتب وندخل ف نفس الليلة، أنا مش بتاع زفة وفرح وكلام فاضى من ده..

ـ إحنا كان غرضنا البنت تفرح يا شيخ ليثى.

بذلك تكلم حلاق الحمير فرد الآخر حاسمًا رافضًا الفكرة من أساسها:

ـ فـرحـة العـروسـة ف دارها وحـضن عـريسـها يا بو يوسف..
عقبال يوسف والعريس اللى قاعد جنبه..

اغـتظت منه لأنه تجاهل اسمى وكدت أذكّره بنفسى لكننى لم أفعل احترامًا لأبى، وفكرت أن أنسب شئ لرجل مثله هو الزواج من خالتى العبيطة «كاف» التى يقرف منها الكلب الجربان إذا شم رائحتها كما كانت أمى تقول ولا تدارى فتكيد جدَّتى عدلات وتجلب لنفسها اللعنات دون أن تتعلم أو تتوب، كان فرح «كاف» والليثى أشبه بجنازة غريب لا أهل ولا عزوة، قطعت «كاف» المسافة من دار جدَّتى لدار الليثى وهى أشبه بعروس المولد ومحاطة بالبنات الصغار والصبيان المشاكسين، ولولا وجود دليلة وأمى وأم يوسف وجدَّتى ما وصلت لداره بسلام، فى الزقاق المدفوس فيه دار الليثى غنت بنات من فوق الأسطح:

جوِّزوهاله .. مالها إلألّه.. جوِّزوهاله .. مالها إلألّه

غنوها ورموا على الداخلين من مدخل الزقاق عيدان حطب قطن وذرة وحصوات ورماد ناعم وكادت الزفة الساكتة أن تتحول إلى جرسة وفضيحة لولا جدَّتى عدلات التى شتمت الزقاق وسكان الزقاق من رجال ونساء وعيال ناقصة التربية لأنهم من نسل فسدان وخائب لا يعرف العيب ولا الأصول، هدَّدت ولعنت فاختفت البنات من فوق الأسطح ثم سمعنا صرخات متتابعة من أكثر من دار فهمنا أنها استغاثات بنات يضربهن ويؤدبهن الآباء والأمهات لأنهن من فرط قلة الأدب جلبوا لأهاليهن اللعنات وأسمعوهن ما يكرهون،

لكن الصبيان كانوا فى الزقاق والشارع وخارج حدود السيطرة فغنوا:

- البنت الهبلة.. جابولها الطبلة.. البنت الهبلة جابولها الطبلة

أتظاهر أنا ويوسف بالرمح وراءهم شاتمين بصوت عال ثم هامسين بأصوات خافتة كى نحرضم على الاستمرار وعدم الكف عن الغناء، والزقاق يبدو طويلاً طويلاً وخطوات كاف تشبه خيال «مآته» لابس أبيض ومزوّق بكل الألوان، وعندما ظهر الليثى على عتبة داره ليخطو خطوتين فى اتجاه «كاف» صحنا وذكرنا العيال هامسين..

سيب النعجة.. يا خروف

قالوها بأصوات عالية ولم يكفوا عن تكرارها ونحن نتظاهر بالرّمح فى أعقابهم، يتباعدون ويضحكون ثم يعودون ليملأوا الزقاق جلبة حتى بعد أن إنسكّ الباب وعادت جدّتى وأمى وفرحانة وبنات الدرب الذى تسكنه جدّتى عدلات، كانت ليلة دخول «كاف» فى دار الليثى ليلة لعب وضحك وسخريات، وكانت نساء الزقاق تتفرّج على أبواب الدور، تتحاور عن قلة أدب الصبيان والبنات ثم تنطلق الضحكات الساخرة المشتركة، يتبادلن الغمزات بالعيون ويتلاعبن بالحواجب ويتصعّبن على عريس الغفلة وعروسه المسخرة، يتهامسن بأنه سوف يتسبب فى موتها بالجوع وأنها سوف تتسبب فى تطيير البرج الوحيد الباقى فى دماغه وتسلمه للجنون،

ليلتها انطردت أنا ويوسف من الزقاق باعتبارنا غريبين عن ناسه فانقطع حبل الفرجة وعدنا غاضبين.

لكن الأيام فاتت، لا ماتت «كاف» بالجوع بسبب بخل الليثى الذى يزيد عن بخل اليهود، ولا سمعنا عن طيران البرج الباقى من عقله أو مات بعد أن انهدت قواه وضاعت عافيته، بل إن الأخبار شاعت بأن كاف حملت وانقطعت عنها العادة، كانوا يحسبون الأيام وكل يوم يفوت يتأكد أنها حامل، وبعد شهرين من ليلة دخولها أعلنت جدَّتى عدلات أن «كاف» ظهرت عليها بالفعل علامات الحمل، وكان الليثى يتقافز بين الدور مثل أبى فصادة، يحط فى دار: ؛ ثم يقفز إلى دار جدَّتى عدلات أو فرحانة أم يوسف أو أى دار أخرى ليعلن لكل من يستقبله فى داره أنه «صاغ» سليم مستشهدًا بحمل كاف:

- لجل ما تصدقونى وتتأكدوا أن العيب ماكنش منى، كنت ح أعمل ايه فى بختى، كل اللِّى خدتهم ما كانوش بيخلِّفوا، صحيح أن كل واحدة خلَّفت من جوزها اللِّى خدته بعدى.. بس ولا واحده منهم كان لها فى الخلفه وهى على ذمتى.. ولا واحده.

كانوا يهنئونه على حمل «كاف» التى عوضته عن كل ما فاته ويتمنَّون له خلفة ترضيه وتسنده وتحافظ على اسمه فيبدو مزهوًا بنفسه ويرفع رأسه لأعلى وكأنه يتوهم أنه من الممكن أن ينضاف لطوله القصير طولاً جديدًا، وكلما كبرت بطن «كاف» كثرت مطالبها، أول شئ اخترعته أنها طلبت من أمها أن تشترى للنونو

سريرًا هزازًا من سوق الخميس وتحاسب الليثى ففعلت وكاد الليثى أن يعترض على الدفع لولا أنه تذكر أن السرير سيكون سرير ابنه الذى طال اشتياقه لوصوله، بعدها أشارت عليها «النبوية» بنت المرسى أن تعد ظهيرة كل خميس «ختمة» من لحم وأرز وفتة يأكلها الفقهاء ممن يستدعونهم ليختموا القرآن كاملاً فى الدار لتحل فيها البركة وتطرد العكوسات وتبعد نظرة العين الحسَّادة، وبعسر العسر وافق الليثى على مسألة الختمة الأسبوعية التى وصفها بأنها تخرب البيوت العمرانة فطالبته جدَّتى بأن يستغفر ويحفظ لسانه من الزلل ويتوب، بعدها صار من المألوف أن يتجمع فقهاء الكفر كله عميان ومفتحون ويذهبون إلى دار الليثى والناس تتعجَّب وتضرب الكفوف وتقول إن «كاف» سرَّها «باتع» وكانت هى من ناحيتها تطلب كل أنواع الفاكهة التى تسمع اسمها مجرد سماع أو أنواع «النُقل» والحلوى التى يجلبها الناس من طنطا أو دمياط، تطلب ويسعى الليثى لتلبية الطلب مهما كان غاليًا أو بعيدًا، يسكَّ دكانه ويسافر ثم يجلب لها طلبها ويعود إلى الدار ليطعمها بيده حتى يكبر النونو فى بطنها، لابد أن «كاف» أحسَّت بأهميتها وفرحت، لكنها لم تكتف بذلك، فكرت أن تستثمر لهفة الليثى على الولد الساكن بطنها لصالحها، وربما وسوس لها شيطان أو وسوست لها النبوية بنت المرسى بأن تغضب أو تدَّعى الغضب، ذلك أنها من غير أسباب ظاهرة أو لأسباب فعلية ومخفية تركت دار الليثى وراحت لدار أمها، فسعى الليثى وراءها وكأنه يسعى وراء ما تبقى من عمره ليحرسه ويعيده إلى حضنه، سألها عن السبب الذى جعلها تترك

الدار وهو الذى لم يفرِّط فى حق من حقوقها أو يتأخر عن تلبية مطلب من مطالبها مهما غلا ثمنه فردَّت وسط المجلس المجموع فى مندرة دار جدتى عدلات وبصوت عال:

ـ عاوز تسقطنى ياليثى؟ تحط أيدك على بطنى وتدوس بيها على راس النونو، والنونو يعيط؟ عاوز تسقطنى ياليثى؟

ضحك كل من حضر، ضحكنا كلنا كبارًا وصغارًا، وتندَّر الكل وقالوا حكايات عن لهفة الآباء على العيال الساكنة فى بطون الأمهات، لكن الليثى خبط صدره بكفيه المفرودين فسمعنا رنين الخبطة ثم أنكر:

ـ أنا؟ أنا أسقطك، دى تنشلّ إيدى لما أضيَّع بايدى العيل اللِّى بستناه لجل يعوضنى عن شقا العمر كله. حد يصدق الكلام ده يا ناس.. حد يصدَّق .. ما حطِّتش ايدى على بطنها أبدًا.. أبدًا..

بذل رجال المجلس وحريمه جهودًا كثيرة لإقناع كاف بأن تعود إلى داره بعد أن أخذوا منه كل التعهدات والأيمانات بألاَّ تمتد يده ناحية بطنها أبدًا.. وقبلت الرجوع لدار الليثى، لكنها بعد أيام غضبت مرة أخرى وتجمع مجلس من الناس أكثر من المجلس السابق وجاء الليثى يتقافز ويقسم لكل واحد على حدة أنه لم يفعل معها أى شئ يؤدى إلى غضب بعد أيام من الصلح، وفى غمرة الحماس قال للناس فى المجلس إنه مستعد لو كان غلطانًا أن يكتب لها فدانًا باسمها وأنه سوف يبصم ويختم فى وجودهم ويشهدهم

على عقد بيع وشراء رسمى، طالبهم بأن تأتى «كاف» وتقول لهم عن الغلط الذى إرتكبه، وجاءت «كاف» ببطنها الذى تكوَّر وأوحى لكل من رآها بأنه من الممكن أن تلد بعد شهر أو أقل من شهر، وعندما طلب منها الحاج مرسى أن ترتاح بالجلوس على الكنبة جلست، وعندما سألها عن سبب غضبها قالت ببراءة ظاهرة أضحكت كل الحاضرين وأخجلت الستات:

- هو فاكرنى حمارة يابا الحاج مرسى، يبقى النونه فى بطنى ويعملنى حمارة؟ يركبنى؟

وانحطت كل العيون الحاضرة على الليثى الذى دارى خجله بضحكة متقطعة تجاوبت معها ضحكاتنا ثم ابتلع ريقه عدة مرات قبل أن يقول لها لائمًا:

- يخيبك.. داحنا كنا بنلعب ويَّا بعض وحلوين.. يا بت مش أنتى اللى..

وقطع الكلام.. لابد أنه تذكَّر إن القاعة مزحومة وأنه لا يصح أن يكشف عريه وعريها أكثر مما انكشف، وبعناد بغلة سمعناها تقول له مستوضحة:

- أنا اللى إيه؟ اللِّى إيه يا ليثى؟ شوف.. عايز تصالح اكتبلى الفدان اللِّى قلت عليه.. تكتبه ولاَّ أسقَّط نفسى وأموِّت النونو؟

كان الموقف بحسابات الكبار مسخرة فى مسخرة، لكنهم طاوعوها وضغطوا على الليثى ليوافق على كتابة فدان أرض من

ملكه باسم «كـاف» وهى على كل حـال زوجـتـه وأم ابنـه والأرض لن تطيـر يـا ليثى وأنت راكبـهـا راكبـهـا سـواء كـانت باسـمك أو باسم أم ابنـك الآتى بعـد شـهـر أو أقل من شـهـر، وانكتب فـدان أرض من أملاك الليثى باسم خالتى العبيطة «كاف» وبدلال رجعت لدار الليثى ببطنهـا المنفوخ، لكن عيـال دربنا شيـاطين، ولعله كان يوسـف أو ابن النعناعيـة هو أول من غنى الغنوة فردَّدها بعده عيـال الدرب ثم عيـال الكفـر كله، يغنونـهـا على إيقـاع الخطوات والتـصـفـيـقـات أمـام دكـان الليثى إن كان مفتـوحًا أو فى الزقـاق المدفـوسـة فيـه داره، يغنونهـا ويرمحون ثم يتجمعون رغم ما يسمعونه من شتائم وأوصاف مخجلة أقلَّهـا انعـدام التـربيـة وقلة الأدب، ومن النـاحـيـة الأخـرى ضـحكات تأييد من النسـاء الضـاحكات الغـامـزات بالشـفـاه والعـيـون لتـسـتـمـر الغنوة وينكاد الليثى أكثر وأكثر، يتهـامسن ويحـرضن العيـال صبيـان وبنات ليقولوها:

بقى يبقى النونو فى بطنى وعاملنى حمارة يا ليثى؟

وكمان كنت بتخبطنى بالكف عليها يا ليثى؟

وأصرخ وأنت ما تسمعش

آه يا بطنى آه يا بطنى آه يا بطنى آه يا بطنى

دا النونو لسه ف بطنى النونو لسه ف بطنى

لعله لم يحـدث فى كفـرنا إعـلان عن حـمل أكبـر من الإعـلان عن حـمل «كـاف» من الليـثى، ولابد أن النـاس كلهـا كـانت تنتظـر المولود،

يحسبون الأيام متطوعين باجتهادات مختلفة واعتمادا على تقديرات النبوية بنت المرسى أو أم إبراهيم أوغيرهما من العارفات بمسائل الحمل والولادة، لكن الولد اختار يوم ولادته ونزل للدنيا فى الساعة التى تسبق الفجر من دون مولدة أو حتى زعقة طلق أو صرخة، قال الليثى أنها كانت راقدة إلى جواره ثم انسلتت خارجة، حسبها ذاهبة لبيت الأدب فتركها وغفلت عيناه فترة لم يحسبها ساعة أو عدة دقائق أو أكثر أو أقل وصحا لنفسه فلم يجدها إلى جواره، ناداها فلم ترد، قام وأطلَّ فلم يسمع لها صوتًا، ظنها غضبت مثل المرَّات السابقة لكنه سمع صوتًا مثل زقزقة عصفور ورأى خط ضوء نحيل نافذ من تحت عقب باب قاعة الخزين، وقال إنه خاف فى أول الأمر لكنه توكل على الله واقترب ودفع الباب بحذر ليراها وهى تحمل مولودها على كتفها عريانًا ومربوطة سرَّته وخلاصه معزول والدم الذى نزل منها على أرضية القاعة محطوط عليه جلباب قديم وكل شئ تمام، كل ما طلبته أن يحضر لها ملابس النونو من الصندوق فأسرع يحضرها ويسألها إن كان المولود ولدًا فتجاوبه بالإيجاب، يكاد أن يطير من الفرح ويرمح لينادى النبوية بنت المرسى وأم إبراهيم وجدَّتى عدلات وكل نساء الزقاق ويسمع صوت المؤذن ينادى لصلاة الفجر فيؤجل الصلاة.

وزَّع الليثى على عيال الكفر حبَّات «الكراملة» مجانًا وفتح داره للمشايخ يوم السبوع يأكلون من لحم الخروف الذى اشتراه، اشترى للنبوية جلبابين ملونين ولأم إبراهيم جلبابين أسمرين، وفى زيارتنا لداره لأول مره أعطى ليوسف نصف ريال فضة وأعطانى مثله

فرفضت بشدة لكن أمى وأم يوسف وجدَّتى أمرننى بأن آخذه لأن ردّ الهدية يوم السبوع عيب وحرام ولأن الطفل المولود لن يشعر بالفرح أو السعادة إذا رفضت أنا نصف الريال فأخذته، وفى طريق العودة قالت أمى لى وليوسف:

- أوعى حد منكم يصرف النصف ريال بتاعه، إعملوه حرز وخلوه يجلب لكم السعد، دا قرش البخيل اللِّى زيه يطوِّل العمر كمان.

واتفقت مع يوسف على تخييط النصف ريال فى كيس قماش، وكل واحد منا نفس الشىء وأخفى نصف رياله، الفارق الوحيد أننى بعد مدة نسيت مكانه وتاه من ذاكرتى بينما كان يوسف يتحدث عن نصف رياله الذى أخفاه ويعرف مكانه وأنه سوف ينتظر اليوم الذى تتحقق فيه النبوءة التى قالتها أمى ويجلب له السعد.

لكن مساخر خالتى كاف لم تنته أبدًا، وقلت أنا ليوسف إن كاف عبطها عبط ناصحين فلم يفهمنى، كانت قد عملت لليثى «روشة» دائمة، أفقدته كل توازناته السابقة وجعلته يتصرف بمعكوس حساباته التى عاش يحسبها ويحرص على تنفيذها طوال عمره، لكن من كنَّا نحسبها عبيطة استطاعت أن تسحبه إلى شط بحر التنازلات وأن تجتذبه وتشدهً إلى المناطق الغويطة فيه فأغرفته مثلما كادت أن تغرقنى وأنا فى طفولتى المبكرة أخطو أول خطواتى - كادت أن تغرقنى فى بطن الترعة لولا مرور البهنسى صدفة، قالت «فرحانة» إن كاف سحرت الليثى وغيَّبت عقله فما عاد بقادر على أن يفصل الصح عن الغلط أو الوعى وانعدامه، وبعد أن كان حريصا

على مــاله إلى حــد الشَّح على أقــرب النــاس له تعلم الســخــاء والإســـراف فى العطاء ولكن «لكاف» وحــدها، كل غــضــبــة من غضباتها التى تتكرر كانت تعنى تنازلاً جديدًا عن شىء من أملاكه باسم «كاف» أو ابنها «كاف» بوصاية أمه «كاف» وكان الليثى يدافع عن تصرفاته بكلام مؤداه أنه ينقل ما يملكه من جيبه اليمين إلى جيبه الشمال، وأنه عندما يكبر الولد الذى هو ابنه فانه سوف يستعيدِ كل ما كتبه باسمه أو باسم «كاف» لعلَّ الليثى كان قد تعب من كثرة البخل والحرص الذى حوَّله إلى حارس مسعور على كل قرش وكل مليم من ملاليمه، تعب وفكر أن يريح نفسه زاهدًا على نحو مفاجئ من الدنيا ومال الدنيا أو أنه كان يصدق نفسه وهو يقول عنها هبلة وأنه يريحها بكتابة الورق، لكن أصعب شئ واجه الليثى بعد أن تنازل تقريبا عن كل شئ هو الفضائح التى كانت تسببها له «كاف» كل مرَّة تغضب ويجتمع مجلس صلح فى دار جدَّتى عدلات، كانت «كاف» تأتى وتتكلم بكلام مكشوف وفاضح عن أمور تحتانية لا يصح مناقشتها أو حتى التَّفوه بها أمام غرباء أو صبية صغار من أمثالى أنا ويوسف، لكنها كانت تقول عن كل شئ يحدث بين جدران المقعد أو القاعة حيث فراش النوم ودون حذر أو احتشام، تتهم الليثى بأنه كذا أو كذا، أو أنه فاقدا لكذا أو كذا، وكلام فارغ كثير لا تجسر على إعلانه إلاَّ زوجة عبيطة مثل «كاف».

وبعد أن كان الليثى بحسابات الناس فى كفرنا شخصًا كريهًا وعفنًا، تحوَّل بفضل «كاف» إلى ضحية تستحق الإشفاق، ويومًا فى إثر يوم أصابه وسواس من كل الناس ومن كل شئ وتوهم أن الجميع

يتآمرون عليه ليس من أجل ماله وأملاكه التى انكتبت باسم زوجته وابنه «كاف» وإنما من أجل قتله بالسلاح أو دس السم له أو لابنه فى أى طعام أو شراب، كان يأخذ الولد معه إلى أى مكان، يحوطه بالبشكير إذا نام ويحمله على صدره ويتشكى للناس من عبط أمه التى حاولت أن تحرقه بالماء المغلى النازل من فوق النار قائلة أنها سوف تعمل له حمامًا ينشطه ويزيل الوساخة عن جسده، أو أنها مرَّة بلَّعت الطفل ورك بطة مسلوقة قائلة أنها تغذيه ليكبر وتطلع له أسنان، ولابد أن الناس فى كفرنا صارت تنظر «لكاف» بارتياب لأنه فى حالة موت الولد فإن كل أملاك الليثى سوف تؤول إليها بحكم الأوراق المكتوبة والتى لا يعرف أى إنسان مكانها، حتى جدَّتى عدلات بدأت تشعر بخطر «كاف» وتتشكى منها وتتهمها بالعبط والجنون، تحتمل إتهامات فرحانة بأنها وراء كل ما جرى وتقسم لها إنها مظلومة وإن البنت انفلت عيارها وربما ركبها جنِّى من تحت الأرض سيِّرها بحسب ما يشاء لأنها كانت تسمع منها كلامًا بأصوات رجالى، كلام قبيح لا تجرؤ على التفوه به لكنها كانت تسمعه، لكن فرحانة كانت تتشكك فى مثل هذا الكلام وترى أن الليثى انخطف ماله وأرضه بتدبير وترتيب، وربما قاطعت جدَّتى فترة قبل أن يموت الليثى على باب دكانه المسكوك والطفل على صدره ملفوف بالبشكير يصرخ قبل خروج الناس لصلاة الفجر، وكثر الكلام وقالوا أن «كاف» دسَّت له السم أو سلَّطت عليه الجن الساكن تحت الأرض، أو أنه نال ما يستحقه، لكننى قلت ليوسف بعد أن دفنا خاله الليثى إن كاف بنت عبيطة فعلاً لكن عبطها عبط

ناصحين، وصدقنى هذه المرة ثم سبَّ خاله الليثى وتوقع له دخول النار حتفًا.

لكن دليلة راحت منى فى الزحمة وما عدت أراها إلا نادرًا فى دار جدَّتى رغم وجودها الدائم فى الدار، كأنما خاصمتنى لأننى لم أطلب بقاءها فى دارنا ولم أعد أقترب منها أو أفتعل الأسباب للحديث معها، وكان يوسف يحدثنى عنها ويصف طراوة جسمها فأشعر بالغيظ منه وأطالبه بالكف عن قلة الأدب فيسألنى بوقاحة إن كنت قد اقتربت منها وتحسَّستها من عدمه، لا أرد عليه وربما أوبخه أو أشتمه، يحدثنى عن زمن خصوبتها الذى أوشك على الانتهاء فأسكت بينما يتحوَّل هو إلى ذبابة زنَّانة مقلقة تذكرنى بموقعة المتبن وتجعلنى مسئولاً عنها بالتخلى وقد ربتنى وأطعمتنى وكانت ونسى وبلسم جرحى الذى طاب على يديها وما كان من الممكن أن يطيب لولاها.

الغريب أن دليلة كانت مثل شمعة يخبو شعاعها كل يوم أكثر من اليوم السابق، كان صدرها الرجراج يتضاءل ويتضاءل ويتضاءل، وكان لحم كتفيها وذراعيها وفخذيها يتناقص ويتناقص حتى بدت لى مرة مثل خيال مآته مستور بجلباب فضفاض، حتى شعرها الأسود غزته خصلات من الشعر الأبيض، ساعتها شعرت بالحزن من أجلها وكدت أن أبكى، لكنها عاتبتنى وكأنها قرأت أفكارى وقالت:

- وأنت ح تقهر روحك ليه؟ دا نصيبى وانا راضية بيه، ما هو أنا لو كان لى ضهر كنت انسترت ف دار وبقت لى خلفه من زمان.

وساعتها شعرت بالغضب من نفسى ومن أمى وجدَّتى وخالتى «كاف» وأم يوسف وأخاها الليثى ومن النصيب غير العادل الذى يتقسَّم على الناس دون أى مبررات، فها هى بنت بنوت فى عمر أمى وكانت ذات يوم جميلة ومرغوبة وكل ما كان ينقصها هو الغزوة والناس المستعدة لتجهيزها وتشريفها فى دار العريس الذى لم يأت أبدًا، طلبوا كل البنات ما عدا دليلة، حتى العبيطة طلبها الليثى ربما طمعًا فى جهازها الذى كانت جدَّتى قد جهزتها به وفاق بما لا يقاس جهاز أمى، أو ذهبها الذى امتلكته وتباهت به رغم العبط قبل أن يأخذها الليثى، لكن دليلة المكسورة الجناح معدومة الأب والأم والتى لها علاقة قرابة بعيدة من جدَّتى بقيت حتى جفَّت وانطفأ سراجها ببطء، كنت أراها على فترات متباعدة فى دار جدَّتى ساكنة ومستسلمة وحزينة، لكنها كانت تثور أحيانًا ويفشل الكل فى تهدئتها فيتباعدون ويتركونها تأكل نفسها كما يتناصحون، حتى جدَّتى كانت تفعل:

ـ سيبوها لوحدها لحد ما تروق.

ولابد أن دليلة كانت تروق وتهدأ، لكنها ظلت مثل الجرح فى قلب القلب من تلك الدار التى تحكمها وتتحكّم فيها جدَّتى وتردد دائمًا:

ـ واحنا فى إيدنا إيه؟ نصيبها مايل ومالهاش بخت، دى شاخت وفرَّغت زى الزرع لما يخوَّخ ويفضى لما يفوت الأوان.

* * *

واندفن حلاق الحمير أبو يوسف بعسر العسر فى ذلك النهار الذى غرقت فيه دروب الكفر بمياه الأمطار فأحالت السكك إلى برك ومسارب من الطين اللَّزج الذى تنزلق من فوقه المداسات فى كل خطوة، من جنب الحيطان شالوا نعشه عدة خطوات ثم خلعوا مداساتهم وشالوه من وسط الدرب حتى طلعوا به من الكفر وركنوا الخشبة لأنهم لم يجدوا من يجيرهم أو يحمل عنهم، ولأن كرامة الميت فى كفرنا هى دفنه فقد أكرموه وحملوه ثم دفنوه وعادوا بالخشبة الخالية حفاة الأقدام، وفى الليل كنت أتساند على حديد الشبابيك ونتوءات الجدران والأبواب حتى وصلت إلى مندرة الأهالى ووقفت مع يوسف الواقف وحده حتى وصل خاله وابن خاله وعدَّة أنفار قلائل ثم جاء الشيخ حسنين مقرئ الرواتب وتلى ما تيسر من سورة «التحريم» بصوته الخشن الطالع بعسر من بين نحنحاته التى لا تنتهى وسعلاته التى لا تهدأ، وكان ضوء الكلوب يضئ بالكاد نصف المندرة الأيمن الذى تناثر فيه من جاءوا مثلى للعزاء، يتهامسون خطفًا بين كل آية وآية ويتخفُّون فى سعلات الشيخ حسنين وتتفك عقدات ألسنتهم عن مشهده ويوم عزاءه الذى يشبه حياته نفسها، حتى يوسف نفسه لم يؤجل رأيه فى الرجل، كان يجلس إلى جوارى عندما همس بضيق:

- ارتاح ولا ريحناش أبدًا، لا فى حياته ولا مماته.

أبديت دهشتى فأكمل:

- بعدين ح أقولك.

مالت رتينة الكلوب للأمام فبدت مثل عجوز محنى يتساند على عكاز ضعيف، تناقص الضوء قبل أن تسقط الرتينة ولا يتبقى غير اللهب المندفع مثل وابور لحام لطفى سمكرى بوابير «الجاز» وسمعنا أصوات متنافرة تسأل عن رتينة جديدة أو لمبة جاز.. حدث هرج وقلق فى ركن المندرة بينما الشيخ حسنين يختم ما تيسر من سورة التحريم، ثم أطلق سعلاته ونحنحاته بحرية لا يحدُّها حد ولا يكتمها أو يداريها وقت تلاوة القرآن، وكنت فى الضوء الشحيح أرى بعض الأشباح تترك المكان خجلانة أو تدخل إليه كسلانة، الخارج أكثر من الداخل، وأحسست بغمزة يوسف فى زندى المجاور له وكأنه يشهدنى على ليلة أبيه ثم يقوم ويدعونى للقيام ويقول بصوت يائس لكنه واضح:

ـ خلاص بقى يا رجاله.. الليله باينه من أولها.. أتفضلوا روَّحوا.. ما نجيلكوش فى حاجة وحشه.

لابد أن من تبقوا فى المكان كانوا ينتظرون عبارته فتحركت ظلالهم فى نصف العتمة ونصف الظل بأقدامهم التى تتحسس الأرض بالخطوات حتى تصل إلينا، تمتد الأيادى الضريرة بحثًا عن الأيدى شبه الضريرة لتسلم وعبارات العزاء المألوفة تتردَّد ويرد عليها مثلما أرد، ربما لم يمض من الوقت أكثر من دقيقة عندما ساد صمت إلاَّ من سعلات الشيخ حسنين وبصقاته ولعناته التى يصبها على المعسل ومن أشار عليه بتدخين المعسل الذى يقطع الأنفاس ويكتم على الصدر أكثر من كوابيس الليل، وشعرنا به يقترب ويقول بصوت سالك:

ـ المرحوم الله يرحمه ويجعل مثواه الجنة ميت ف يوم مبروك، ما هى النطره دى يا يوسف يابنى خير وبركه من عند ربنا، بس ماحدش ف الزماندة بيعرف قيمتها.. أنت ح تعوزنى دلوقت يا يوسف ولاَّ أعدى عليك الصبح ف النور.. بقول النهار له عنين أحسن..

ـ ابقى فوت الصبح يا شيخ حسنين.. ربنا يسهل.

وعلى ضوء لمبة الجاز التى كانت فى يد صبية واقفة رأيت عين الشيخ حسنين الحولاء تنظر إلى يوسف والأخرى فى اتجاه باب المندرة بغير ود وقبل أن ينفض بكفيه المفرودين فخذيه من ناحية السيالتين وكأنه يشهدنا على خلوهما حتى من قرص الرحمة وتمرها، كان يتحرك متباعدا عن المكان ببطء وهو يطلب لنفسه الستر ونور البصيرة ويطلب لأمواته وأموات المسلمين الرحمة والمغفرة.

كانت دارنا أقرب لمندرة الأهالى من دار يوسف، تساندنا على الحيطان والشبابيك وبقايا مطر خفيف يتساقط، وعندما أوقفته دون كلام عند باب الدار لم يتحرك، أزحت الباب الموارب واتجهت بيوسف إلى المندرة الشرقية، دعوته للجلوس فجلس، وعندما بدأت أواسيه فى مصابه بحسب قدرتى على المواساة أجهش فى البكاء، ذكرت له أن لكل أجل كتاب فقاطعنى وواجهنى:

ـ عارف.. بس أنا مش بعيَّط عليه، أنا بعيَّط على حالى.

لم أفهم مقصده بينما استمر هو بنفس الإيقاع:

ـ تقـدر تقـولّلى عـملّلى إيه؟ لا مـال ولا عـلام ولا ورث، خـيـبنا وضيـعنا وحط مناخيـرنا فـ لأرض وهو حى، وفـ موتـه خدنا على خوانه وكشفنا أكتر ما أحنا مكشوفين.

حـاولت قـدر اسـتطاعـتى أن أهدئه وأخـفّف غـضـبـه مـن الرجل الذى مـات وانتهى أجله وأن أطمـئنـه بأنه سـوف يشق لنفسـه طريقًا فى الحياة، ذكـرت له بعض الأمثلة عمن كان يمتلك وباع أمـلاكه ومن كان خاليًا بلا علم ولا مـهنة أو شـهادات ثم انفـتحت له أبواب الرزق من حيث لا يحتسب، كنت أستعين بحكايات أبى التى كان يرويها فـى سـاعات السـمـر ليـزجى أوقات الـفـراغ، ولابد أن كـلامى أراحـه وبثّ فى قلبه قدرًا من الطمأنينة على نفسه ومصيره، وعندما دقت دليلة باب المندرة الموارب قمت لأفـتحـه على مـصـراعـيـه وأسـاعـدها فـى إنزال صينية العشاء، قالت هى فى أذنى توصينى:

ـ عشّيه.

أومـأت لهـا أطمـئنهـا فـتبـادلـت هـى مـعـه عـدة عـبـارات بعـيدًا عن سيـرة الموت وردّ عليها فبدا عليها أنهـا اطمـأنت عليـه قبل أن تـخـرج وتسـحـب بابى المندرة وراءهـا، دعـوته لأن يشـاركنى العـشـاء فـابتلع ريقه وتذكـر:

ـ ولو أنى على لحم بطنى.. بس ماليش نفس.

ـ ح نفـتح نفس بعض.. أنا زيك بـرضـه جـعـان ومـا أحـبش آكل لوحدى، هو أنت غريب ح أعزم عليك؟ بسم الله..

بتردَّد أزاح تردَّده وأنا أذكِّره بالقرابة والصداقة والجهد الذى بذله من أول النهار، كنت أشعر أكثر من كل الأوقات الماضية أنه ضحية ويستحق المساعدة والإشفاق، وتذكرت ما سمعته من أنه يتردَّد على سوق السبت بحثًا عن مساحة بين أتباع السماسرة ليكفل لنفسه المعيشة فحدثنى عن السوق الذى هو مثل البحر الغويط تلتهم فيه الأسماك الكبيرة ما يعترض طريقها من أسماك أصغر أو أضعف وكيف أنه يفهم الملعوب لكنه مازال تائهًا فى التفاصيل وأنه لو أمتلك بعض المال لامتلك معه الجرأة على المغامرة بدلاً من الدوران حول السماسرة الكبار يسترضيهم ويساعدهم على الربح الكثير حتى من فلاحين كفرنا من أجل ما تجود به نفس السمار الكبير، وكلهم يتميزون بالشّح وكلهم غرباء.

هوَّنت عليه الأمر قائلاً أن المال يمكن تدبيره فأطرق متفكرًا لحظة وهمس:

ما هو مش بالكلام.. ولما تتقفل السكك ف وشِّى ح أعمل أى حاجة، أتاجر ف مخدرات، أساعد عصابة من عصابات الشراوده أو غيرهم لجل أعيش.. كلام بينى وبينك المرحوم اللِّى اندفن النهارده كان بيزقنى أعمل كده.. الراجل ماكانش بيحب حد خالص، كان بيزرع ف قلبى الكره لكل الناس، مش إنتو ناس فى حالكم؟.. لا كان بيحبكم ولا كان عاوزنى أتصاحب عليك، ولما كانت تيجى سيرتك يقول إشمعنى الأهطل ده يتعلم ويروح الجامعه وحيبقى له مركز ووظيفه غير الورث اللِّى ح يورثه كمان.. وكان يزن ف ودانى

ووداں أمی بكلام مـا يتـقـالش على أبوك وأمك، ولما يشـوف حـد م
اللى بيسبّهم يبقى ما عندوش مانع يطاطى على إيده يحبها لجل ما
ياخد منه سجاره فيها نفسين دخان، أمى كانت رامية طوبته من
زمان، ما أنت عارف إن ستّك وستّى عدلات هى اللّى فاتحة الدار
من زمان.. وح تدينى فلوس أنزل بيها السوق.. ح تدينى فلوس.

- وأنا كما ح أساعدك يا يوسف.. ح أساعدك باللّى أقدر عليه.

قلتها مندفعًا فنظر ناحيتى باندهاش وكأنما ينكر علىَّ حماسى المفاجئ مستبعدًا أن أكون بالفعل قادرًا على مساعدته، كدت من فرط حماسى أبوح له بالاتفاق الذى تم بينى وبين أبى والذى أوصانى بأن أخفيه على كل الناس حتى أمى وأخوتى، هو اتفاق يقضى بأن يدفع لى مصاريف الجامعة لأحتفظ بها لنفسى إذا حافظت على تفوقى وحصلت على المجانية أو أن أدفعها للجامعة إذًا لم أحافظ على المجانية والتفوق، وكنت للعام الرابع أضعها عشرات جنيهات جديدة فى مصحف حصلت عليه هدية من مديرية التعليم مع مبلغ عشر جنيهات لأننى كنت من أوائل شهادة الثقافة، وبين صفحات هذا المصحف كنت أحتفظ بكنزى الذى يتنامى ويزيد ببركات المصحف، لكننى بينما أفكر فى إزاحة تلال المرارات التى كانت تغطيه لم أجد فى خيالى أفضل من هذه النقود التى اكتسبت البركة والتى هى حصيلة لجهد ومجاهدة، لعلنى كنت متهورًا فى إخلاصى ليوسف فى تلك اللحظات، لكننى فعلت ما ظننته إنقاذًا لروحه الحائرة وإسعادًا لقلبه المدفوسة فيه بذرة

الكراهية لكل الناس، لعلنى كنت أتصور نفسى ساعتها قادرًا بمثل هذا السلوك على تعديل المسار وحماية يوسف من المشى فى سكة الأشرار، المهم أننى أخرجت المصحف من علبته الحمراء المكسوة بالقطيفة وطلبت من يوسف أن يضع يده على المصحف ويقسم:

- وحياتك يادى المصحف لأمشى فى سكة الخير وأبعد عن سكة الشر.. قول يا يوسف.. بس قول..

وقال يوسف وهو ينظر ناحيتى متأملاً ومتفحصًا وكأنما أصابنى مس من الجنون، لكن دهشته لم تطل عندما طلبت منه أن يفتح المصحف ويأخذ كل ما فيه مساعدة، جمع يوسف الأوراق المالية وقال لى حاصل الجمع، لم يكن مبلغًا هزيلاً لا يغير المسار، ولم يكن مبلغًا كبيرًا يسمح له بالمنافسة مع السماسرة الكبار، لكنه كان بين بين وكان بالإضافة لذلك كل ما أملك، وظل يوسف يعد النقود ويعيد ترتيبها سألنى هامسًا:

دى فلوس أبوك..؟

لأ.. فلوسى.. خليهم معاك.. مش الأهالى بتساعد بعض؟ المهم تكسب لقمتك بالحلال وتبعد عن سكة الشر..

ولابد أنه فكر كثيرًا قبل أن يضع النقود فى سيالته وأعيد أنا المصحف الخالى إلى علبته المكسوة بالقطيفة الحمراء ثم أحمله إلى مكانه فى درج المكتب وأقفل عليه بالمفتاح.

بعدها انتقلنا أنا وهو إلى «الحاكورة» الصغيرة الملحقة بمندرة الضيوف والمفروش فيها سرير كنت أستخدمه وحدى فشاركنى فيه

يوسف، سمعته يتنهد بارتياح وقد تمدَّد إلى جوارى، تغطينا باللَّحاف فشعرت بالدفء، لكنه بعد لحظات كان يتقلب حول نفسه ويسحب اللحاف يلف به نفسه ويوشك أن يعرينى فأستعين بعباءة أبى التى كانت مطوية على شباك السرير أغطى بها الأجزاء البردانة.

وفى المنام كان يوسف يطاردنى ويحاربنى وكان يتبدَّل بحلاق الحمير يطاردنى ويلومنى وأقسم له أننى لست خصمه أو خصم ابنه يوسف فيصرخ يوسف:

أنت دبَّانة وأنا عنكبوت.. أنت دبَّانة وأنا عنكبوت.

فأحلف له بالمصحف أننى إنسان طيب لا أضمر له الشر وأتمنى له الخير، لكن حلاق الحمير يطلع لى من الناحية الأخرى ويكايدنى بالنداء:

يا أهطل.. يا أهطل.. أنت دبَّانة وأنا عنكبوت.

يختلط الصوتان ويختلط الوجهان وأصبح محاصرًا بين يوسف وحلاق الحمير، أرمح وحلقى جاف والحرب التى قامت بلا أسباب لا تنتهى أو تهدأ.. حتى بدا لى أننى سمعت ديك البرابر يؤذن فى وسط الدار فقمت أبحث عن القلة أروى بها عطشى ثم أعود وأتغطى بالعباءة تاركًا ليوسف اللحاف الذى لفَّه حول نفسه بإحكام، ولم أكن أدرى إن كان الفجر على وشك الطلوع أو أنه مازال فى الأفق البعيد، ولابد أنها كانت نسمة هواء مفاجئة هى التى أطفأت سراج المصباح ويوسف يشخِّر بصوت مسموع.

* * *

لكن الناس الدكارنة غير الناس الشراودة، الشراودة أصلهم من نسل عبيد مجاليب وليست لهم جذور ضاربة فى بطن الأرض شأن أولاد الأصول، فيهم رغم زيادة مالهم والأرض المملوكة جديد صفات العبيد القدامى والأسياد المحدثين، داخل نفوسهم وساوس ضد كل الناس وفى معاملاتهم بقايا خسَّة ودناءة تتخفَّى بأغلفة شفافة من المراءاة المكشوفة فى ساعة المنح الشحيح ونادرًا ما يمنحون، ربما كانوا فى الأصل سماسرة صغار أو مجرد وسطاء، وإذا اختار الواحد منهم بين المبادلة والاستلاب اختار أن يستلب أى شئ حتى ولو كان إحساسك بالأمان مع نفسك أو مع غيرك متوهمًا أنه الكسبان، صحيح أنه كلام يتداوله الناس عنهم فى كل الناحية ولا يصح أن يكون قاعدة مؤكدة عن صنف بأسره تتفاوت فيه الصفات، لكن متى أخطأ الناس فى أحكامهم بشكل إجمالى عن صفات الناس؟

وقال واحد من وجهاء الناحية إنهم فى الأصل أولاد خدَّامات، غسَّالات ومرضعات وخبَّازات وطبَّاخات وكافة كافة أشغال السرايات الكبيرة ملك الأسياد الكبار، وربما بسبب ذلك الأصل الوضيع يتصفون بالوضاعة، ويقول أيضًا أن تبدل أحوالهم وربما وجودهم يرجع لأيام المماليك قبل دخول الإنجليز برَّ مصر والذين استخدموهم فى البلد جواسيسًا وأعوانًا لهم ودسُّوهم فى العبِّ الجوانى وطاولوهم بالسلاح، ولأنهم فى الأصل غرباء عن أولاد البلد نفذوا المطلوب، زرعوا الرعب فى قلوب وما تردَّدوا فى القتل أو قطع الطريق على الضعفاء والمساكين، جلبوا السم من أرض

الحجاز ودسُّوه لمن عرف أسرارهم وتاريخهم أو حاول أن يعرفهم ويكشفهم، من غيظ الوجيه منهم كان يسألنى بعد زواج يوسف من أصيلة:

ـ إيه أخبار ولاد الغسَّالة فى كفركم؟

كنت أجاوبه بالسين ويفهم عنى ولا يفهم من يكون فى المكان موجودًا أو ربما كان الواحد منهم يفهم المقصود ويبدى عدم فهم الكلام، نوع من التواطؤ بالسكوت أو علامة على التضامن من غير كلام.

وعندما فوجئت مع ناس كفرنا كلهم بدخول يوسف على ابنتهم أصيلة فهمت الملعوب وفهمه الناس، وقال البعض للبعض إنهم ركبوه وداسوا بنعالهم دروب الكفر يحملون السلاح على أكتافهم وعندما يتجاسر أى نفر من كفرنا ويسأل يوسف أو أى واحد من الناس الشراودة عن زيارتهم المتكررة لكفرنا الغلبان وما كان فى أى وقت يهمهم أو كان فى الحسبان؛ يجاوبه بأنهم يعرفون الأصول ولا يتأخَّرون عن تأدية الواجب نحو زوج ابنتهم الذى صار منهم، والمناسبات أكثر منهم الشراودة على قلوب العوف.

لكن المسائل زادت عن حدّها المحسوب حتى ولو بإضافة بعض التجاوزات، لم يعد الموضوع مجرد بنت أسمها «أصيلة» تزوجها نفر اسمه يوسف، ولا صار حكاية مواسم ومناسبات وأصول يؤديها أهل البنت لمن سترها ودارى لحمها وأخذ من أهلها أربعة وعشرين ضلعًا كما كان يحلو لهم أن يتشدَّقوا متباهين، لكن إذا كان من يتكلم فى

كفرنا مجنونًا فلابد أن يكون للمستمع إليه عقلاً يزن به الكلام، سوف أعبر تلك المرحلة المكشوفة والتى بدا للبعض فيها أن الشراودة ركبوا يوسف وركبوا دروب الكفر أيضًا، بينما أكد البعض أن يوسف هو الذى ركبهم وتدلّت من على ظهورهم ساقاه، وأنا من ناحيتى ملت لهذا الرأى وتأكد بعد نظرى فى الموضوع، ماذا كان يملك يوسف ليعطيه مقابل حمايته وكثرة زيارته ودعمه بكل شئ.. كل شئ حتى يأتى اليوم غير المحسوب حسابه ويتمكن الشراودة من تنصيبه عمدة لكفرنا الموعود بكل الوعود؟

بحساباتى أنا أن يوسف والشراودة وجهان لعملة واحدة، يوسف ابن غسَّالة وعجَّانة وطبَّاخة وخبَّازة وكان من الممكن أن تكون مرضعة لأى عبد من عبيد قلاوون لكن لم يسعدها الحظ، ثم أن يوسف ابن رجل نطع تعلم على كبر سنه «الزيانة» فى رؤوس يتامى الكفر بالمعنى الحرفى للكلام، فبماذا كان يمكن أن يحلم؟ وإذا كان الشراودة كما اتفقنا غرباء عن الناحية أو على الأقل زرع على سطح الأرض معدوم الجذور وفى أحسن الأحوال هزيلها، فإن يوسف نفسه والناس الشلبى كلهم بشهادة كل من رأى وشهد من نسل مجاليب لا يعرف أى واحد منهم، أى واحد جده الخامس فى أحسن الحالات.

لو اتفقنا على البدايات فلن نختلف كثيرًا فى النهايات.

يوسف ركب أصيلة والناس الشراودة، امتلك ما لك يكن هو وكل ناسه يحلم مجرد حلم بامتلاكه بقوة سلاحهم وسوء سمعتهم فى

الكفر والناحية، وانتهى شوط فى مشواره أو مشوارهم بإزاحة الناس العوف من السكة وتنصيب يوسف عمدة على كفرنا، كنت استرجع صورة خليفة لواحدة من الطرق الصوفية وقد اركبوه حصانًا وسنَّدوه من كل الجهات والرجل يتهزهز وكأنه نصف ميت نصف حىٍّ أو مسطول إلى حد العجز عن الإدراك لكنه مدعوم ومسنود ومقصود أن يكمل المشوار.. مشوار الزفة فى مولد البدوى.

على هذا النحو كنت أرى يوسف بعيون الناس، لكننى بينى وبينه وبينى وبين نفسى كنت أراه على نحو مغاير، بينى بينه رجل غلبان لو أننى أستعرت تعبير أبى الذى كان يطلقه على كل الناس، الخصوم والسفلة والقتلة والأوغاد قبل الضحايا والأبرياء والمغدورين، كانت حسابات أبى توشك أن يتساوى فيها الظالمون والظلمة، القاتلون والقتلة، الحاكمون والمحكومين، ولابد أن هذه الحسبة كانت ترضى يوسف وترضينى فى بعض الحالات، كان يبدو لى فى بعض الحالات وأنا مسطول مع يوسف أن المسألة معجنة أنخلط فيها طمى النيل بالوساخة من كل شكل ولون، ومادام البنى آدم نزل من بطن أمه وعاش فهو غلبان كما قال أبى وكرر بأن التكرار يعلم الشطار.

وبينى وبين نفسى كنت أراه مثل فرد حمام مطلوق من «غيَّة» فرد حمام مجهول حتى بالنسبة لصاحب «الغيَّة»، لكنه انطلق منها وحلَّق فى الفراغ واستطاع أن يتقدم السرب كله، فرد حمام غير محسوب حسابه ولايعرف صاحبه سعره على وجه التحديد أو التقريب لكنه

عمل المفاجأة وقاد سرب الحمام الذى زاد عدده بانضمام بضع حمامات تائهة فى الفراغ ثم باستجلاب سرب آخر حيران كان يحوِّم فى السماء، وبصيده حطَّ على جدران «الغيَّة» ليشهد أتباعه وهم يسكنونها، وفى مثل هذه الحالات يفرح صاحب «الغيَّة» بفرد الحمام سواء كان محترفا أو هاويًا لا يعرف قيمة الفرد الكسبان، وقد ينشغل به فترة ثم ينساه، لكن فرد الحمام فى كل الحالات سوف يبقى وينتظر لحظة الانطلاق الجديد وانفتاح سقف «الغيَّة» على الفراغ، وربما مرَّة أخرى أو عدَّة مرَّات يلفت إليه الأنظار قبل أن يختفى فى الفراغ ويتحوَّل الأمر بالنسبة له إلى مجرد طيران بلا هدف، مجرد طيران فى الفراغ سواء كان متبوعًا بأسراب الحمام أو تابعًا لفرد حمام قوَّاد يصعد به فى اتجاه الشمال أو ينزل به إلى الجنوب، وربما يطير وحده فى اتجاه الريح، إن كانت لناحية الشرق اتجه شرقا وإن كانت لناحية الغرب طاوعها وتغرَّب، وربما يتعلَّم وهو فى الفراغ قوانين البشر الأنصاف الذين يميلون بحسب الأحوال فى العواصف أو مع النسيم السارى بنعومة ليضمنوا المكسب على طول الخط ولا يتعرض الواحد منهم لأى خسارة، ولابد أن صاحبنا فرد الحمام الشارد لم يكن مشغولاً بصاحبه أو صاحب «الغيَّة» وهل يملك فرد حمام شارد طيَّار فى فراغ.. المقدرة على معرفة «الغيَّة» التى أنطلق منها؟ والتى كان من الممكن أن تتحوَّل بالغريزة إلى محطة وصول حتمى لو أنه فيها نشأ؟ هو مجرد فرد حمام قادر على النسيان وهجر المكان إذا طاب له المقام فى حيِّز جديد يتوفر فيه الحب وقطرات المياه ناسيًا تلك

المساحة التى تتشابه معها كل المساحات من سطوح البيوت التى ابتنى كل مالك فيها على سطحه للحمام «غيَّة».

متى كانت بداية الهجر والنسيان «لأصيلة»؟. تلك التى سوَّدت أيامه زمنًا وتحامل واحتمل، كان يتشكى من غلظة فى طباعها وشراسة فى عينيها وقوة فى عباراتها، لا ليونة ولا طراوة ولا نعومة للبدن ولا حتى على طرف اللسان، كان يسمى مشاجراتها ومشاحناتها فى أول الأمر دلع عوانس، لكنه كان يحتمل، لكنَّها بدأت تتطاول عليه، تسَّبه وتلعنه وتهين ناسه ويحتمل، كانت فى رأسه بحسب ما قال فكرة مؤداها أنه مادام قد نزل البركة العطنة فلابد أن يخرج وقد انعاص بفائدة، مكسب، أى مكسب، ولابد أنها كانت تراه عريانًا وتفهمه فتزيد من جرعات النكد ويبتسم، ولابد أن شحنة الشراسة والغلظة وزفارة اللسان تناقصت بقصد منها وربما لتريح نفسها أو لعلها كانت قد اطمأنت إلى أنه قادر على احتمالها أكثر من قدرتها على عكننته وإثارة غضبه وتزويد الهموم على قلبه، لكنه تجاسر وطلقها أول طلقة وكأن جرحه بعد العزل أنساه الحذر.

كانت أيامه تمضى متثاقلة وتوشك أن تصيب حركة أيامى بالعطب، كان الحال باقيًا على ما هو عليه، الصول عرفان لابد مثل نمر شرس أو ثعلب مكَّار فى النقطة الثابتة، لكن بعض الأشقياء من الناس الشراودة ظلَّوا يتوافدون ويتبطأون عند مدخل الكفر أو فى بعض دروبه، كأنهم خيالات هدفها التخويف أو بث الرعب فى قلب يوسف، ورجال الحكومة يتسكَّعون فى بيوت الناس، يطلبون أكواب

الشاى بألسنتهم وأحيانًا يتجاسر الواحد منهم ويطلب لنفسه لقمة يسد بها جوعه لأنه جاع، لكن الحقيقة أن ناس كفرنا عملوا ما كان يليق بهم وأدوا واجب الضيافة وأكثر للعساكر والصول والمخبرين رغم أنها كانت ضيافة إجبارية، لكن الناس قالت لبعضها أن وجود رجال الحكومة فى الكفر يفرض الأمن ويحمى الأرواح، صحيح أن بعض الجرائم كانت ترتكب فى وجودهم لكنها بالقطع كانت أقل من أيام عمادة يوسف والقتل المتبادل بشكل علنى وفى وضح النهار، المهم أن رجال الحكومة حصلوا على مقابل وجودهم من بيوت الناس وخير بيوت الناس، بل أنهم كانوا يتمادون فى الأخذ أحيانًا وهم راجعون لبيوتهم وأهاليهم فى أجازات قصيرة رتَّبوها مع الصول عرفان بشكل دورى، كل رجلين أو ثلاثة فى يوم، وكل واحد منهم يحمل سلَّة مملوءة بالزبد والجبن والفطائر والأرز المدسوس والطيور المذبوحة والمحمَّرة على سطح الطاجن أو البرام، عسل نحل وكيزان ذرة مشوى وفريك قمح وبلح حيَّانى وبصل وثوم، وكل واحد منهم وما يطلبه باللِّسان أو يتصوَّر الناس أنه سوف يرضيه.

لكن اسم الدكارنة كان يتردَّد على لسان يوسف والناس الشلبى بكثرة، يمتدحونهم ويصوَّرنهم على هيئة فرسان قادرة على إنصاف المظلوم الذى هو يوسف من خلال علاقاتهم بالحكام الكبار وأعضاء البرلمان ومعرفتهم الأكثر قربًا بلواءات الداخلية ووزيرها الذى يعرف كل خطايا الشراودة، تحوَّل اسم الدكارنة إلى فزَّاعة لها صوت لا تصيب، والإشاعات تتوالد وتتكاثر وكأنها بطون أرانب ساكنة فى جحر مفتوح من عدة جهات، قالوا أن الشراودة شغَّالين

فى الأصل عند الدكارنة ولحسابهم، وقالوا أبدًا لأن الدكارنة صنف طاهر أصيل ونبيل ومستحيل أن يتعاون مع قطاعين طرق، وقال ناس إن الدكارنة أولاد ناس لكن على حساب ناس ولا يستبعد أن يكون تدخلهم لصالح يوسف إذا حصل بمقابل حدَّدوه لكن يوسف عاجز عن سداده، وقالوا أنهم لَا طلبوا مالاً ولا هدايا لأنهم ناس مستورة وشبعانة وكل ما جعلهم يتراجعون عن إعادة يوسف لعمادة الكفر هو أنهم اكتشفوا أنه يلعب على الحبلين، حبلهم وحبل الشراودة أيضًا الذى يبعث مراسيله إليهم ويعدهم بإعادة أصيلة لداره إذا نجحوا فى إعادته كما سبق ونجحوا فى تعيينه، وقالوا أيضًا إن الباشا المأمور حلف بشرفه أن يوسف لن يرجع حتى إذا شاف حلمة أذنه اليمنى فى الصحو أو فى المنام، وإنه لو رجع بأمر ملكى فسوف يقدم استقالته من الداخلية، وقالوا إن أمر رجوعه انكتب فعلا وباق على توقيع مدير المديرية أو إنه وقع عليه وناقص ختم جلالة الملك وثمنه ليس باليسير، وكلام كثير قالوه وردَّدوه وكأن يوسف إذا رجع فسوف يطلع الإنجليز من بر مصر، حكايات أغلبها أكاذيب يؤلفها حشَّاش محترف مقابل تعميرة من صنف مضمون، من كثرة ترديد الإشاعات وصل الأمر بالناس إلى حد الضحك عندما يفاتح الواحد منهم صاحبه أو قريبه فى آخر أخبار يوسف، صار الأمر مسخرة وكان من الممكن أن يخترع أى واحد فى أى وقت أى كلام عن يوسف فيضحك الناس، حتى حسنين المدندش الذى كان يطيب له أن يسرح بالطَّبلة ومن خلفه عشرات العيال يغنى لهم ويردَّدون وراءه:

يا بو زعيزع قوم صلِّى.. خلِّى مراتك تقلِّى.

هل تحول يوسف إلى مسخة بدلاً من أن يتحوَّل إلى بطل له سيرة واسم مثل عنترة وأبى زيد الهلالى سلامة أو أدهم الشرقاوى أو حتى حسن المغنواتى عاشق نعيمة؟ وهل كان من الممكن أن تصنع منه الأخبار الكاذبة المتتابعة شخصًا له قيمة ودور فى زمن انكمش فيه الرجال الكبار على ذواتهم لأن العصر لم يكن يخصهم أو يشغلهم وقد ارتفع نجم يوسف ابن حلاَّق الحمير بمعاونة ناس من العبِّ الجوَّانى وانعزل أيضًا كما يؤكد الكل بواسطتهم تصفية لحساب أصيلة؟

لكن ناس كفرنا لا يتركون الأشياء تمر عليهم مرور الكرام دون أن يفسّروها ويقلّبوها فى عقولهم وعلى ألسنتهم كما يقلّبون أثواب القماش ويتحسَّسونها على مهل قبل الشراء أو حتى فى حالة الفرجة المجَّانى دون نية الشراء، قال الناس للناس: نفرض إن يوسف ليست له علاقة بالناس الدكارنة.. نفرض.. فهل كان من الممكن أن يعلن أنه احتمى بهم وأخذ منهم وعودًا ليعيش فى ظل اسمهم دون رضاهم؟ ومن يكون يوسف والناس مشهود لهم بشهادة كل الناس فى الناحية وخارج الناحية بأن جذورهم ضاربة فى الأرض من قديم الزمان شأنهم شأن الناس العوف وإن زادوا عنهم بأنهم أصحاب نفوذ ومعالى ورتب رسمى وأبعاديات وكراسى دائمة فى كل برلمان، ناس أصحاب سرايات فيها خدم وحراس بسلاح له تراخيص، ناس من ذلك النوع الذى تسمع عنه أكثر مما تراه، فمن

فى كفرنا كله شاف الباشا صفوت الدكرونى الكبير؟ ومن منا دخل سراية أبنه حشمت بك الدكرونى؟ صحيح أن بعضنا شاف الباشا إسماعيل وأولاده إبراهيم وغالى وصفوت وسمير لكنها كانت أيام انتخابات، وأيام الانتخابات كفيلة بإنزال الشمس والقمر من مداراتها ليكسبوا الأصوات، لا كانت لهم أملاك فى كفرنا ولا كان من بلدنا خولى أوحارس يشتغل فى سراية من سراياتهم، وطبعًا لم نسمع عن بنت بارت من بنات الدكارنة حتى يظن البعض أن فى الأمر زواج مصلحة بين البنت ويوسف الموعود بقحف النخل الممسوح صدره والذى خلص منه فى ساعة جسارة نادرًا ماتواتيه.

قال بعض الناس وهم يتضاحكون إن المسألة فيها سحر أو عمل مكتوب، وقال البعض الآخر إن المسألة وراءها سرٌّ وسوف يكتشفوه وإن طال المدى.

كانت أول مرة أعرف أو أسمع أن ليوسف علاقة بالدكارنة هو ذلك المساء الذى زارنى فيه وجعل يتحدث ساخطًا على أصيلة وأهلها وهو ما كنت قد اعتدته منه فى السابق لأن اسم أصيلة على لسان يوسف إما مدعاة للسخط إلى أبعد حد أو سيرة للانبساط الزائد عن كل حد ولا وسط عنده إذا انفتحت سيرتها، كانت أصيلة فى ذلك الوقت مازالت غضبانة غضبتها الأخيرة قبل الطلاق، وكان هو يقسم بأغلظ الأيمان على عادته أنه لن يذهب إليها أبدًا ليصالحها حتى لو أنهدت الدنيا:

- أبدًا.. مش ح أصالحها ولا ح أعبَّرهم فى الجزمه القديمه، يعملوا بقى اللِّى يقدروا عليه، بس المره دى مش ح يقدروا، وبكره تشوف.. أصل الدكارنه مش شوَّيه فى الناحيه، دول لو حدٍّ منهم جه ناحيتى ح يقطَّعوهم حتت ويرموهم للكلاب اللِّى بتحرس السرايات.

كدت أسأله عن علاقته بالدكارنة وكيف يمكن أن يتعرضوا للشراودة أهل أصيلة من أجله وهو الذى لم يدخل معهم فى علاقة من أى نوع حسب معرفتى، لكننى انكسفت من السؤال الذى كان من الممكن أن يشعره بالحرج أو يوقف اندفاعه الزائد فى التشكى من أصيلة وناس أصيلة الذين اكتشف خسَّتهم ووضاعة أغراضهم وهو الذى شالها على كفوف الراحة كل هذه السنوات فاكتشف أنه شال حيَّة بنت ثعبان شراقى قرصته والقبر:

- دى بنت ستين فى سبعين.. أنا ماعدتش ح أقدر عليها، دى عايزة تور مطلوق يا صاحبى، دى ما بتعشبعش ولا بيبان عليها ويتأخذ ولا تديش.. هى دى عمرها كان عندها حاجه تديها؟ قحف نخل مخَّوخ وريحة بقها قبر.. يندعقوا العيال..

بعدها يستعيد سيرة الناس الدكارنة وكأن النار التى كانت تتأجج فى داخله قد انطفأت أو هدأت لسعاتها إلى حين، يتباهى بأصلهم العريق وكأنه كان مسئولاً عن كشف شعاع نازل من قرص الشمس على مرمى البصر، وهل كان الدكارنة فى حاجة إلى شهادته؟ كانت

أزمته ظاهرة ولا تحتاج لتفسير، الذى كان يحتاج لتفسير هو اكتشافه للناس الدكارنة الذى جاء متأخرًا أكثر مما ينبغى، والذى كان يحتاج لتفسير أكثر هو انقلابه على الشراودة من الذوبان عشقًا بحسب ادعاءاته فى بعض الأحيان - لأصيلة وأهل أصيلة - إلى الصخب والغل ورمى كل المسئوليات عليهم فى كل ما أصابه ناسيًا أنه هو الذى فتح لهم بابه ودخل من أبوابهم باختياره وإرادته وفى السر وكأنه دخل الجنة وخاف على نفسه من الحسد، لابد أنه نسى مسئولياته عن أمن الكفر فلما وقع المحظور حسب نفسه من المدلَّلين عند الحكومة، قاعد على حجرها الواسع ومحاط بصدرها الحنون، لعله كان يثق فى قدرة أهل أصيلة على إعادته فلما خاب فيهم أمله بحث لنفسه عن أسياد غيرهم حتى ولو لم تكن بينه وبينهم صلة أو شبه مصلحة.

- طيب.. إيه اللى قوَّم كلابها على ديابها اليومين دول بالذات؟ إشمعنى لمَّا بقيت أنا عمده؟ دانا ملحقتش أفرح يا راجل، وأراهن إن ما كان الشراودة همَّا إلِّى نفخوا فى النار المطفيه من سنين وشعللوها تانى، إلِّى كنت فاكرهم ح يردموا ورايا لقيتهم هما إلِّى بيحفرولى.

وكان فى تلك الأيام يشبه مفراك «الخبيزة» يلف حول نفسه وحول الناس مرَّات فى اتجاه اليسار، كان قد تحوَّل إلى نحلة زنانة لا تفرز عسلاً لكنها جاهزة للقرص فى مقتل، ولابد أن كل واحد من خوفه على روحه كان يجاريه فى الكلام ويطاوعه فى الرأى حتى لا

يكتسب عداوته وهو فى تلك الحال التى انعدم فيها توازنه وأوشك أن يفقد عقله، ولعله عندما طلَّق أصيلة طلاقًا إداريًا فى غيابها وغياب ناسها كان قد جهَّز نفسه للدخول فى صراع معهم محميًا بوعد حصل عليه من الناس الدكارنة أو أنه كان بالفعل فى حالة انعدام وزن أو انعدام توازن، لكنه فعلها دون أن يعرف أى واحد فى كفرنا أسباب هذه الجرأة المفاجئة التى جعلته يطلقها غيابيًا على هذا النحو الذى يسميه الناس فى كفرنا طلاق القادرين، فهل كان يوسف والناس الشلبى يقدرون بالفعل على مواجهة الشراودة أم أنه استند إلى حماية حقيقية له ولناسه من شرور أعدائه الجدد الذين كانوا بالأمس أول الأعوان.؟

يوسف نفسه كان يقرّ ويعترف بفضل الشراودة عليه، لكنه فى ذات الوقت كان يكشف أسرارهم المخفية، لعله ظن أن وجود الصول عرفان وعساكره ومخبرينه ومرشدينه فى الكفر سوف يكون وسيلة لنقل أخبارهم للحكومة، والحكومة تقدر عليهم وعلى أكبر منهم، لعله كان يحاول أن يظهر نفسه فى صورة الضحية فترضى عنه الحكومة وتعيده وتحميه، كلها احتمالات قابلة للتصديق والتكذيب، الدكارنة فى ناحية والحكومة فى ناحية وكلام الناس الذى لا يمنعه مانع، والناس الشلبى تترابط وتتوحَّد ويدافع الواحد منهم عن الآخر ظالمًا أو مظلومًا، لعلها كلها كانت دروع حمايته، لكنه كان يتجاوز حدوده فى بعض الحالات، يسعى فى كلامه لكشف أسرارهم فيكشف نفسه فى ذات الوقت.

ـ كنت عارف أنهم بيغشوا الصنف ويخلطوه وساكت عليهم، وكنت عارف أنهم بيعملوا عمايل ما يصحَّش تنقال بقى وكاتم فى نفسى، أقول إخوال عيالك برضه وربك حليم ستار.

أتذكَّر كل التعميرات الفسدانة التى كان ينقلها لى وتتسبب فى عكننتى وعكننته، وأقول إنه ساهم فى إفساد تفكيرى فى بعض الحالات وإنه تؤّهنى فى متاهات وخيالات كدَّابة فى بعضها الآخر، وأقول إن أحسن شئ عملته الحكومة هو عزله لأنه مادام يتواطأ ضد ناسه ويسكت عن كل هذه الأخطاء فإنه لا كان يصلح عمدة ولا شيخ بلد ولا حتى خفير، ومن يدرينا إن كان يوسف عرف أو لم يعرف بالمصائب التى حلَّت بالناس وقيدتها الحكومة ضد مجهول وسألت نفسى كم مرة غشَّنى يوسف وجعلنى أدفع ثمن الصداع الناتج عن الأصناف المضروبة بدل الزهزهة المطلوبة وحالة الأنبساط، ولأنه ليس بعد الكفر ذنب فقد انكشف أمره وأمرهم للناس وللخكومة، ولأنه فى هذا الزمان مثل كل الأزمنة لا يفلَّ الحديد إلا الحديد فلابد أن نهاية يوسف سوف تأتى على يد الحكومة، تحبسه أو تصادر دوَّاره أو تنصر عليه أعداءه، لكنها كانت مجرد أمنيات رجل مغشوش على امتداد سنوات العمر، مغشوش فى مزاجه ومغشوش فى الحكم والأمثال التى حفظها وصدقها واكتشف أن نصفها على الأقل مدسوس، لابد أن يواسف كثار مثل يوسف الذى عرفته اندس وسط الناس على امتداد الزمن البعيد البعيد، اندس أو اندسوا وضربوا الحكم والأمثال المضروبة فجرت

على ألسنة الناس شأنها شأن كل شئ فسدان ورائج ببركة غفلة الأفهام.

طيب نفكر فى ادعاءات يوسف أن الدكارنة وعدوه بالحماية، نفرض مجرد فرض أن هذا الكلام لم يحدث وأنهم لا قابلوه ولا فاتحوه ولا وعدوه ولا كان يهمهم فى يوم أمره، أليس من الممكن أن تخوِّف هذه الإشاعة قلوب أعدائه؟ ومن فى ناحيتنا الذى سوف يسعى لاكتشاف صدق مثل هذا الإدعاء من كذبه؟ حتى لو اكتشف مكتشف كذب ادعائه فهل يجرؤ على إشاعته؟ وإذا جرؤ وأشاعه وعرفوا الدكارنة أن واحد أسمه يوسف ابن حلاق حمير شلبى احتمى بهم كذبًا ليخوِّف أعداءه فهل يغضبون والأمر من أوله لآخره ادعاء يطوِّل الرقاب ويضيف لهيبتهم هيبة جديدة؟ ربما يتضاحكون زهوًا وقد صاروا على ألسنة ناس كفرنا مثل البعبع الذى يخوِّفون به العيال الشراودة؟ وإذا كان الوعد صدقا بعلم الدكارنة فما هو مصير من بحث ونقَّب وشكَّ فى إمكانية أن يستعين بهم يوسف وينصروه؟ قلت لنفسى: اسكت يا باحث فاشل فى تاريخ بلدك القديم، اسكت ولا تقترب من المناطق المزروعة بالألغام لأن ميزان الكفر المقلوب لن ينعدل على يديك وحدك، أترك يوسف صاحبك وقريبك من بعيد يطلع على أكتافهم من الورطة التى إنحطَّ فيها، أو أتركهم يطلعون درجة جديدة على أكتافهم وأكتاف ناس الكفر الكسلان عن السعى لمصلحة ناسه رغم النكبات التى يلطم فيها الخدود على رجاله وزهرة شبابه المغدورين فى وضح النهار، ولا يمكن لواحد مثلى أن ينسى ضرب البرادعى فى وسط غيطه

وعلى مشهد من عياله وأنفار جمع القطن الأبيض الذى ارتمى فوقه فتلوَّن بالأحمر القانى ولا عاد ينفع فيه بيع أو شراء، موت وخراب ديار فى زمن يوسف، هل يمكن أن أنسى ضرب تلامذة المدرسة بالكرابيج فى دوَّار يوسف لأنهم اعترضوا على دخول أولاد عزَّت الشارد كفرنا المفتوح بنفس هذه الكرابيج فما كان منه إلا أن جمعهم فى الدوَّار وأمر بضربهم لأنهم اعترضوا طريق أهل أصيلة الودعاء حاملين الكرابيج بحسن نية وتلامذة كفرنا أشرار، وهل أنسى أو ينسى ناس كفرنا تعرية الست هانم حرم حسن النعناعى أفندى على باب دوَّاره وأمام خفراءه وبواسطة النسوان الشلبى والشوكى وغربان المدافن ممن يمكن تأجير الواحدة منهم بنصف فرنك، يخرجنها بالحيلة من دارها وهى الست المحجوبة ثم يستدرجنها بالحيلة أيضًا حتى الجرن الكائن أما دوَّار يوسف ثم يتسابقن على إرقادها على الأرض فجأة وبدون إنذار، ويمزقن ثيابها مزقا حتى تتعرى تمامًا وتتكشف عورتها على الملأ ويوسف الذى ظهر بعد اكتمال الفعلة يراها ويتأملها بعينيه مدة قبل أن يخلع عباءته ويرميها فى اتجاه المرأة العريانة المنهارة لتتغطى بها وهى فى ربكة من أمرها كيف تقوم أو تزحف لتأخذ العباءةُ الملقاة على مقربة منها وسط عيون الناس.. نوع من الإذلال لكل الصنف، ومهما عمل النعناعية فى خصومهم فهل تبرد لهم نار، ويوسف على ألسنة الناس هو الذى سترها بعباءته وإن كانت قد تعرَّت أمام دوَّاره وعيون حراسه وزمنه إذا شئنا أن نفسر الأشياء والأحداث بالعقل السليم بعيدًا عن المجاملات.

كأن يوسف نسى ما جرى فى زمن عمادته القصير للناس فى كفرنا القادر على النسيان، وليس النسيان نعمة فى كل الحالات، أحيانًا يكون النسيان خيبة وعى أو خوف وجبن أو قلة حيلة، يقول لك النفر من الأنفار نسيت، وأسأل نفسى كيف ينسى البنى آدم ثأره أو دم أبيه أو أخيه وهو العارف ملامح القاتل وسكنه، وكيف ينسى الإنسان أفعال عدوه فى زمن العداوة؟ حتى لو صالحه وقال له عفا الله عما سلف وهدأت النفوس فهلْ يجوز له أن ينسى؟ العفو شئ ونسيان ما جرى فى الأزمنة القديمة شئ آخر، الذاكرة لها دور والنسيان يفسدها، يشَّوه صفات الناس ويتوَّه الحقائق، حقائق الأعداء القدامى وقد لبسوا أثواب الصحاب، ولا بأس من أن نبدأ دائمًا فى كفرنا صفحة جديدة كما يقولون لكن دون نسيان، هل يجوز لمن لدغته الحية وتداوى من سمَّها وعاش أن ينسى فتحة جحرها ويتمدَّد فوقه؟ أنا نسيت نفسى معكم ف يالكلام لكننى لم أنس وجوه أعدائى.

«موسى نبى.. عيسى نبى.. محمد نبى وكل من له نبى يصلى عليه» قالها الحاوى أيام زمان وحفظناها عنه لكننا لم نكسب قدرته على ملاعبة الثعابين أو السيطرة عليها، وملاعبة الحيَّات والأفاعى والعقارب فن لا يقدر عليه غير الموعود، ولابد أن ليوسف قدرة الحواة فى ملاعبة الأسياد القادرين، كان عندما انعزل يأتينى ويسرَّ لى بما يعنّ له من أفكار وكيف أنه يلاعبهم جميعًا لينفَّذ هو أغراضه، يهمس بأن عمدة من عمد البر كله لم تعزله الحكومة ثم تعيده إلا إذا كان مسنودًا وبعد فترة تنسى فيها الناس أسباب عزله

وتبرد النيران، ويضيف أن الدكارنة أكبر من أن يدخلوا فى صراع مع الشراودة وكيف أنهم شاوروه فى الأمر وأفادهم بأنه يعرف علو مقاماتهم وأنه لا يليق بالأسياد أن ينزلوا إلى أسفل من أجل مجموعة من قطَّاع الطرق الذين يستطيع أن أن يقطع دابرهم من الناحية قطَّاع طرق من أمثالهم، ولأن للناس الدكارنة أنصار فى كل مكان فإنهم يستطيعون أن يفعلوا الأفاعيل فى الشراودة دون أن يكلِّف الواحد منهم عناء الصحو من رقاده قبل الضحى العالى كما اعتاد أو حتى الصحو قبل الميعاد بساعة أو حتى تأجيل عمل وليمة لمدير المديرية أو أحد الوزراء من أجل أمثال هؤلاء الناس، طمأننى أو طمأن نفسه بأن كل تأخيرة فيها خير له ولناس الكفر لأنه يوم أن يرجع سوف يفتح عينيه وعقله وقلبه ويحتاط من غدر القادرين وقد خلص منهم إذا شاء المولى جلَّ فى سماه ونصره على الأعداء.

لكنه لا الدكارنة أولاد الناس وأصحاب السرايات والمقاعد الدائمة فى كل برلمان، ولا الشراودة قطَّاعين الطرق جلاَّبين الصنف وغشَّاشينه كانت لهم فى مسألة عمادة كفرنا دور، ذلك أن المرسى شلبى طلع من وسط الناس الشلبى على سلم العمادة وهو الرجل المعزول الذى كان فى حاله ومع عياله وأرضه، لا شارك فى مشاكل ولا انطلقت عليه إشاعات، صحيح أن المرسى كان من سلسال هارون وأنه كان مالك لحيازة تسمح له وأنه كان على الأقل فى الظاهر رجل معقول وعاقل ومشاكله مع الناس بسيطة، نزل المأمور بنفسه وتبعه الصول عرفان والعسكر وعدد من أفندية الإدارة

ودخلوا دار المرسى شلبى ومعهم قرار تعيين موقع ومختوم بخاتم صاحب الجلالة الملك فاروق، وركبوا وسط الزغاريد عدة التليفون وأعادوا للكفر سلاحليك خفراؤه وصار المرسى شلبى بين يوم وليلة عمدة كفرنا، لكن يوسف قال إن المسألة عمرها أيام أو أسابيع فى أسوأ الأحوال لأن المرسى غلبان ولا يصلح لعمادة كفر ظالم وكافر مثل كفرنا الذى يحتاج لحكمة كف يد حديد، لكنها على كل حال كانت علامة لناس كفرنا وإشارة من الحكومة بأن العمادة صارت من نصيب الناس الشلبى بغض النظر عن الأفراد، وأن الناس العوف صاروا مثل البضاعة البائرة المركونة من سنوات على رفوف الشيخ محمد البقال فى البندر.

ولما فاتت أسابيع وشهور وصارت عمادة المرسى شلبى حقيقة فى عقل يوسف الذى كان آخر من سلم أمره لله فى كفرنا، لفَّ يوسف على كعبه واستدار ليحدث للناس عن شوقه للأولاد الذين أخذتهم أصيلة معها لدار أهلها، ربما يكون قد راجع نفسه وبين نفسه واكتشف أنه لا خلاص له مَن غير أصيلة والناس الشراودة، كان يتحدث عن أشواقه للعيال وأمهم أصيلة، وعن أحلام يراها فيها ويفسرها بأنها مقدمات رجوع وردّ من يمين الطلاق الذى له ردّ والشرع يسمح.

ـ برضه كانت بنت ناس ووقفت معايا من أول المشوار.

رجعت أصيلة لدار يوسف التى لم تعد دوَّارا كما كانت، لكن يوسف تعلم أن يمتدح كلا من الدكارنة والشراودة بنفس الحماس،

لكنه كان رجوعًا ساكتًا أشبه بفرخة فطسانة فى يد من أراد أن يذبحها فلم يهنأ برفرفة ولا أتسمع لها صوت أو نزلت منها نقطة دم.

* * *

ربما يكون من المفيد أو يكون من غير المفيد على الإطلاق أن يكتشف البنى آدم عيوبه فى نهايات العمر أو آخر المشوار كما يقولون، المسألة تتوقف على الكيفية والحالة وأهمية البنى آدم نفسه الذى اكتشف وباح بالاكتشاف، ولأنه حدث بينى وبينكم نوع من التواطؤ الخفى مجهول الأغراض فسوف أمدَّ حبل البوح على استقامته واستمر فى كشف ما تبقى ليكتمل اكتشاف المكشوف الذى هو أنا بكل ما أملكه من جسارة وجبن ومن نبالة ونقص ورغبات مدفونة تحت الرماد وأخرى متفجِّرة على شكل احتجاجات عبيطة أو ثورات صغيرة لا تغير أى شئ فى الحيِّز الضيِّق الذى تتفجَّر فيه، لعلها لا تغيِّر كرسيًا محطوطًا فى غير مكانه أو تهز شعرة فى رأس مسئول عن مزرعة مواشى.

أعرف أن الاعتراف بالعيوب ثقيل على النفس، لكنه يبدو أيضًا أن فى الاعتراف شفاء لها فى بعض الحالات، وأنه برغم الدفاعات الشرسة عن الذات لإخفاء الأخطاء أو العيوب الناتجة عن هذه الأخطاء أو العيوب الناتجة عنها هذه الأخطاء. فإنه يطيب للإنسان فى بعض الحالات أن يحوم حول أخطائه أو خطاياه بغرض الاعتراف بها أو البوح بتفاصيلها إذا ضمن السلامة فى أغلب

الحالات وما لم يضمنها فى حالات، هذه مجرد مقدمات غير لازمة للبعض وضرورية للبعض الآخر، وأخذًا بالأحوط ولحساب البعض الآخر ذكرناها.

كانت الدنيا من حولى تدور فى مداراتها ولا أشعر بالدوار، ربما لأننى جهَّزت نفسى للاحتمال أو لكل الاحتمالات، لكن الخطير الخطير أن تختل الحسابات وأرانى واقفًا فى مكانى على هيئة تمثال جامد من الطوب اللَّبن الذى هو طمى نيل مخلوط بنخالة تبن لفظته المواشى أو تأبت على التهامه فى زحمة الالتهام، لكن يوسف ابن حلاق الحمير التهمنى وهضمنى وأفرزنى نفاية مهملة بحساباته وحسابات بعض أنصاره، ناسيًا أن البدايات لا تنفصل عن النهايات تمامًا، وأنه لابد من وجود خيط موصول بينهما، خيط نحيل لكنه قادر على التوصيل شأنه شأن التيَّار الكهربائى الذى لا يراه وإن كان من الممكن أن يصعقه إذا اعترض مساره مزهوًا بطلوعه أو محميًا بهؤلاء الأتباع الأنطاع الذين زينوا له التباعد عنى وأحاطوه ودسُّوا فى أذنيه الدسائس والنمائم والأكاذيب بينما كنت أنا مسنودًا على أوهامى بأن العلاقة بينى وبينه ممتدة وأبدية لا تفصلها فواصل ولا يوقف مسارها فيل، لأننى اكتشفت أن الأفيال تكسب فى نهاية المطاف حتى ولو كانت أفيالاً من ورق مرسوم بألوان كدَّابة فيمكن لملمتها ولفلفتها وصرَّها فى منديل محلاوى على رأس فلاح ابن فلاح قرارى أصيل، لابد أننى بحت الآن أو أوشكت على البوح بأخطر عيوبى وقد اكتشفتها بعد فوات الأوان.

كنت أظن ومازلت أصدق أن للبدايات أثرها الممتد إلى النهايات وما بعد النهايات وهذا عيب كبير، لعله من أهم عيوبى وأخطرها وبسببه خسرت الكثير، لكننى أشعر أن الخلاص منه مستحيل فى ذات الوقت، سوف أعتبرها لازمة من لوازمى وأتعامل معها على هذا النحو، لابدايات تمتد إلى النهايات وما بعد النهايات.

هل خرج كفرنا من عبِّ الدكارنة كما يقولون ولا أصدق؟ أم أن كل شئ مازال كما هو، الشراودة وأصيلة ويوسف المحروس؟

بداياتى مع يوسف تقول لكل من شاف وعاشر واطلّع أننا كنّا صاحبان تربطهما علاقة دم، يختلفان فى أشياء ويتفقان لا يهم، لكنهما فى الحد الأدنى كانا صاحبان انكشف لكل منهما سر الآخر فأخفاه، وانكشف لكل منهما ظهر الآخر فما خانه ولا غدر به فى أشد حالات الخلاف، لعلنا كنا فى نظر بعض الناس نبيلان يتعايشان ويتخاصمان بشرف، يتباعدان ويقتربان بحسب الأحوال، يتكارهان ويتوادّان دون أن تنقطع بينهما خيوط التواصل.

كانت الأشياء تتبدّل من حولى، وكانت الوجوه التى تحيطه تتغيَّر، ولابد أن الكلام الذى كان يسمعه عنّى لم يكن يختلف كثيرًا عن الكلام الذى أسمعه عنه من حيث أن مساحات الكراهية والحب فى قلوب الناس تتناقص أو تتزايد بحسب الأحوال أو المصالح، لكنه فى كل الحالات وربما منذ أيام الطفولة الأولى كان يوسف بالنسبة لى ضرورة ولابد أننى كنت بالنسبة له ضرورة، أسبقه فى حفظ جزء من القرآن الكريم أو أتقدم عليه فى سنوات الدراسة الأولى أو

يسبقنى إلى الدخول فى علاقات فسدانة مع البنات ويعلّمنى الجسارة أو أعلّمه التعقل، ثم تمضى سنوات العمر، أسبقه بخطوات أو يسبقنى بخطوات فى الحياة والمعرفة بخصال الناس وعاداتها، نختلف فى الاختيار والذوق والفهم والأهداف لكننا نحافظ على استمرار العلاقة حتى فى أكثر الأوقات تباعدًا وخصامًا، لابد أننى لعنته آلاف المرات ولعنت أمَّه وأباه ولابد أنه فعل نفس الشئ ولعننى ولعن أمى وأبى وكل صنفى، مارسنا كل ما يمكن أن يمارسه صديقان لدودان أو قريبان متنافسان أحدهما ابن حلاق حمير ترقّى أو توَّهم أنه ترقّى عندما تعلَّم الزيانة فى رؤوس العيال اليتامى، والآخر ابن نصف أفندى فى مكتب الصحة ونصف فلاح فى كفر مات أبوه مسمومًا وما تجاسر يومًا على أن يفكر فى الثأر له أو حتى يحرِّض عياله ضد من دسَّ له السم فى كوب الشاى أو ضد نسله، كلانا حمل الحق فى الزهو أحيانًا وحمل عاره، صدنا العصافير بالفخاخ معًا وتسكعنا فى الغيطان نلملم البلح الساقط من النخل فى غفلة من العيال أولاد أصحاب النخل أو نهزهز فروع أشجار التوت ونلملم الثمار، ندسها فى جيوبنا ونفسد الجلابيب ونتعرض للعقاب دون أن نفكر فى الكفِّ عن ارتكاب نفس الأخطاء، صدنا السمك بالسنارة وتجاسرنا فعملنا فى الترعة الصغيرة سدَّين وصدنا القراميط الصغيرة بأيادينا، وانضربنا معًا وما تأدبنا، صاحبنا دليلة وتنافسنا عليها، نلناها وتخلينا عنها، تسكعنا فى دار جدتى لأمى نبحث عن ثمار البرتقال والبلح وعناقيد العنب وكبيس العجوة، لاعبنا خالتى العبيطة «كاف» وضحكنا عليها

وحرَّضناها على سرقة ما كان يحلو فى عيوننا ولا نحصل عليه من جدتى برضاها فكانت هى تسلبه من أجلنا وتتحمل العقاب دون أن تعترف أبدًا، وفى مطالع الشباب حشَّشنا معًا وحلمنا بالبنات والنساء والمال الكثير ووجاهة الوجهاء، حتى عندما كبرنا أكثر واختار كل واحد منا سكَّته وتزوج على طريقته وخلَّف ثم ربى عياله بحسب ما ارتأى وعرف، كنا نتلاقى بانتظام فى أوقات التقارب وعلى فترات متباعدة فى أزمنة الخصام، لكنه رغم طول الخصام وتكراره كان التقارب يحدث ولأسباب تافهة تتساوى مع تفاهة أسباب التباعد والجفاء الذى غالبًا ما كان يتحوَّل إلى خصام معلن.

الغريب أن لحظات الصلح أو الاقتراب كانت تطرح سؤالها عن أسباب الابتعاد ويتوه من ذاكرتى الجواب، أنسى أو أكون بالفعل من قبل السؤال الذى انطرح قد نسيت، كنت أفسِّر الأمر على أنه بياض قلب من ناحيتى وربما من ناحيته أيضًا. وكنت أقول أن الدم الذى يجرى فى عروقنا يحِّن لبعضه فيمسح من الذاكرة أسباب الخلافات، ولعله كان ذلك على وجه التحديد عيبى القاتل مع يوسف، كنت ولاشك أستند على البدايات أو المقدمات مطمئنًا إلى سلامتها بحساباتى لكى توصل إلى نهاية لا بأس بها فى آخر الأيام، ومهما قلت عن بياض القلب أو سواده أو قلت عن تلك الخصلة العبيطة التى حاولت أن أتخلص منها مرارًا وتكرارًا دون أن أنجح أبدًا - كنت دائمًا استطيع النسيان - فيمكن أن يكون النسيان آفة ويمكن أن يكون نعمة، وفى حالتى كان النسيان نعمة أنعم بها رغم تحذيرات أمى فى البدايات وتنبيهات أبى الخاطفة فى بعضها

الآخـر لكن دون حـمـاس، ربما لأنه هـو نفـسـه كـان يتـمـتع بنفس الخـصلة أو يكابدها، لكن الأقـارب والجـيـران والأصـحـاب كـانوا يرددون نفس النصائح تقريبًا ويصفوننى بذات الأوصاف:

- إللِّى يضـحك فى وشـه ياكل عـقله.. ومـا بيـتـعلّمش أبدًا.. ينقرص كل قـرصه وقرصه ومن نفس الجحـر لكن يرجع تانى ويحـوم حواليه، مـفيش فايده فيـه.. الخلق تلطشـهـا الحـيطة تفوق ودا ولا هو هنا خالص.. مسيرها تنقطم رقبته على قناة صـدره مـادام مـبيـسـمـعش الكلام.. دا أحنا زى إللِّى بندَّن فى مالطة وهو زى الأطرش فى الزفة، ولا هو دريان.

ومثل هذا الكلام كثيرًا ما كان يقال على مسمع منى ولا أغضب، كـأننى كنت أستمتع به وكـأنه مـديح أو تعبيـر عن إعـجاب بمقـدرتى على النسـيان وبياض القـلب أيضـًا، لعلنى كنت على غيـر وعى منى أسعى لإثبـات مثل هذه القـدرة وبياض القلب لأحـصل على أولوية ما مثل القـدرة على احـتمال الـضرب التى يتمتـع بهـا فـؤاد الشـوكى، أو القـدرة على تدوير الطنبور أكثر من أى نفر فى النـاحيـة التى يتمـتع بهـا نوفل النعناعى، أو القـدرة على تجـمـيع النـاس ونصب الجـرسـة التى لا يملكهـا غـيـر حـسنين المدندش، أو البـراعـة فى صـيـاغـة الشكاوى ضد الخصوم التى اشتهـر بها صـبحى النعسان، شئ من هذا القبيل أكون قد هيأت نفسى للوصول إليه دون وعى أو إرادة أو حتى تفكير، ربما، ربما، وربما هو نوع من الاستعداد للموت مجانًا، أو جسـارة كامنة فى داخلى تصل إلى حد الرعونة وترد على حذرى

الموروث البادى فى كل معاملاتى، شئ أشبه بالرغبة فى الاستشهاد دون الحصول على وعد بالجنة، استشهاد مجانى لأننى لا أحارب اليهود أو الكفار دفاعًا عن الدين أو الوطن، بل إننى وسط الناس وأهلى أتحارب ولا أحارب، ربما ليس كل ما ذكرت ويكون الأمر خيبة بعيدًا عنكم وعن عيالكم.

كنا نتكلم عن اكتشاف العيوب فى نهايات العمر وهو اكتشاف متأخر ولا يفيد لأن المسار تحدَّد والمصير تحدَّد وما عاد هناك وقت للتراجع أو التعديل، ولعل هذا هو على وجه التحديد مادار فى خيال يوسف قبل أن يقدم على ما أقدم عليه ليخيِّب عشمى فيه ويثبت خطئى فى حساباتى عنه، يعلقنى فى فراغ مثل نفر بلا ناس ولا أهل ولا صاحب وقد ربطوه بالحبال وشنقوه على أعلى فرع فى جميزة الشرشابى التى هى أعلى جميزة فى كفرنا الشلبى، نفر غريب مشنوق ومعلَّق فى الفراغ لكنه لم يمت أو يفقد الشعور بالوجع والمهانة، لو مات يرتاح، لكنه لم يمت أو ينعدم فى خلاياه ووعيه الإحساس بالحياة، لكن النهاية رغم استمرار الحياة هى الموت، الموت المؤجل ولا يهم إن كانت فترة التأجيل ساعات أو أسابيع أو شهور أو حتى سنوات.

قلت لكم مرة أو لعلنى لم أقل مرة واحدة بل عدة مرات أن يوسف كانت له حساباته عنى، كان يتباهى أمام الناس بأنه يملك مفتاحى ويحتفظ به، يعرف على وجه الدقة إلى أى حد كنت أحتمل ومتى ينفلت الزمام، ولابد أنه كان فى هذا الأمر صادقًا مع نفسه ومع الناس.

- وإن زاد عليه الضغط تركبه العفاريت، يبقى زى التور الهايج ما تعرف لجامه فين، بس أنا عارف دواه.

لعله فى هذه المرة أخطأ بقصد مسنودًا على ما ظنه من أننى عجَّزت ولم أعد أشكِّل أى خطر، وهى حسابات عمدة قليل الأدب جعلتنى اشتعل وأتأجج مثل نار فرن محمى يهبُّ لسان لهبه من فتحته العليا ويخرج ويمتد ليلتهم كل ما يصل إليه وقد وصل إلى قلب يوسف، سوف أشرح لكم أول قتلة انقتلها يوسف بيدى هاتين اللتين لم يلوثهما دم فرخة فى حياتى.

لم يكن حلمًا ولا كابوسًا ذلك الذى تبدَّى لى، كنت أنا هو أنا وقد خرجت من دارى متسلِّلًا أتوارى عن عيون الناس بتلك العباءة السوداء من قماش الجوخ التى لم أكن أملكها لكننى امتلكتها بعد أن فصَّلتها بنفسى وعلى نفس مقاسى من ذلك القماش الذى كنت قد اشتريته فى زمن قديم ولم أستخدمه، كنت وحيدًا وفى القلب توحُّش، أنظر لنفسى فى المرآة فأرانى وقد طالت لحيتى وطال شاربى ومخالبى وشعر رأسى، كانت ملامحى قد تبدَّلت فى غفلة منى، بدَّلها الظلم الزائد عن حدِّ الاحتمال فما عادت التجاعيد التى تحيط بالعينين والجبهة هى نفس التجاعيد، حتى لون العينين الذى اعتدته وكنت أعرفها به من بين كل العيون التى كنت أطالعها تغيَّر، وكان عودى قد انحنى على نحو مخالف لانحناءة الشيخوخة المبكرة التى تعرفونها، لعله كان انحناء الداخل وقد خرج وامتزج مع انحناءة الخارج فصيَّرنى محنيًا على نحو يجعلنى أقرب إلى شكل

علامة الاستفهام أو شكل المنجل الذى نحشّى به أعواد القمح فى مواسم الحصاد وقد طالت واصفّرت وحان أوان حشّها، تشبهت بالموت أو كنت أشبه بالمنجل متواريًا داخل العباءة السوداء، تحوّلت من بنى آدم حى إلى موت متحرك يقتاده شيطان ودود متعاطف مع حالتى، يدفعنى إذا تراخيت فى حركتى ويحمينى من احتمالات التراجع، يهمس فى أذنى بأنه سوف يساعدنى على إطفاء النار المتأججة فى القلب والدماغ والوعى والبدن والمشاعر شريطة أن أطاوع الموت وأشتغل مندوبًا عنه للحظة أو لحظات ينتهى فيها أجل يوسف وتندمل فى ذات الوقت جـراحى وإلى الأبد، كنت فى أول الأمر أنتفض لكنه احتملنى حتى هدأت فأسلمنى السلاح المسنون المرهف وطالبنى بأن أنظر إلى صورتى المعكوسة على سطح المرآة، تأكدت أننى أشبه الموت من بعض الوجوه، تقافزت على سلم الدار وطلعت فوق السطح ثم تساندت على عزمى الذى فاض لأعبر من سطح إلى سطح وكأننى مازلت فى صباى وصدر شبابى، أذكر أننى وصلت إلى سطح داره والناس نيام وأنا الوحيد الصاحى، كنت واعيًا ومتدفقًا بالرغبة ولم أكن شبحًا ولا خيالاً ولا وهمًا، وبالقطع لم أكن حلم يقظة، كنت قد تحوّلت إلى موت حقيقى يرغب فى مداهمة الهدف دون عواطف معه أو ضده.

كنت فى غرفة نومه أرقبه عن قرب ولا يشعر بوجودى، وكانت العباءة السوداء تدارى سيفى البتار، كانت «أصيلة» تتمدّد إلى جواره همدانة من أثر جهد بذلته فى الفراش قبل وصولى، عريانة وشعرها الأصفر يتناثر فى فوضى ولا يغطيّها كما كان يدّعى، وكان

هو نفسه نصف غفلان نصف واع، من دهشتى أنه لم يشعر بوجودى أو يفزع كما كنت أتمنى، وكانت أصيلة تتقلَّب فأراها مثل حزمة بوص خاوية جففتْها شمس حامية وجعلتها أشبه بمجموعة خوازيق متجاورة على هيئة بنى آدم ممسوح الصدر، رفعت السيف عاليًا ثم نزلت به فى ضربة حاسمة وحيدة دقيقة التصويب لتفصل الرأس عن البدن، صرخت هى وحاولت أن تدارى عريها بالملاءة فتحركت الرأس وحدقت عيناه فى عينىَّ فى نظرة لائمة مكسورة مودِّعة، وبدا لى أننى سمعته يسألنى:

ـ أنت؟.. أنت؟

كان الدم يتدفَّق من مكان العنق الذى انقطع ويتناثر مثل سرسوب شاى نازل من «بزبوز» براد شاى فى آخر «الصبَّة» والبقايا الساكنة فى الأركان وبين وريقات الشاى الدقيقة التى كابدت الغليان ثم سكنت عند مدخل «البزبوز» من الداخل غير المرئى، تتقاطر من داخله قطرات الدم وتتناثر، يتزايد تدفقها ويتناثر والأخرى ملمومة على روحها ولا هم لها إلاَّ أن تتدارى، لعلنى قلت للوجه الذى ثبت وما عاد يتحرك كلامًا لا أذكره، لكننى أذكر أننى فكرت كيف كان يوسف يعاشر هذه المرأة التى تشبه الحنش؟

كنت أرمح فى دروب الكفر بلا غاية وقد بزغ شعاع الفجر الجديد ونوَّر الطرقات، وكان كل من يرانى يستوقفنى فلا أتوقف، يستمهلنى فلا أتمهَّل، ينادينى فلا أراد، كنت وحيدًا وحائرًا وسؤال يوسف يطاردنى:

أنت..؟ أنت؟

هل كنت أنا قاتلة بالفعل أم أنهم هم الذين قتلوه وحمَّلونى دمه ورأسه الملفوف فى طرف العباءة السوداء؟ شيطان بارع فى الوسوسة والتودُّد وإظهار التعاطف مع حالتى وملاك موت كسلان يوظف بنى آدم ويعلِّق فى عنقه خطيئة إزهاق الروح، وناس من الكفر شاهدونى وأنا فى لحظات الانهيار أتهاوى وأسقط من فرط المهانة والإذلال وساعتها استنكروا ما جرى وهمست أصواتهم بأن يوسف هو الذى دبَّر كل شئ وكلَّفهم بالتنفيذ ثم أظهر أسفه واستياؤه وكأنه لا كان عمدة للكفر ولا كانت هذه الناس الفسدانة من أتباعه تفعل فى الناس الأفاعيل بإشارة من يده أو عينه أو إيماءة من رأسه لا يلحظها إلا المقربون، الناس شافتنى وقالت لبعضها البعض إن يوسف يخاف ولا يستحى، وإنه لو كان لى أهل ما كان تجاسر وأمر بضربى ثم تجريسى ثم الاعتذار الذى غطَّى على الذنب، قالوا إنه يستحق الضرب والطرد من كفرنا أو القتل بسكين بارد، صحيح أننى امتلكت القدرة على استخدام السيف البتَّار لكننى لا أعرف من أين حصلت عليه ولا كيف واتتنى الجسارة لاستخدامه ضد من كان شريكى فى مشوار العمر كله، لكنه لم يكن وقت الأسئلة بقدر ما كان وقت الاعتراف، كانت الناس تحوطنى فى دائرة وقد طلعت الشمس وزوَّدت نور النهار، وكنت أجلس على كتف الكوبرى المصبوب ساكتًا، لا أعتقد أننى أخفيت عنهم شيئًا رغم سكوتى، وهل يستطيع أى كلام أن يشرح ما جرى وأسباب ما جرى؟

آدهشنى أن تجاسر أحدهم وفتح العباءة ليشهدهم على مسئوليتى عن قطع رأس القتيل فما وجدنا رأس قتيل، كان مجرد رأس خروف أسود بقرنين ملفوفين ونقاط الدم وقد كفت عن السقوط، كانت ماتزال قادرة على تلويث الكفوف، هل سمعت ضحكاتهم أو أنه بدا لى أنهم كانوا يضحكون؟ هل استعادت ذاكرتى صورة العنق المحاط بصوف أسود وكيف كنت أتمنى لو جاء حلاق الحمير القديم ليقصَّه كما كان يقص دائمًا خرفان الأضاحى والنعاج، وكيف اختلط علىَّ الأمر إلى هذا الحد وأنا أشهد قبالتى وجه يوسف وهم يفسحون له حيزًا ليتقدم ناحيتى ويسألنى نفس السؤال:

أنت ..؟ أنت؟

من عبطى استجبت لحضنه وهو يحتوينى على مرآى من كل ناس الكفر ويصالحنى فأنسى كل ما جرى منه وما كان وأفيق لأنسى من جديد.

* * *

لكن يوسف ستر نفسه، داوم على الذهاب إلى سوق البندر كل يوم خميس، كان يقف بدون تفويض بين من يشترى المواشى أو يبيعها، فى البداية تعرَّض لمشاكل مع السماسرة الكبار لكنه استعان بالفراغ والحاجة والإلحاح وأحيانا يطلب اللقمة الحلال التى تحميه من السرقة إذا جاع، ولابد أن السماسرة وجدوا فى استضعافه مبررا ليفسحوا له حيِّزا ليتحوَّل إلى صبى سمسار ينقل لبعضهم الأخبار

ويجسّ النبض لحسابهم من بعيد لبعيد، وكانت معرفته بأحوال ناس الكفر هى زاده الأساسى ومبرر وجوده فى السوق، ولابد أنه كان يحصل على نصيبه القليل ويرضى به فى البداية حتى تبدَّلت أحوال السوق وزاد رزقه، بعدها اشتغل لحساب نفسه وتقرَّب من التجار الكبار والجزارين الكبار، ولم يكن من الغريب أن يطرق يوسف باب أى دار مصحوبا بالتاجر الغريب ليفرّجه على البهائم الطالعة لسوق الخميس الآتى أو التى رجعت من الخميس الفائت، ولابد أن البعض من أهالى الكفر كان يفضِّل البيع فى الدار عن الذهاب للسوق وعرض المواشى أو الأغنام للبيع بحسب ما يعرضه عليهم التجار، ربما لأن البعض كان يرى أن السوق فخ منصوب يتحكم فيه السماسرة لحساب الجزارين وأكابر التجار، وأن الدار تحمى صاحبها وتستره وتدارى عليه، وأن الفيصل الأخير هو السعر المعروض الذى إذا وافق عليه فخير وبركة وإذا قلَّ عن التقدير المحسوب فيفتح الله ويا دار ما دخلك شر، ولابد أن يوسف نفسه كان يقول للناس مثل هذا الكلام ويعدهم فى ذات الوقت بإحضار التاجر المؤمن غير الطمعان الذى يكلِّف نفسه مصاريف السفر ليشترى دون أن يكسِّر المجاديف أو يبخس البهيمة قدرها مثلما يفعلون فى الأسواق بعد هدَّه المشوار ولابد أنه لم يمض وقت طويل قبل أن يصبح يوسف هو سمسار الكفر الوحيد الذى يطمئن إليه الأهالى ويطلبون منه جلب من يقدِّر أثمان أغنامهم ومواشيهم التى يفحصها بنفسه ويجس نبضهم بتقدير الأثمان اجتهادًا لا يلزمه أو يلزمهم بشئ، لابد أن ناس كفرنا الكسلان استراحت لهذه

الطريقة السهلة، ولابد أنهم هم أنفسهم الذين أشاعوا عنه أنه بارع فى تقدير الأثمان لأن ما كانوا يحصلون عليه لم يكن يزيد كثيرًا أو يقل عن السعر الذى قدَّره بينه وبينهم بعد الفحص السريع، وعلى هذا النحو فتح يوسف لنفسه سكة رزق معقول جعله يلبس الكشمير ويتلفَّع بالعباءة الجوخ ويضع على رأسه لاسة المعلمين.

كانت فرحة جدتى بيوسف الذى أفلح فى أن يكسب من كدَّه وشطارته أكثر مما يكسب الأفندية المتعلمين فى المدارس والجامعة، ولابد أنها كانت تقصدنى وتكيد أمى التى حرصت فى كل مرة تسمع فيها مثل هذا الكلام على السخرية من كلام أمها:

- إيش جاب لجاب يامَّه، ح تساوى إللِّى اتعلم ونجح واتوظف بابن حلاق الحمير اللِّى بيشتغل نصاب فى السوق وبيسمسر ع الفلاحين؟

- بيكسب ولاَّ ما بيكسبش؟

- وافرضى بيكسب.. ح يكسب إيه يعنى؟

- يكسب كتير.. دا السوق ياما رفع ناس..

- أحنا ابننا معاه شهادة عالية

- وماله يا أختى.. بس إللِّى جاى مش زمن شهادات.

يتحوَّل الجدل بينهما إلى حوار ممطوط لا ينتهى إلا إذا كح أبى ونادى على أمى ليلومها على مخالفة أمها فى كل شئ دون أن تراعى أنها كبرت فى السن ولن تتبدَّل مهما كانت الأسباب، لكنه

فى بعض المرَّات كان يخرج إليهما بنفسه فى وسط الدار ويقتعد دكة النورج القديم ويقول لأمى:

ـ أمك معاها حق.. إللِّى معاه قرش النهاردة بيساوى قرش وإللَى ما معاهوش ما بيسواشى.

تفرح جدتى وتدعو له بحلاوة الريق الدائمة، كأنما تدعوه لأن يشاركهما القعود فى وسط الدار بدل الرقاد المتواصل فى المندرة، كان أبى فى تلك الأيام قد أحيل إلى المعاش وكفَّ تقريبًا عن كتابة اللافتات ومذكرات المحامين وخطوط أغلفة الكتب التى تطبعها مكتبة المستقبل فى المديرية، ذلك أن أبى كان قد أصيب بمواجع فى عموده الفقرى ومفاصله فصار قليل الحركة، قليل النوم، قليل الصبر والاحتمال، لكنه لم يفقد قدرته على السخرية من الزمن والناس، كان يبرع فى نسج الحكايات التى تليق بمناسبة الكلام، ولابد أنه كان يريح جدتى عندما يحكى لها حكاية مرَّت به أيام الوظيفة تدعِّم فكرتها فتدعو له بالسلامة ودوام العقل والصحة وحلاوة اللسان، يحدثها:

ـ شوفى يا حماتى، واحد قابل واحد وسأله.. خطَّك أحسن من خطِّى؟.. رد عليه التانى وسأله.. حظَّك أحسن من حظى؟ سكت وقعد مكتوم كتمة المدمس.

ـ يا حلاوة كلامك يا جوز بنتى.. وبعدين؟

ـ كان معايا زميل ف مدرسة الخطوط، كنا بنتعلم خط، نسخ ورقعة وفارسى وكوفى وديوانى وثلث وكافة الأشكال، وأنا كنت

شـاطر عنه كتـيـر، كنت أنـا البـريمـو عليـهم وهـو كـان ف صـفـة الخـايبـين، طيب إيه رأيك بقى إنه بعـد الدبلوم هو جـرى واتـنطط وسـعـى للأكـابر وجـاب وسـايط عـيِّنوه خطاط ف الديوان الملكى نفسه.. شوفى أنتى بقى الديوان الملكى.

ـ كنت أعمل زيه وأرمح رمحه يا جوز بنتى، أهو كان بقالنا واحد فى الديوان الملكى.

ـ أنا ما كانليش حد يا حماتى، وما كنتش أعـرف أعمل ربع إللِّى هو عمله.. أنا كـان كل مناى أشتغل ف البندر، عـيِّنونى كاتب فِ الصحـة فرحت واتجوزت وخلَّفت وعلَّمت ووظفت واتحلت ع المعاش، وسمعت صوتك جيت، تحبى اكمل لك الحكاية؟

ـ سايقه عليك النبى تكملها قبل ما تقوم..

ـ صاحبى بتاع الديوان الملكى ده طبع كروت باسمه ووظيفته ف الديوان الملكى وكان بيـبيع الكارت الواحـد بميت جنيـه ف عـز الرخص بتاع زمان كانت تشترى خمس فدادين.

ـ بقى ميه بحالها؟

ـ ميه مجَّمده ورقه واحده.. لو كـان فكة مـا يرضـاش، شـوفى أنتى بقى كـارت مكتـوب عليـه فـلان الفـلانـى وتحت منهـا الديوان الملكى، أبو مين يشتريه ويقضِّى بيه مصالحه..

ـ يا خويا هاتلنا منه كارتين تلاتة.. أمَّال زمالة إيه؟

ـ وأدفع ميت جنيه ف كرت الخيبان.. ليه؟

ـ هو كان ح يدفَّعك أنت كمان؟

ـ إللِّى زى ده ما يعرف زمالة ولا قرابة ولا حاجات من دى، كان ح يدفَّعنى زى غيرى ويمكن أكتر كمان، المهم.. الراجل ده سنه والتانيه بقى صاحب أملاك.. أملاك واسعه، ناس من زمايلنا قالوا إن عزبته فاقت عن الألفين فدان ..

ـ ألفين..؟ بتقول ألفين؟

ـ وخد رتبة الباهوية رسمى كمان..

ـ كمان أمَّال إنت فضلت خايب ونايب كده ليه؟

ـ أنتى ح تغلطى فىَّ يا حماتى؟..

ـ يا خويا لو كنت عارفه الحكايه دى ما كنتش إديتلك البنت تخيِّب أملها كده.. ونطلع لها عيال متعلمه ومتوظفه وخيبانه. طب بكره نشوفوا يوسف إللِّى أنا مربياه، بكره تبقى له عزبه تزيد عن الألفين فدان.

تثور أمى ولا تملك نفسها وتدفع أمها دفعًا متوصلاً:

ـ قومى يا ولية.. قومى على حيلك.. قومى.. أنتى جايه تسبخِّينا ف دارنا كمان.. يوسف إيه يا بتاعة أم يوسف مرات حلاق الحمير؟ مش عاوزه أشوف وشك هنا تانى .

الغريب أن جدتى كان تضحك بينما تطاوع أمى وتقوم، تحتمل غضبها المفاجئ وتخرج من دارنا بالفعل وهى تدغو عليها بخفة العقل الزائدة وتظل تعايرها باسمها «الخروبى» وتهدِّدها بأن تكتب

لها طلبًا لتروح الخانكة، ولولا ردود أمى التى تتوالى دفاعًا وسبابًا وملامة لفسرنا كل ما كانت تقوله جدتى لنسوان الدرب عن جنون أمى وقلة عقلها لصالحها، تشهدّهم وكأنها بوجودها فى الدرب على مقربة من باب دارنا تكايد أمى وتعاندنا بينما تتضاحك نسوة الكفر ويؤكدن لجدتى أن أمى لن تستغنى عنها وإنها هى نفسها لن تستغنى عن أمى مهما كانت الأحوال.

نتضاحك بعد ارتحال جدّتى وهدوء أمى المؤقت قبل أن تعاتب أبى على سكوته عندما غلطت فيها أمها كل هذه الغلطات فيعاود تهدئتها ويذكرها بأن الموضوع من أوله ضحك فى ضحك وسرسبة كلام.

لكن يوسف كان يتبدّى لى فأراه فى بعض الحالات مالكًا سطع نجمه وعلا صيته رغم وضاعة البدايات مستعيدًا إلى جواره صورة زميل أبى خطّاط الديوان الملكى صاحب الأملاك.

* * *

كنت من أوائل القطر فى الشهادة التوجيهية فأسعدت أبى وأهلى، لابد أن أبى كان قد راهن على تفوقى وكسب الرهان، قبلونى بكلية الآداب جامعة الملك فؤاد وبالمجّان، ويوم سافرت مع أبى لمصر المحروسة لم يكف عن إسداء النصائح لى، أوصانى بالتعقل وذكّرنى بضرورة الانتباه لدراستى حتى أحافظ على تفوقى وأحتفظ بالمجّانية، حذّرنى من أصدقاء السوء أو المشى فى سكة الحرام والعيب، أجّر سكنًا لائقا بالقرب من الجامعة واشترى

الفراش الضرورى قبل أن يمنحنى أول مبلغ كبير أصرف منه على غذائى ومطالبى الأخرى، ذكَّرنى بأننى أول من يدخل الجامعة فى أسرتنا متوسطة الحال التى ليس منها صاحب رتبة أو عزبة مملوكة، وعليه فيلزم أن أرفع رأسه ورأس أسرتنا والكفر كله، وعدته وأنا أودِّعه على رصيف محطة القطار المسافر بتنفيذ وصاياه، سالت دموعى والقطار يتحَّرك ويتباعد وهو يلوِّح بيده وبدنه نصفه خارج من نافذة القطار، ورأسه العارى يطل ناحيتى وقد خلع الطربوش مخافة أن تطيِّره الريح، لابد أنه كان يتابع وصاياه رغم التباعد المتسارع للقطار الذى ظللت أنظر فى اتجاهه حتى اختفى ولم يعد هناك غير قضيبين متوازيين يشكلان ما يشبه السهم الذى يحدِّد اتجاه الكفر والأهل والغيطان، عدت لأعيش أول أيام اغترابى متوحدًا ومحاذرًا من الخروج عن الخطوط التى رسمها لى قبل السفر، وفى الجامعة كنت أتباعد عن أولاد الأكابر وأصحاب النفوس الشريرة ممن لا يكف الواحد منهم عن الكلام الفارغ أو الدعوة لارتكاب المعاصى وقد ارتادوا البيوت السرية القريبة التى يتحوَّل فيها جسد المرأة إلى سلعة يمكن تأجيرها مثل الدراجة المزوَّقة والمعلقة على جدار مدخل دكان العجلاتى، كانت سكة الحرام فى المدينة تخوِّفنى، لكن وسواسًا خناسًا كان يوسوس لى بأن أجرِّب وقد صرت وحدى لا رقيب ولا محاسب، لكن الوسواس الخنَّاس لم ينجح كثيرًا قبل أن أتوب عن المعاصى وانتبه لدراستى.

لا أدرى كيف نجوت من المدينة أو كيف فاتت سنوات الدراسة دون أن أفقد تفوقى والمجّانية وثقة أبى وأهلى وزهو ناس الكفر بأدبى وحسن تربيتى، بينما كانت فضائح يوسف الذى ترك المدرسة تروى على الألسنة كنوادر لا تليق بواحد فشل فى الحصول على الابتدائية ورفض أن يتعلم صنعة أبيه أو يتطوع فى خدمة الجيش، كنت أتقابل معه على فترات متباعدة ربما حرصًا منى على أن تظل صورتى فى عقول الناس وأولهم أبى وأمى كما هى صورة بيضاء لم تفسدها المفاسد حتى ولو كانت لا تخصنى، صحيح أننى كنت خلال سنوات الدراسة منشغلاً بالدراسة لا أرجع إلاّ فى أجازات الصيف، لكننى كنت ألتقى خلالها بالأقارب ورفاق العمر أحدثهم عن المدينة عالية البنايات وقاطرات الترام التى تسير فى الشوارع إلى جوار الحناطير والدراجات والسيارات ذات الأبواق العالية، ينبهرون ويسألون عن البنات السافرات اللابسات ثيابًا عريانة فلا أفيدهم بشئ، ولابد أنهم تشككوا فى أمرى، وأنهم استدعوا يوسف ليكون معنا فى آخر أجازة صيف، كان يأتى ويتحدَّث عن مغامراته مع البنات فى الكفر فيأسرهم ويأسرنى، أشعر أننى انعزلت عن الدنيا خلال فترة اغترابى والدراسة، لعله فهمنى أكثر مما فهمونى وتجاوب معى بما يليق فتحوَّل بعدها إلى أنيس وجليس، يسألنى ببعض الوعى فأسمى له الأبطال والأحداث والخونة وشهداء الوطن، أصف له بحسب ما تسعفنى الذاكرة تلك المعارك التى خسرناها وتلك التى كسبناها فيهز رأسه بدهشة، أحدثه عما خلَّفه الفرس والرومان والأتراك والمماليك المجلوبين والخصيان من قلاع

وقصور، أشعر فى بعض الأوقات أنه صار شريكى فى رحلة الكشف عن المخبوء فأفرح، وأشعر أحيانًا أننى كنت احتاجه أكثر مما يحتاجنى لأنه بارع فى الاستماع، يسأل أو لا يسأل أولاً لكنه يحسن الاستماع، لعلّنى كنت أدرّب نفسى دون أن أقصد على مهنة المعلم، بل إنه هو الذى أوحى لى بذلك مرّة:

ـ دانت ح تبقى مدرس شاطر.

وكان يحق لى وقتها أن أزهو بنفسى، يسألنى، وأنا فى هذه الحالة عن حلمى فى المستقبل فأجاوبه دون أدنى تردد بأننى أتمنى لو علّمت تلاميذ المدرسة شيئًا نافعًا من تاريخ الدنيا وتاريخ الوطن، يسألنى مرّة أخرى وكأنه يصحّح السؤال السابق عن حلمى الأكابر فأحدثه عن رغبة أشعر بها داخلى للعطاء من أجل مستقبل الناس وعيال الوطن، يبدو حائرًا فى أول الأمر ثم ما يلبث أن يبتسم قبل أن يحطّ يده اليمنى على ظهرى أو كتفى، يحركها بنعومة ثم يسحبها ويفرد الكفّين وكأنه يقرأ الفاتحة على قبر ميت ويقول نفس العبارة:

ـ ربنا يجعلنا من بركاتك يا سيدنا الشيخ.

أكتشف على امتداد الوقت أننا رغم الائتلاف نختلف، لكنه كان خلافًا محتملاً، لعلّ يوسف فى تلك المرحلة وعانى بأقصر الطرق لتحقيق الطلوع غير أنى لم أفهم أو أستجب، ولعلّنى برغم إرادتى زوّدت معرفته بما جرى فى الأزمنة السابقة فقدمت له دون قصد مفاتيح بعض الأبواب المسكوكة، يفتحها إذا شاء وقت أن يشاء،

وربما كنت أنا فى ذلك الزمان كتابه المفتوح على الماضى وعينه المستكشفة، أو كنت درويشة الغطسان فى قراءة التمائم القديمة والأدعية وأوراد المشايخ، ولعلّه كان منبِّهى ومحذِّرى من الاسترسال فى الأحلام المستحيلة، أو الغرق فى دوّامات الطنطنة فى هامش الطنطنة، كان يفاجئنى دائمًا بسؤاله:

- ما فكرتش تعمل حاجه لنفسك فى المستقبل؟ لحسابك أنت؟

أتحيَّر فى فهم مقصده لإصراره على تكرار السؤال رغم عجزى فى كل مرَّة عن الرَّد عليه، وهل كان لواحد مثلى أن يحلم بأكثر من وظيفة؟ وكان أبى يسعى ويسافر ويحصل على وعود بعدد المشاوير التى يقطعها، وعلى نصائح بأضعاف أضعاف الوعود تطلب منه أن يوطِّن نفسه على الصبر حتى تتغيَّر الحكومة، لكن الحكومات كانت تتغير بسرعة أو يقيلها الملك ولا تتحقق الوعود، يبقى لنا الصبر واحتمال الانتظار، ولعل إحالة أبى للمعاش زوَّدت همَّه وأحزنت قلبه، صار يتحدث عن مشوار عمره الطويل الذى قطعه ماشيًا على السراط المستقيم دون أن يتحقق له أو لنا ما كان ينتظره فى آخر المشوار، كانت الوساطات هى الوسيلة الوحيدة للحصول على عمل، لم يعد هناك أدنى خجل أن يأتى واحد من زملاء أبى القدامى ليعرض عليه توسيط فلان بك أو فلان باشا بمقابل يحدِّده من غير مواربة، وكان أبى يشعر بالإهانة والغضب، يعتذر للرجل عن تدبير المطلوب، وعندما يخرج الرجل كان أبى ينصب فى الدار مندبة ويلعن الحكومة السابقة والحالية والتى سوف تأتى، يتوجَّع من أنه

جعلنى أرمح بكل عزمى وفى نهاية المشوار لم نحصل على شئ اكثر من شهادة على ورقة ليست لها شفاعة أو فائدة، وكانت الأسئلة المتكرِّرة سواء بحسن نية أو سوء نيَّة تزوِّد فى قلوبنا الوجع وتؤكد عجز أبى عن الوصول إلى أى واحد من المسئولين الجدد بعد أن أحالوه إلى المعاش واقتعد الدار مثلى يندب الحظ المعاند ويتحسَّر على ما فات ويشككُنى فى سلامة الاختيار.

وكان يوسف فى نفس تلك الأيام يفتح لنفسه السكك ويتشدَّق بأسماء أكابر الناحية والعبِّ الجوَّانى من شراودة ودكارنة ونوَّاب برلمان أعيان يستطيع الواحد منهم أن يتولى تعيين الأفندية أمثالى فى الوظائف بشروط لأن لكل شئ فى بلدنا ثمنه، والشاطر الشاطر هو الذى يدفع ويستلم ويوسف يفتح الموضوع ويقفله فى نفس الوقت بنفس العبارة:

ـ بس أنتو بقى مش بتوع حاجات من دى.. براحتكم.. خليكم على راحتكم.

كنت أشعر أنه يتعامل مع الدنيا بمنطق السمسار فى السوق الذى إنعجن فيه وفتح لروحه داخل دهاليزه أكثر من سكة، سمسرة وتجارة وتربية مواشى وتسمين عجول فى الزريبة الكبيرة التى كانت جزءًا من أرض الواطية، تجاسر يومًا وسوَّرها بالحطب ثم استبدل الحطب ببوص مدهوك بطمى مخلوط، ثم تجاسر أكثر وبناها بالطوب من داخل السور المعمول بالبوص ثم سقَّفها بالخشب وفتحها على خلفية دارهم، وبعدها انفتح الباب لغيره من أصحاب

الدور التى تطل على الواطية من أى ناحية، كان كل من يطمع فى جزء من هذه الأرض التى كانت على المشاع يذهب إلى يوسف فيحدِّد المساحة التى يرغب فى ضمِّها ويدفع له الثمن الذى يحدِّده يوسف قبل أن يضع على أرضها طوبة واحدة لأن يوسف أشاع أنه اشتراها ودفع ثمنها دون أن يحدِّد اسم صاحب الواطية الأصلى أو الثمن الدى اندفع فيها، لكن ما كان يهم الناس الساكنين حول الواطية هو إمكانية ضم الأجزاء لمقدمات أو مؤخرات أو أجناب دورهم، ومن هذه المبالغ تكونت خميرة البداية ليوسف الذى كان أول من نهش أرض الواطية التى تحوَّلت إلى شبه فطيرة كبيرة إنحطّت وسط مجموعة فقهاء عميان فمزقوها وابتلعوها على عجل وبلا نظام أو رحمة حتى أنه لم يبق منها غير شرم ضيِّق ينفذ منها البنى آدم متوسط العود بجنبه ولا يسمح بمرور عيِّل سمين بالعرض، قالوا إن يوسف نفذ موضوع الواطية بعد أن استأذن من أكابر الكفر وسمحوا له لأنه تشكَّى لهم واستعطفهم فعطفوا عليه ووعدوه بعدم التعرض له ثم ندموا على ما فعلوا وإن كانوا لم يلحسوا كلامهم، وقالوا إن يوسف سأل وتأكد أن الأرض مشاع فعمل العملية شطارة وخفة حركة لأنها فى واقع الأمر اختفت مثلما يختفى المشمش فى كفرنا بعد ظهوره بأيام، أو حتى قبل أن يراه البعض أو يتذوقه العيال، بعدها استخدم يوسف بشهادة كل الناس خميرة البداية وتحوَّل من سمسار صغير إلى سمسار وتاجر ومربِّى عجول ومالك تحسب الناس حسابه وترد عليه السلام رغم إنه ابن حلاق حمير.

لكن وثبته الكبرى جاءت على يد جدَّتى التى سألته ذات مساء وهو فى دارنا مع أمه فرحانة إن كأن لم يفكر فى الزواج وقد تعدَّلت أحواله فجاوبها:

أنا عايز نسب يسندنى.. ناس تكون جامده ولها هيبه.. إيه رأيك فى رأفت الشارد.. بيقولوا عنده بنت.. ما.. ما. جلهاش نصيب.

أصيله؟

صرخت أمى بالاسم فى فزع وهى تنظر ناحية جدَّتى المندهشة والتى لابد أنها كانت قد ذكرت اسمها عدة مرات وهى تعيد على مسامعنا تلك الحكاية القديمة التى كان الناس يتداولونها عن قرابة الشراودة بالشلبى، كان اسم جعفر بك الشارد يتردَّد على لسانها فى تلك الأيام كملجأ يمكن أن نلجأ إليه إذا فشلنا فى الحصول على الوظيفة بطرقنا:

- وفيها إيه يا هبله، أهو مشوار، وشوفى بنفسك الخير اللّى هما فيه.

تقولها جدَّتى لأمى إذا اختلت بها وحدثتها عن جعفر الشارد وأخيه رأفت الشارد الذى عنده بنت بارت وفاتها قطار الزواج.

- خديها له يا هبله، خديها له دى إللّى ح ترفع مقامه وتعمل له سعر.

تصرخ أمى وتعاركها بكل عزمها وربما تطردها من الدار طردًا وتشيِّعها بالسباب، والأخرى تضحك وكأنها بإثارة أمى حقَّقت المراد

من زيارتها، تشتم أمى وتذكّرها بأبيها الخائب الرجاء فتثيرها أكثر ولعلها لا تهدأ إلا إذا تدخَّل أبى وقام ليذكِّرها بهمنا الكابس على صدورنا.

- اهدى امال.. هو إحنا ناقصين، بزيادة إللِّى إحنا فيه.

- قال يا خويا عاوزاك تناسب رأفت الشارد.

- وبعدين بقى.. ما تقول إللِّى هى عايزاه.. هو الكلام عليه جمرك؟

- حاجة تنقط.

على هذا النحو كانت الزوبعة تثور فى دارنا، مشروع زواج بالإكراه ترفضه أمى ولا يقبل أبى مناقشته ولا دخل لى فيه بأكثر من السماع، لكنه فى هذه المرة تحوَّلت الدفة وانحرفت كل المجاديف لتجدِّف فى بحر الشراودة وبنت رأفت الشرد لحساب يوسف، فجأة تحوَّل يوسف إلى مشروع عريس بديل معلن فى دارنا وكأنه جاء خصيصًا مع أمه فرحانة وجدَّتى لإبلاغنا بما لا يهمنا من ناحية الشكل لكنه يهمنا من ناحية المعنى، ما معنى الإلحاح السابق رغم الرفض ثم الحديث عن النسب الذى يسند والناس التى لها هيبة وضد من هذه الهيبة؟ على هذا النحو فكرت وأنا أنظر إلى يوسف وقد تحوَّل إلى بديل لا أرضى أن يكون بديلى أو أكون بديله حتى ولو بالكلام، نظرت جدتى ناحية أبى وسألته:

- رأيك إيه يا جوز بنتى؟ .. يوسف مستعد أهه، أمشىٍّ له السكة؟، واجب أشاورك.

ـ إحنا ما كانش بينا وبينهم كلام لجل تشاورينى.

سكتت هى وقام أبى تاركًا المكان وداخلاً إلى القاعة الجوَّانية تتبعه بعينيها أمى وقد سكنت فى مكانها، متماسكة بعسر شديد حتى لا ينفلت لسانها بالغلط، طال الوقت أو بدا لنا ويوسف قاعد فى نفس مكانه وقد طال عنقه وانمطَّ فبدا على هذا النحو أطول من قامته الحقيقية وأعرض، وكانت أمه فرحانة تجلس إلى جوار أمى على أرضية المندرة بينما جدتى فى الناحية الأخرى مشحونة بكلام ومتحفزة للنطق به عندما يحين الوقت اللائق، أو ينفتح باب الكلام المسكوك بكلمة أو إشارة أو حركة، لكن أمى أحكمت إغلاق الباب أكثر وكأنها سكّته بالضبة والمفتاح وهى تقول ليوسف بينما تقوم من مكانها وتتجه ناحية القاعة الجوَّانية:

ـ مبروكة عليك يا يوسف، أنا داخلة أشوف الراجل رقد ولا إيه.

تململت جدتى بقلق، لعلها فتحت فمها ولم تعثر على الكلام اللائق فابتلعت الهواء وابتلعت معه ما كان على لسانها من ألفاظ، وحركت نفسها بعسر ثم قامت فقامت فرحانة وقام يوسف وقمت أنا أتابعهم وهم يخرجون فى صمت، جدَّتى أولاً وفى كعبها فرحانة ثم يوسف الذى كان يشير بيده عدة إشارات متتابعة لم أفهم معناها أو أسأله عن مغزاها خصوصًا وأنه كان يضع يده على فمه وكأنما يمنع نفسه من الكلام أو يمنعنى، وعندما انسكَّ الباب تأكدت أنهم فى الشارع المفتوح لأى كلام.

وفى القاعة الجوَّانية كان أبى يرتكن بكوعه على مسند الكنبة واضعًا رأسه المائل على راحته المفرودة لأعلى، وكانت أمى تجلس قبالته على نفس الكنبة، لابد أنهما لم يشعرا بوجودى وأنا أدخل المكان لأنها كانت تحاوره بنفس النبرات:

ـ وهو ده يليق له جواز الوقت ده؟

ـ دول قطّاعين طرق وقتّالين قتله.. أنا خايف ع العيال.

ـ إحنا فى حالنا..

ـ ما هو المرحوم كان ف حاله.. لا اشتكى ولابلّغ ولا نطق .. يدوب فهم وبعبع بكلمتين ف الدار، ف دارنا.. حطوا له السم ف كبايّة الشاى.

ـ يعنى أنت كنت شفت؟ كلام الناس كتير ونصه كدب.

تنهد.. والتفت ناحيتى، أشار لها إشارة جعلتها تلتفت ناحيتى هى الأخرى، طالبتنى بالجلوس بدل الوقوف وسألتنى عن جدَّتى وفرحانة ويوسف وكيف تركتهم فى المندرة فجاوبتها بأنهم خرجوا، هزت رأسها وجعلت تربِّت على كتف أبى فى حنو وكأنه طفل غضبان تصالحه أمه:

قوم ما تقعدش كده.. هو حصل إيه؟

واستأذنت أنا خارجًا ومدعيًا أننى ذاهب لبيت الأدب، ولا أدرى كيف شعرت بثقل فى أسفل البطن جعلنى اتجه إلى بيت الأدب فعلاً رغم أننى كنت عندما استأذنت منهما لا أفكر بالفعل فى

الذهاب إلى هناك، لعلنى كنت أعفيهما من وجودى فى نفس المكان ليكملا ما كان بينهما من كلام، وفى العتمة النسبية وأنا اقتعد القاعدة وأخلع بسرعة قبل أن يندفع من مؤخرتى إسهال له رائحة عفنة لم أعتد شمها قبل ذلك أبدًا، كنت أرغب فى الفرار من الرائحة وأشعر فى ذات الوقت بثقل شديد وامتلاء زائد وعسر فى الإخراج، هل طاف فى خيالى وأنا مزنوق طيف جدَّتى لأبى أو سمعت صوتها وهى تحكى حكايتها المكرورة عن عمدة الكفر الجوَّانى الذى دسَّ له السم فى كوب الشاى وهو فى شغله فى مكتب الصحة جنب مفتش الصحَّة فمات بحسب قولها قبل أن يفهم بقية الملعوب، مجرد أنه حاول أن يفهم، لا اشتكى ولا أبلغ ولا نطق بحرف للغرباء، بعبع فى داره بكلمتين فسمعتها الجدران ودفع ثمنهما حياته بيد الشواردة.

تباعدت جدَّتى عدلات عنا فى أعقاب ذلك اللقاء الفاتر فارتاحت أمى وشعر أبى بمزيد من القلق، كان ما يدور فى الدار مجرد تكرار تتعارض فيه آراء أمى مع مخاوف أبى، هى مطمئنة ومرتاحة وهو قلق وخائف، يتحدثان عن تاريخ الشواردة والشلبى وكيف استند على مكائد النساء وتدبيرات النساء، الغزالة الشاردة وفطوم وزاهية وأم هارون ومريم أم البنات، والآن جدَّتى عدلات التى ظلت تعلن وتؤكد أن الأفضلية عندها للناس الشلبى ومن يدورون فى مدارات الناس الشلبى أو يدور الناس الشلبى فى مداراتهم، فضلت فرحانة والعبيطة «كاف» على أمى العاقلة الكاملة بحسب وصفها هى نفسها والذى لم يكن له أى فائدة أو أثر، هو

رأى لوجه الله تعلنه بمناسبة ومن دون مناسبة لكنها تتعامل بما يوحى بمعكوسه تمامًا وتبرر:

- انتى بتسلكى فى الحديد، لكن فرحانه الغلبانه المقطوعه «وكاف» الهبله يحتاجوا إللِّى يسندهم ويتسنّدوا عليه.

وكانت أمى فى كل مرَّة تثور محتجة وتتعارك وربما لا تهدأ إلاَّ إذا تدخل أبى وسألها إن كانت فى حاجة إلى أى شئ وتخجل أن تطلبه منه وهو المسئول عنها فتنفى ذلك، يسألها كيف تسمح لنفسها بأن تظهر للناس وكأنها طمعانة فى أمها فتشعر بالخجل وربما تسكت قبل أن تعود فتتذكر ميراثها من أبيها وتطلب منه أن يريحها ويطلبه من أمها، يؤكد لها إنه لا يصح أن يتدخل بين بنت وأمها من أجل ميراث هزيل وعلى المشاع لا هو مكتوب ولا شهد عليه شهود.

لكنها كانت مناوشات لا ضرر ولا خطر بحسابات أبى، لكن الخطر الحقيقى جاء مع عرض النسب والزواج من بنت رأفت الشارد التى بارت بشهادة الكل وفاتها زمن الزواج، هو نوع من الزواج بالغصب والتخويف ورفضه خطر وقبوله خطر، كانت هذه هى خلاصة رأى أبى فى تلك الأيام، وكان يجرؤ فى بعض الأحيان على السخرية من العرض المتكرر:

- طيب، يوظفوه الأول ويأخدوه، ولا هما على طول كده ياخذوا قبل ما يدُّوا واكتر بكتير؟ كسبانين كسبانين، يكونوش فاكرين إنهم بيطيبوا خاطرى لجل ما أنسى إللى فات؟ يمكن، طيب

يطيبوا خاطرى بعروسة تستاهل الولد المتعلم، مش بنت بايره أكبر منه بعشره اتاشر سنة ع الأقل.

تسكته أمى فيسكت ويتذكر أن الجدران لها آذان قادرة على سماع دبة النملة، يسكت بعد أن يبرر سكوته بالخوف على العيال، نخاف وننكمش على أرواحنا أكثر مما انكمشنا فى الأزمنة السابقة، أشعر أن لنا فى رقاب هؤلاء الناس دم، وأننا مطالبون بأخذه من أعمارهم بينما يسكننا الخوف الذى زرعه أبى فى قلوبنا، أرغب فى أن أتجاسر مرَّة وأتحرَّر من خوفى وخوفه، أن امتلك جرأة أمى على المواجهة فأكاد أن أمتلك الشجاعة بالخيال وأن أتخطى كل الموانع وأنسف كل المعوقات ثم أصل إلى غايتى وأتحكم فى مصيرى ومصائر أعدائى، أعفو عن البعض وأقتص من البعض قصاصًا عادلاً وأرفع هامة أبى المحنية دون مبرر، ثم أفيق لأجد الفاصل الجديد فى الحكاية القديمة وقد دخل يوسف إلى بؤرة الأحداث بديلا عنى يرتضى الدوران فى المدارات الأعلى كتابع مطاوع لهؤلاء الناس ذوى الهيبة والشوكة القديمة، مركوبا بحسابات أبى وأمى أو راكبا بحسابات جدتى عدلات، طالعا على أكتافهم أو نازلا تحت نعالهم من أجل أن يعمل لنفسه فى كفرنا مقامًا أعلى من مقامه الحقيقى، متغطيًا بهم بحسب ما قال لى لأن الناس الشلبى عرايا ومن يتغطى بهم فى كفرنا عريان.

كنا فى دارنا نتابع أخبار الزيارات المتبادلة وقد خفَّت حركة جدتى عدلات من والى الكفر الجوَّانى ودوَّار رأفت الشارد، وخفت

حركة بعض الناس الشراوذة إلى دار جدتى وكأنها تبشر بفرح قادم لقلوب بعض الناس على حساب بعض الناس، أو أنها تبشر بطلوع ناس ونزول ناس، يكتمل اطمئنان ناس وخوف ناس.

* * *

وزهزهت ليوسف الأيام وقال الناس للناس أنه تاب عن كل شئ يغضب الرب أو عباده، وقالوا إنه صار من العباد الصالحين يصلى كل فرض فى أوانه حاضرًا وكل جمعه فى جامع كبير، يسافر بالمخصوص ليلة الخميس ويصلى فى مقام البدوى أو الحسين أو الدسوقى أو المرسى أو غيرهم من أولياء الله صلاة الجمعة جماعة، قلت خيرًا مادام قد زال شره عن عباد الله فهو خير، بينى وبينه وبين الناس اعتزلته وما عادت سيرته تشغلنى بعد ما كان منه، لا صلح وخصام، بينى وبينه حدّ الله من الجزاء وإن كان مظلومًا عوَّضه الحاكم العادل الذى لا يدانى عدله فى الدنيا عدل، حتى أشواقى أن أرى فيمن غدر بى وخان ساعة واحدة من ساعات الندم أو أن أسمع بآذانى اعترافه بأننى انظلمت ولو باللسان، حتى هذه الأشواق فترت وكادت أن تنمحى من كثرة العدّ وفوات الأيام دون أن تظهر عليه بشائر الضعف أو نقص القدرة على ممارسة الظلم، لا صلح ولا خصام، وهل كان من الممكن لرجل فى مثل حالتى وعمرى وجرح قلبى أن يصالح أو يخاصم؟، كنت قد تحوَّلت بفعل الغدر والخيانة لخبز العمر وملحه وعلاقة الدم البعيدة إلى خيال، مجرد خيال كاره حتى استمراره فى الحركة والتنفس وسماع

صوت نفسه وقد انعزل وتقطّعت كل الخيوط التى كانت توصّله للحياة ونبضها الخلاب، زهزهت ليوسف الأيام ولم أصدق أو حتى أكذّب أنه تاب، تاب أو زاد شرّه مهما زاد فهل يمكن أن يفيض على واحد مثلى أكثر مما أفاض؟ زهزهت ليوسف الأيام لكننى لا كنت فى صفّه أتباهى به مثلما يفعل الناس الشلبى ولا كان فى صفى محسوب له أنه راعى عشرة السنوان وعظام المدافن، لكن لكل شئ فى كفرنا نهاية، ونهاية يوسف غير كل نهاية، ربما لأنها جاءته فى زمن الزهزهة والشبع الذى ما بعده شبع من كل شئ، مال وعزوة وخلفة وقدرة وهيبة وإمكانية حاضرة لتصفية الخصوم أو حتى من يتشكك فى ولائه، ولابد أن يوسف شبع أيضًا من ممارسة الشر واطمأن باله أنه لن ترتفع فى مواجهته هامة أو يعترض على أى فعل من أفعاله معترض.

* * *

وفى كفرنا وكل بلدان الناحية مثل منطوق عمَّن خلَّف من صلبه خلفة فلم يمت، خلفته هى امتداده وبقية عمره حتى لو انحشّ أجله بفعل فاعل أو مجموعة فعلة، استحضرنا المثل وردّدناه وتأكد لنا أنه مثل أصيل وحقيقى وغير مدسوس، طالع من نفس الأرض وشارب من ماء النهر مثلما كان إبراهيم ابن حسين البرادعى، حسين البرادعى الذى انضرب بالنار فى عز الظهيرة فارتمى على محصول قطن غيطه المجموع تحت الجميزة المائلة والتى كان يطيب له أن يقول عنها إنها مائلة مثل الزمن الشلبى أول ما تولى يوسف عمادة

الكفر لأول مرة، حسين البرادعى الذى كان يستطيع إذا شاء أن يضحّك طوب الأرض بسبب قدراته الفذّة على تشبيه الناس والأشياء بتشبيهات مضحكة، وكان ناس الكفر بأكابره وأصاغره يسمعون ويضحكون ويسامحون لأن عقل حسين البرادعى «طاقق» ولسانه مفلوت، تستهويه النكتة فيطلقها دون أن يحسب حسابها أو يقدر على تلجيمها وكأنها ركوبة مفلوتة فى السكك والغيطان لا يعرف الناس مكان مربطها أو حبل لجامها، أيامها كان يوسف حديث عهد بالعمادة لأول مرة، وكان الشراودة أهل أصيلة يبحثون فى دروب الكفر عن المربوط ليضربوه حتى يخاف ويكشّ من ساب قيده وانفلت، ولعلهم وجدوا فى شخص حسين البرادعى غايتهم ومرادهم لأنه من صنف معدود ناسه على أصابع اليدين يسكنون فى زقاق ضيق مخنوق داخل درب الناس الشلبى بعد أن كان يتسمى درب النعناعية والشوكى ثم باسمهم غصبًا وعدوانًا، شخص ساكن دخنوق وله زوجة شابة وطفل صغير وليست له إخوة أو حتى أولاد عم معمول حسابهم بالإضافة إلى لسانه الذى تجاسر ووصف أصيلة بأنها بوصة إفرنجى ثم لم يكتف بل أضاف:

ومخوّخة وسلتْ ملتْ خالص، مالهاش كسّم، بس يا سبحان الله، عمدتنا الجديد يوسف عملها قنطره، واستحملت الدوس لجل ما يعدّى ويفوت، حدش يا ولاد بلدنا شاف معديه معموله من البوص الأفرنجى..؟ أنا شفت.

* * *

وفى عز ظهيرة يوم شمسه نار حامية على أبدان الناس فى الغيطان ووسط خطوط القطن المنوَّر تجمعه وتحلم بالكسوة انطلق عيار مزدوج وأصاب صدر حسين البرادعى الذى سقط على كوم قطن غيطه الصغير والذى كان يجمعه تحت الجميزة المائلة مثل الزمن الشلبى، ولأن نار الشراودة أحمى من وقدة الشمس فقد أنكر واستنكر كل من حضر أو شاف مصدر العيار المزدوج، لكن حسين البرادعى باح لأم الولد.

- دمى فى رقبة يوسف شلبى يا أم إبراهيم.

قالها وحاول أن يقبِّل الطفل المحمول على صدرها وقد قرَّبته من حسين الذى بدا لها أنه كان يلعق خد الولد، لكنها كانت لحسة موت ارتمى بعدها فوق كوم القطن المخلوط بالدم.

كانت حكاية قديمة من عمر إبراهيم ابن حسين البرادعى، ولابد أن سنوات عمر إبراهيم إنضافت لعمرى وعمر يوسف وعمر كل ناس الكفر بالعدل المطلق باليوم والساعة والثانية، انضافت للغنى والفقير والصغير والكبير والحاكم والمحكوم، ربما لأنه فى حساب الزمن لا فرق ولا تمييز مثلما يحدث فى الأرزاق من تفاوت واختلافات، ولعل الناس تناست ما جرى لحسين وفوَّتت عبر السنوات التى هى عمر إبراهيم تلك الكذبة التى ظهرت لها سيقان وراحت تسرح فى الدروب وتزعم أن العمدة يوسف حتى بعد أن عزلته الحكومة ظل وفيًا للعهد الذى قطعه على نفسه بأن يتولى تربية إبن المرحوم فى دوَّاره التى صارت بعدها داره قبل أن تستعيد

مجدها وتتحوّل إلى دوّاره للمرة الثانية وبنجاح كبير، أخذ يوسف إبراهيم وأم براهيم، إبراهيم ليكون عبدًا مجانيًا من بين الخدّامين الأتباع، يتعلم أول ما يتعلم النطق عبارة «سيدى يوسف وستى أصيلة» بينما تخدم أم إبراهيم فى الدار وتحتمل إهانات الست أصيلة التى لا حد لها ولا مانع، وربما كانت تكيدها وتزوّد غلّها تلك التقاطيع الباسمة رغم الحزن البادى وهذه التفاصيل البارزة بانتظام ظاهر على البدن والتى قيل من بين ما قيل أنها كانت سببًا فى إصرار يوسف على استخدامها فى خدمة داره بالنهار أمام أصيلة وكل الناس، ثم خدمة هواه ونزواته بالقهر والغصب فى الليل ومن وراء ظهر أصيلة وكل الناس، كلها أقاويل لكنها لا تخلو من احتمالات حدوث أو على الأقل محاولات فاشلة أو نصف فاشلة، لايهم، المهم النوايا، والنوايا كفيلة بكتابة الحسنات والسيئات فهل تفشل فى إظهار معادن الرجال؟

لعل ناس الكفر لم تحسب لإبراهيم أى حسابات، نفر خدّام بلقمته وكسوته إن كان ما كان يرتديه من ثياب مهلهلة فضفاضة يسمَّى كسوة، وأمه تبتسم رغم الهمّ وتبرق عيناها ببريق غامض رغم الشحوب وبعض الضمور الذى لا يخفى ما كانت تتميَّز به من طراوة البدن وبروز تفاصيله.

كنت ألتقى به مصادفة أو يأتينى مرسالاً من يوسف، يهمس فى أذنى بانكسار:

ـ سيدى يوسف عايز حضرتك الليلة بعد صلاة العشا.

أو أن يهمس بنفس الانكسار:

ـ سيدى يوسف ح يفوت على حضرتك بكره قبل صلاة الجمعة.

لعلنى كت أراضيه أحيانًا بقرش أو بثمرة فاكهة فيفرح وهو يتناولها دون أن يعرف كيف يعبِّر عن فرحته بأكثر من قبلة يطبعها على خدِّى بعد أن اعترضت بشدَّة على تلك المحاولات المتكررة لكى يقبِّل ظهر يدى إمتنانًا أو عرفانًا بالنعمة، لكنه فى السنوات القليلة الأخيرة كان يقابلنى ويقبِّل خدى أو كتفى ثم يسألنى بخجل كثير:

ـ ما تدينى بريزة ولا اثنين لله يا سيدى الأستاذ

ـ ح تجيب بيها إيه يا إبراهيم؟

ـ يمكن أجيب بيها حلاوة يا سيدى الأستاذ وأفرَّح أمى.

كنت أمنحه ما تجود به نفسى وقد صعب علىَّ حاله، أقول إن أمثاله أحلامهم صغيرة وأن أقل شئ يرضيه وأنه يستحق الحسنة لأنه يتيم وربما لضيق عالمه لا يعرف عدوه من حبيبه.

الغريب أن معظم أفندية الكفر ممن يعملون فى الكفر أو البندر كانوا يتعرَّضون لمثل ما أتعرَّض له مع إبراهيم، يلتقى بالواحد منهم وربما فى يوم قبض المرتب ويطلب منه وكأنه على موعد مع حالة الاستعداد للدفع التى تصاحب الموظف يوم القبض، أو أنه كان يلتقى بمن باع جاموسة أو بقرة أو حتى خروف أو حمار، يلتقى به ويسأله نفس السؤال:

ـ بريزة ولا بريزتين ينوبك ثواب يمكن أشترى بيهم حلاوة وأفرَّح أمى.

صارت نغمة محفوظة عند أهل الكفر، وغالبًا غالبًا ما كان يحصل على طلبه، ربما لأنه كان يختار الوقت المناسب، وربما لأنه كان خفيف الظل رغم الإنكسار، وربما أعطاه البعض طلبًا للمغفرة والسماح أو طمعًا فى الجنة، صار الواحد منهم على استعداد لتكملة اسطوانة إبراهيم البرادعى قبل أن يدفع له البريزة أو البريزتين ليشترى بها حلاوة ويفرَّح أمه، لكن أحدًا من أهل الكفر لم يشهده فى الكفر أو فى البندر أو حتى مولد البدوى يشترى الحلاوة أو حتى يأكلها.

لكنه من كان يصدق أن قروش الحلاوة المزعومة سوف تتحوَّل إلى سلاح غشيم بروحين ومقبض ملوى وزناد من صلب لامع مغاير لحديد السلاح وبدنه المسنفر سنفره حدَّادى لم تفلح فى إزالة كل صدأه، سلاح مثل كل الأسلحة المعمولة باليد والممكن الحصول عليها فى السر المعلن من عند أى واحد من صنَّاع السلاح فى الناحية شريطة أن يخفى مصدر حصوله على السلاح أولاً، وأن يدفع ما يتم الإتفاق عليه ثانيًا، فرد يدوى بروحين ومعمول مخصوص لخطف روح واحدة وحشة أجل واحد اسمه يوسف.

- أنا حسين البرادعى رجعت آخذ بالتار منك يا يوسف.

يقولون أن الولد إبراهيم قالها وقد ارتدى ثوب أبيه حسين وحط على رأسه طاقيته الصوف الكحلى فاتح وعلى عنقه تلفيحته القطن الزرقاء فبدا لكل من رآه على صورته وفى مثل طوله وعرضه وله نفس صوته الخشن فى آذان من عاش فى السابق

وسمع الصوت، ولابد أن يوسف ارتبك وكل من أحاطوه فى تلك اللحظات القصيرة التى تفصل ما بين عبارة إبراهيم البرادعى التى قالها بدلاً عن حسين ولحظة انطلاق الرصاصتين من الفوهتين المتجاورتين واللتين استقرتا على مساحتين متباعدتين نسبيًا فى بدن يوسف، واحدة للصدر والثانية تحت البطن أعلى المنطقة الحساسة بين الفخذين، ارتمى يوسف وهمس لروحه أو لواحد من رجاله بعسر:

- لسه فاكر يا حسين؟

قالها وتكوَّم حول نفسه فى نفس مكانه والآخر رغم الفقر البادى على التقاطيع والثياب واقف بثبات فى نفس مكانه إلى جوار يوسف، وارتسمت فى أذهان الذين حضروا صورة تليق بفارس لا يخاف بل كانت هيئته قادرة على التخويف وقد شهر سلاحه بجرأة وشهامة فى وجه الجميع مهددًا من يتجاسر على الاقتراب منه:

- إللى مستغنى عن عمره يقرّب ناحيتى.. أنا اللّى قتلته وخدت تار أبويا وطالب الحكومة والنيابة أسلم لهم روحى.

لابد أن الرجال راجعوا أنفسهم مئات المرات قبل أن يشير أحدهم على شيخ البلد الشلبى بإبلاغ المركز واستدعاء الحكومة والإسعاف أيضًا فلربما.. لربما تكون فى البدن المتكوّم روحًا يمكن إسعافها لترد له الحياة، ورغم إقتناع الكل بأن السهم نفذ وإن العمر لن يتجدّد كما بدا لى وقد استدعونى وطاوعت لأشهد بنفسى كيف إنتهى أجله بالفعل على هذا النحو الفاضح الهزيل، وكأن من

زهزهت له الدنيا بلا أسباب لائقة مفشوشًا فى مظاهرها الكذبة لابد أن يلقى مصيرًا مثل مصيره حتى ولو كان وسط أهله وعزوته وناسه وقد ظهر لهم الفاعل بسلاحه فلم يتحرك منهم أحد، لعله نوع من الارتباك وقد انخطف العمر فى لحظات، ولعله خوف كامن فى النفوس يتصادف أن يظهر وينتشر ويسيطر على جماعة من الناس دون أن يستثنى منهم أحدًا، ولعلها يا سادة يا كرام طبيعة الأتباع الأبدية، يدورون فى أفلاك المتبوعين حتى إذا سقط الواحد منهم أو اختفى تغيّر مسارهم ومدارهم، كان الولد الواقف إلى جوار جثة يوسف ما يزال رافعًا سلاحه وكأنه لا يحمى نفسه بقدر ما كان يحمى القتيل أو يدافع عن صورته إلى جواره لأطول مدة ممكنة يراه خلالها كل من عرفوه وعرفوا حكاية أبيه ونهايته التى اندفنت فى الذاكرة وشاء أن يعيدها على الألسنة وقد أضاف إليها مشهده الأخير، كانوا قد استجابوا لمشورة السيد الجزار بالفعل وأحاطوا الدوَّار من ناحية الجرن الخالى، ولعله لم يمض وقت طويل قبل أن نسمع صوت نفير سيارة الإسعاف تتبعها سيارة المأمور المتبوعة بالبوكس الكبير الراكب فيه العساكر ببنادقهم يتقافزون منها قبل أن تتوقف تمامًا بأسلحتهم والمأمور المحمى بعشرات العساكر يصوِّب مسدسه ناحية الولد إبراهيم ويصرخ ببسالة وهو ينظر ناحيته:

ـ ارمى سلاحك يا مجرم يا أضرب فى المليان.

وكأنما أفاق إبراهيم من حلمه أو بلغ غاية ما كان يتمناه، رمى سلاحه فوق جثة القتيل ورفع كلتا يديه إلى أعلى مقلدًا دون أدنى

شك أبطال الأفلام الأفرنجى التى كان يراها فى التليفزيون، وكنت أرى على بطن ذراعه الأيمن صورة السبع المرسومة بالوشم الأخضر رافعًا بيمينه السيف فأسأل نفسى متى رسمها؟، لكن المأمور تقدم بقليل من الحذر وكثير من الاطمئنان فى اتجاه الولد يتبعه العساكر حتى وصل إليه فأحاطوه واقتادوه إلى البوكس الواقف على مقربة، صعد الولد إبراهيم طيعًا دون أدنى تردد وجلس محاطًا بالعسكر الذين ركبوا فاختفى وجه الولد عنا والسيارة تتحرك إلى البعيد.

أما رجال الإسعاف فقد هزوا رؤوسهم بعد الفحص السريع معبرين عن أسفهم ومستسلمين للموت الذى ليس بمقدور أى حى أن يوقف خطواته المتسارعة أو يعمل ضده أى شىء.

وشاف الناس فى كفرنا مجموعة من الإجراءات التى اعتادوا رؤيتها عندما يسقط من بين الأهالى قتيل، الفارق الوحيد أن القتيل لم يكن مجرد نفر من الأهالى ولا حتى من الأعيان، يوسف كان عمدة زهزهت له الأيام وكان بكل الحسابات تبع الحكومة ومحسوبًا عليها، وربما بسبب هذه التبعية قبضوا على كل الناس البرادعية وحجزوها فى المركز، سألوا واستفسروا عن كل شىء وكتبوا كلام إبراهيم واعترافاته وسألوه عمن حكى له حكاية أبيه ومن أين حصل على السلاح، لكن الولد باح بكل شىء إلا مصدر السلاح ومن روى له حكاية القتل من أهله وناسه أو ناس الكفر، قال إنه رأى بعينيه وسمع باذنيه كل ما جرى، قالوا له فى النيابة إنه كان ما يزال طفلاً لا يدرك أو يفهم ما يدور حوله، حسبوا له عمره يوم قتل

حسين البرادعى وكشفوا له أنه كان قد بلغ يومها من العمر عامًا واحدًا وأربعة شهور فلم يعترض على حساباتهم وقدَّر أنه كان فى ذلك العمر واعيًا لكل ما كان يدور حوله وشاعرًا بكل الوجع وعاجزًا فقط عن الفعل المطلوب باعتباره ابنا لأب ينزف دم عمره:

- كنت فاهم وسامع المرحوم وهو بيقوللّى قبل ما يموت: خد بتارى يا إبراهيم وإوعاك تفرَّط فى دمك.. أمَّال هو كان حاطط بقه عند ودنى ليه؟ كان بيوشوشنى وخايف حد يسمع يقتلنى معاه.

لابد أن المحقق احتار فى حالة الولد وأنه بحث عن تخريجات وتفسيرات لا تتعارض مع اعترافاته الصريحة بارتكاب الجريمة، ولابد أنه عندما قرر الإفراج عن كل الناس البرادعية كان قد اقتنع بأن أيًا منهم لم لكن له يد فى الجريمة أو دور فى تحريض الولد، حتى أم إبراهيم عند سؤالها أيدت كلام الولد:

- كان يا بيه لسه صغير وبينطق الكلام مكسر ويصحى مفزوع من عز النوم ويقول أبويا وصَّانى ما أسبش تاره، استحملى يا مَّه زى أنا ما بستحمل لحد ما ييجى اليوم اللِّى أرفع فيه راسك وأرميه قصاد الخلق رمية الكلاب.

وأنا بينى وبين نفسى لم أكذب الولد على طول الخط أو أصدقه على طول الخط، فمن يدرى، لعل حسين عندما قبَّله القبلة الأخيرة قبل طلوع الروح أودعه وصيِّته وسرَّه وحمَّله الأمانة التى نذره لها

فشـالها وأوفى بعهـده، ولعله بينمـا كان يكبـر وينمو كان حلمه فى تنفيذ الوعد يكبر، وأكون أنا قد فشلت طوال الوقت فى فهمه لأننى حسبته من البسطاء ذوى الأحلام الصغيرة بينما كانت أحلامه أكبر من عمره وقدرته على تنفيذها أجرأ من قدراتى المعطلة ذلك أن كلانا تمنى قتل يوسف، وبينمـا حملت أنا رأس الخروف المذبوح ورمحت فى منعطفات الكفر أبشّرهم بقتله حتى كشف لى ولهم وجود يوسف فى المكان - بشحمه ولحمه - إننى كنت أحلم مجرد حلم دموى يستأهل منى أن أتداوى منه ومن كوابيس الليل أو أستسلم لدخول الخانكة، بينمـا جمع إبراهيم ثمن «الفرد» بروحين من كل الجيوب القادرة على الدفع وكأنه يشركنا فى التخلص من يوسف والزمن الشلبى، ولابد أنه ضحك علينا أو داعبنا وهو يدعى استخدامها فى شراء الحلاوة يفرّح بها قلب أمه، تظاهر باحتمال الذل وقبول الاستعباد وقبّل الأيادى والأكتاف والخدود وحوّل الناس كلها إلى أسياد بينمـا كان فى حقيقة الأمر مخلّصهم الذى فك قيودهم وعقدت ألسنتهم شأن السادة الأسياد.

وفى المنام شفت يوسف وبكيت بحرقة من أجله، كاذبًا فى المنام كنت أبكى بينما أسأله كيف قبل على روحه وهو فى زمن الزهزهة أن يقتله ولد بلا وزن ولا قيمة، وكيف رضى بأن يرتمى هكذا أمام دواره وناس الكفر مثل ذبيحة فطسانة؟ فابتسم، سألته متى يرجع فوعدنى بالرجوع مع أول خلفة تخرج من بطون النساء الشلبى، قال ثم استدار وطلب لى الخانكة فرحت أرمح وأرمح فى دروب الكفر مخافة أن يطولنى التومرجية والعساكر والمخبرين حتى جفَّ حلقى

وانهَّدت قوتى وتقطَّعت أنفاسى فانتفضت صاحيًا وطمأنت نفسى أنها كانت مجرد تهيؤات من بطن كابوس.

* * *

دخل كفرنا رجل مغربى بزعبوط سرح فى دروب الكفر ينادى:

ـ نقرأ الكتاب.. ونكشف الحجاب.. نفتح الكتاب.. ونرد بالجواب.

كانت فى صوته بحَّة مميَّزة وفى عوده القصير المكتنز مهابة، وكانت عيناه تقتحمان الناس والبنايات بنظرات نفاذة توحى بقدرته على الكشف والتعرية مهما استترت الوجوه أو تستَّرت، أدخله الناس بيوتهم ليكشف المخبوء ويقرأ الطالع، وقال الناس للناس أنه أظهر كرامات وعلامات على معرفة ما يختفى فى بعض الصدور من مساحات عتمة ونور، ولأنه رجل مبروك ومكشوف عنه الحجاب فقد رفض منذ البداية أن يحدِّد أجرة فتح الكتاب أو قراءة الطالع، كان يطلب ممن يدخل داره أن يمنحه ما تجود به النفس حتى ولو كان لقمة جافة أو بيضة أو كوز ذرة أو حفنة قمح، ومن فرط دهشة الناس أنه كان يوزع ما يحصل عليه غالبًا على فقراء الناس أو الأطفال الصغار الذين يلتقى بهم، ينادى على الأسماء فيلتفت الأطفال مندهشين لأنه عرفهم فيناولهم من جرابه أصابع العسلية الملفوفة فى الورق أو حبَّات النعناع، يكتفى وقت أن يجوع برغيف مخبوز يحصل عليه من أى دار فيها خبيز، بالإضافة إلى قطعة جبن أبيض يطلبها من أى دار ويجلس على أى «مسطبة» محاطا بالأطفال الذين وزَّع عليهم حبَّات النعناع أو أصابع العسلية الملفوفة

بورق، يتغذى أو يتعشى ويقبل يده اليمنى ظهرًا وبطنًا ويحمد الله وقد بدا لأهل الكفر أنه قانع ونفسه شبعانة، وأن قراءته للطالع تحتاج بقاءه فى الكفر عدة أيام فأشار عليه الزيناتى ابن حميدة أن يرقد فى الدار الخالية المهجورة المجاورة لدار جدتى عدلات، ولم يعترض الرجل المغربى، دخل الدار وكنس ركنًا فرش فيه فرشًا كان فى الخرج الذى كان محمولاً على ظهره وتغطى بحرام صوف كان فى نفس الخرج، وقال الناس إن المغربى يستطيع أن يفك السحر المكتوب وأن يحلَّ الرجل المربوط لكنه يرفض أن يربط المحلول مهما عرضوا عليه من مال، وقالوا إنه يسيطر على مجموعة من الجن الساكن سابع أرض، ينادى الواحد منهم باسمه فيرد عليه بصوت غليظ لا يشبه صوت البشر أو الحيوان أو الطير، وينادى الآخر فيرد عليه أيضًا بصوت رقيق رقيق لا يشبه صوت بشر أو حيوان أو طير، كان الرجل بالنسبة لناس كفرنا فرجة وونسًا وصاحب رأى يمكن أن يلجأ إليه أى رجل حيران أو امرأة تاه منها شىء أو حملت فى المنام واحتاجت لتفسير.

ويومًا فى إثر يوم كانت تروى عنه حكايات جديدة تثبت لمن يسمع أن للرجل قدراته فى تشغيل الجن، قال البعض عنه أشياء شافوها شوف العين، ينقل جدارًا مبنيًا من مكانه إلى جوار جدار آخر ثم يعيده إلى مكانه، يحرق أوراق العملة من فئة الجنيه ثم يعيدها سليمة بنفس أرقامها، يملأ جرَّة بالماء من فراغ الجو أو يقطع حبلاً ثم يعيد وصله كما كان دون أن تظهر فى أى جزء من أجزائه علامة القطع أو أثرًا للوصل، لكننا قلنا إنه شغل حواة مثل

الذين نراهم فى مولد السيد البدوى أو إبراهيم الدسوقى، لكنه استدعانا نحن مجموعة الشباب المتعلم فاربكنا عندما رأيناه يخرج الدخان من أذنيه ويحرّك قوالب الطوب ويدخلها فى معركة حقيقية يسيل فيها الدم وتتكسّر أجزاء الطوب، ولم يكتف بذلك بل أنه حذّرنا من الاعتراض من غير معرفة وأكّد لنا أن الإنسان لو اعتقد فى حجر لنفعه الحجر.

تواطأنا بالصمت وتظاهرنا بالتصديق خوفًا أو إراحة للنفس من عناء التفكير فى تفسير ما رأيناه أو الدخول مع الرجل فى جدل بينما عيناه تبرقان ببريق مخيف ومن بين شفتيه يتناثر اللعاب مثل الطلقات تصيب كل الوجوه، وقال يوسف.

- إيش ياخد الرّيح م البلاط.. خايفين على إيه؟ خليه يلقط رزقه، مش رزق الهبل ع المجانين برضه؟

لابد أننا كنا نبحث عن سبب يخفف من حماسنا السابق ضد الرجل الغريب الذى لا نعرف أصله ولا بلده ولا تكشّفت لنا أغراضه، وربما أعفانا رأى يوسف من الاستمرار فى الاعتراض وتحمل المسئولية، فماذا بحق يأخذ الريح المغربى من بلاط كفرنا البردان؟

كنا نراه أنا ويوسف كلما ذهبنا إلى دار جدّتى عدلات، نراه جالسًا على مسطبة الدار أو مفترشًا فروة خروف صوفها أسود فوق العتبة، نلقى عليه السلام فيرده بحماس ويدعونا لشرب الشاى لكننا لا نستجيب لأنه كان يعمله فى كوز صفيح كبير ويصبه فى كوز

صفيح صغير يعلو سطحه الصدأ، لكن عيال الدرب الصغار كانت تشرب شايه وتأكل أصابع العسلية وأقراص النعناع التى يوزعها عليهم، وكان الولد «كاف» ابن خالتى العبيطة «كاف» دائمًا بجواره يشاركه الشراب والطعام وفروة الخروف، وكلما ذهبت «كاف» لأخذ الولد «كاف» من عند الرجل المغربى طلب منها أن تبقيه لأنه ولد مبروك وموعود بالسعد وأنه فى مستقبل الأيام سوف ينفتح على يديه كنز مرصود باسمه، تتركه أحيانًا وتأخذه أحيانًا لكن الولد كان يرجع مرة أخرى حتى أنهم كانوا يتندرون عليه قائلين أن «كاف» ابن المغربى الذى فتح عينيه فرآه أكثر مما هو ابن المرحوم الليثى الذى لا صحا له ولا لعب معه ولا «ناغاه» وكان من المألوف أن تملأ خالتى «كاف» صحنًا من طبيخ أو زبد وجبن وبيض أو صحنًا من بلح أو تين وتقول إنها سوف توصل الأكل للمغربى، تحوَّل الأمر إلى عادة يومية يرد عليها المغربى بمنديل أو شال أو طرحة حرير يمنحها لخالتى العبيطة «كاف» أو يهديها لجدتى عدلات، أما «كاف» الولد فقد كانت كسوته تقريبًا من عند الرجل المغربى، يوصى بشرائها أو يشتريها إذا سافر للبندر ونادرًا ما كان يسافر، لكن أن يتحوَّل مثل هذا التبادل إلى مشروع زواج يجمع بين خالتى العبيطة «كاف» والرجل المغربى فهو ما لم يكن يخطر على بال ناس كفرنا رغم أن الرجل كما هو واضح كان يعيش وحيدًا لا شريك ولا رفيق وأن «كاف» كانت أرملة منذ عامين أو يزيد، لكن من كان يتصوَّر تجميع الشامى على المغربى على هذا النحو الذى تم؟،كيف اختار الرجل المغربى «كاف» على وجه التحديد لتكون له زوجة رغم ما كان يتميز

به من وعى وقدرة وهيئة لائقة والذى لم يكن يعيبه سوى غربته التى انتفت بعد أن تعايش مع ناس الكفر كله وتآلف معهم وصار مثل الخيط داخل النسيج، لقد كانت «كاف» بحساباته دون أدنى شك عبيطة، ثم أنها لم تكن بأى قياسات جميلة أو حتى محتملة، لكنها راقت له أو سحرته وهو الذى يفك السحر ويكتبه، ولم يكن فى جعبته غير مطلب واحد وهو السكن فى دار الليثى التى هجرتها «كاف» رغم إنها كانت مكتوبة باسم «كاف» الطفل بوصاية «كاف» العبيطة، كان من الممكن أن يتقبَّل الناس فكرة انفتاح الدار المسكوكة لتستقبل الزوجين الجديدين بدلاً من أن تسكنها الخفافيش والبوم والغربان، لكن فرحانة أخت الليثى الأب ركبتها كل العفاريت الزرق وظلت تشيع الشائعات التى كانت شائعة بالفعل عن عبط «كاف» والتى لم تكن شائعة مثل احتمال أنها قتلت المرحوم الليثى بالسم أو بالحسرة على الأقل ثم فكرت أن تربى ابنه فى رعاية غريب مغربى لا يعرف أحد من ناس الكفر أصله أو غرضه من سكنى هذه الدار التى هى ميراث مشترك بين الليثى وكل أخواته البنات.

لكن متى كانت مثل هذه الشائعات المعترضة قادرة على إيقاف المراكب السائرة فى كفرنا مادامت هناك عند الطرف الآخر أوراق بيع وشراء مكتوبة وعليها بصمات وأختام وشهادة شهود؟ دخل المغربى على «كاف» فى دار الليثى رغم كيد الكيَّادين، ودخل الولد «كاف» معهما وانسكَّ الباب فاصلاً عن آذان سكَّانه كل عبارات السخط واللَّغط الصادر عن فرحانة وزوجها حلاق الحمير أو أغنيات يردِّدها العيال عن زواج المتعوس وخائبة الرجاء أو كلام

قبيح تقوله فرحانة من نارها ويساعدها فيه حلاق الحمير، لكن جدَّتى عدلات كانت لها طاقة على الاحتمال إذا استفذتها انفلت لسانها وعيارها فأصاب فى مقتل وأخرس الخصوم، ربما لأنها كانت رغم التعاطف مع فرحانة وزوجها تعرف مخازيها ومخازيه وتداريها حتى جاء الوقت الذى اختلفت فيه المصالح وصار الاعتداء على «كاف» وزوجها افتراء لا يجوز بحساباتها، فانفتح غطاء البئر المردوم على مصائب وخبايا لا كانت معروفة ولا خطرت على بال أقرب الأقارب ومنهم أمى التى فرحت بزيادة معرفتها عن تلك الأشياء المخفية لجذور النسل الشلبى، انكمشت فرحانة وزوجها وكفَّ يوسف عن تحريض العيال على «كاف» وزوجها المغربى الغطسان فى دار الليثى والذى يكفّ عن قراءة الطالع أو فتح الكتاب أو كتابة الأحجبة وتلاوة التعاويذ وإطلاق البخور، وكلما سألوها عنه قالت إن الرجل فى خلوته لا يبرحها أبدًا إلا لقضاء الحاجة مرة واحدة فى اليوم أو اليومين، الوحيد الذى كان يظهر هو الولد «كاف» وقد تعلَّقت فى رقبته عشرات التمائم والأحجبة والكفوف المفرودة من الفضة أو المعدن والخرزات الزرقاء وبين كل تميمة وتميمة أو كفٍّ وكفٍّ وخرزة وخرزة قرش أبيض مخروم أو قرش صاغ.

يمشى الولد فتصدر عن عقود الدوبارة الملفوفة حول عنقه «شخللة» لها صوت ورأسه مغطى بطاقية مشبوك فيها أحجبة وكفوف وخرزات زرقاء بدبابيس مشبك، وكأن المغربى إختلى فى خلوته من أجل عمل كل هذه الأحراز والاحجبة للولد «كاف» دون

أهل الكفر، وكانت «كاف» تقول لكل من يسألها عن هذه الأشياء أن زوجها المغربى تنبأ للولد بالعلو والعلو الزائد وأنه سوف يكون له فى المستقبل كرامات تزيد على كرامات الجن والإنس وأنه سوف ينكشف عنه الحجاب ويبوح بسر مدفون فى أرض أو جدار دار من شأنه أن يسعد ناس الكفر كله.

لكنه بعد أقل من سبعة أشهر رمحت أم إبراهيم والنبوية بنت المرسى تسبقهما جدَّتى إلى دار الليثى التى صارت دار «كاف» وراحت أمى فى نفس المساء ثم عادت لتحكى عن ولادة عجب ولدتها كاف التى لم تظهر عليها علامات حمل ظاهرة أو التى أخفتها اهتمامات الناس الزائدة بالولد «كاف» أو اختفاء المغربى فى خلوته المزعومة، لكنها ولدت ولدين توأمين أحدهما أسود البدن والبشرة وكأنه ابن بربرى من البرابرة راكبين الجمال الهجانة الذين كانت تسلطهم الحكومة وتطلقهم فى دروب الكفر بغرض ضرب الناس «بالكرابيج» السودانى وبغرض منعهم من مغادرة دورهم أثناء الليل إذا انقتل من أهالى الكفر قتيل أو فرَّ شاب من التجنيد الإجبارى أو قامت بين عائلتين من عائلاته عركة أو حدث بلاغ عن سرقة مواشى أو تقليع زرع، أما الآخر فكان بحسب ما وصفت أمى أبيض البدن والبشرة وكأنه من نسل خواجات إنجليز ممن كانت تراهم وهى طفلة فى البندر بقمصان قصيرة وبناطيل قصيرة وبنادق معلقة على الأكتاف والذين كانت لهم رطانة لا تفهمها ثم عرفت بعد ذلك إنها لغة الإنجليز التى نتعلمها فى المدارس.

وقالت أمى أيضًا أنها شافت المغربى وبدا لها أنه تبدَّل، اتَّسعت عيناه وطالت قامته وقلَّ كلامه وصارت نظراته باعثة على الخوف وجالبة للقشعريرة، وأكدت لأبى أن الرجل جنًّى طالع من تحت الأرض أو على الأقل خدَّام لجنِّى يركبه وينطق بلسانه ويرى بعينيه، جادلها أبى بأن المسألة أوهام فى أوهام وأنه ليس من المستحيل أن تلد أى واحدة توأمين أحدهما أبيض البشرة والآخر أسمرها، وأن المغربى بنى آدم من دم ولحم وكل ما يشاع عنه مجرد تخاريف يبرع فى اختراعها ناس كفرنا وعلى وجه التحديد حريمة، لكن أمى اعترضت وأكدت مرة أخوى:

ـ بقولك شفت بعينى، واحد أسودغطيس زى الفحمة.

والتانى أبيض زى اللَّبن الحليب، دى خلفة ناس مخاوية أسياد من تحت الأرض.

ـ ربنا أعلم بعبيده.

قالها أبى منهيًا الجدل حول «كاف» وخلفة كاف من المغربى أو من الليثى، لكن سيرة «كاف» وعيال «كاف» وزوج «كاف» لم تنقطع من دارنا، كانت أخبارهم تأتينا عن طريق النبوية بنت المرسى أو فرحانة نفسها التى كانت تتشكى من جدَّتى عدلات التى أهانتهم وفضحتهم من أجل العبيطة، تهدئها أمى ثم تسألها عن الأخبار فتحكى لها كيف أن أبواب السعد انفتحت «لكاف» من كل ناحية لأنها بعد أن ورثت الليثى وحصلت على كل ما يملك تزوجت المغربى وخلَفت منه وتحوَّلت إلى وسيط يقبض الثمن من كل واحدة

تقصدها لتتوسط لها عند المغربى ليكتب لها حجابًا ليمنع عنها المكوسات أو يفتح لها سكة الخلفة بعد طول الصبر والانتظار أو يحلّ رجلها الذى ربطه عمل مكتوب أو حتى يدلّ من ضاع منها فردة حلق أو «كردان» ذهب أو حتى خلخال فضة على صفات السارق إذا فتح المنديل، تأخذ «كاف» «الحلوان» الذى تحدده مقدمًا قبل أن تدخل على المغربى فى خلوته وتحصل منه على المطلوب لأنه ممنوع ممنوع دخول الخلوة إلا «لكاف» الأم أو «كاف» الأبن:

والغريبة يا ختى إن فيه حاجات بتصادف وتتحل على إيديه، والخلق فى كفرنا بيولدوا البغله.. أهو رزق الهبل ع المجانين، ح أقول إيه ما أنتى عارفه، طول عمرها أمك واخده حقك وبتديها، أنا مش ح أبعبع وأقول ع إللى كنت باسمعه منهم.. هو أنا فتّاته لا سمح الله ح افتن بينك وبين أمك واختك؟

تشتعل أمى بالغضب وتقرّرها فلا تقرُّ أبدًا، يتجدَّد الكلام عن ميراث أمى من أبيها والذى هضمته جدَّتى وكيف أنها كانت طوال الوقت منحازة لخالتى العبيطة «كاف» لمجرد أنها من النسل الشلبى، تلعن الشلبى وسلسال الشلبى حتى ولو كانت فرحانة مازالت فى الدار.

وأشاع الشرشابى وهو الساكن جنب دار الليثى من الناحية الخلفية أن المسألة ليست خلوة اتخذها المغربى فى القاعة الجوانية المعتمة التى فصل نصفها الأمامى عن نصفها الخلفى بملاءة سرير محلاوى لا يرفعها غير «كاف» الأم «وكاف» الطفل بل أن الأمر فيه

سر لأنه طوال الليل يسمع إذا صحا فى أى وقت خبطات وضربات ودق وعزق فى الناحية الأخرى، ولابد أنه حفر فى أرضية القاعة أو الجدار الفاصل بين الدارين أو الجدار القائم على الجدار الفاصل، لكن الدق والخبط حادث على أى حال وأن كوم الردم فى وسط دار الليثى يعلو ويعلو دون أن يلحظ ذلك أحد مع أن الدار ليس فيها مواشى ولا أغنام فمن أين زاد كوم الردم فى وسط الدار ما لم يكن نتيجة لحفر أو نقب الجدار الفاصل بحثًا عن تحويشة عمر الليثى أو خبئية من أيام كانت الدار من بين أملاك العمدة المغدور سيد عوف قبل أن يبيعها الورثة بتراب الفلوس لليثى، واشتعلت النار فى قلب فرحانة واقتحمت الدار أكثر من مرة وعاركت «كاف» بغرض دخول الخلوة على المغربى واكتشاف السر، لكن «كاف» فى كل مرة كانت تمرمغها فى أرضية وسط الدار وتمزِّق ثيابها وتقطع خصلات من شعرها هذا بالإضافة للعضَّات و «الخرابيش» التى تصيبها وتجعل الناس تلومها على تهورها إشفاقًا عليها، لكن فرحانة ثم تكف إلا بعد تلك المرة التى دخلت الدار مسرعة بينما كانت «كاف» مشغولة بإرضاع التوأمين فلما انتبهت كانت فرحانة فى وسط الدار تصوِّت وتصوِّت والمغربى واقف على باب القاعة عريانًا كما ولدته أمه والولد «كاف» إلى جواره وقد خلع كل ما يستره إلا الطاقية وخيطان الدوبارة الملضوم فيها الأحجبة والخرز الأزرق والكفوف المعدن والقروش الصاغ والتعريفات المخرومة، وتجمَّع الناس داخلين من الباب المفتوح بغرض النجدة أو الاكتشاف فشاهدوا ما شاهدته أو آخر مشهد شهدته قبل أن يتراجع الرجل إلى الوراء وهو يسحب

الولد «كاف» معه ويغطسان فى عتمة القاعة وينفذان من الحاجز الذى هو ملاءة سرير محلاوى، وعبثًا حاول الناس أن يعرفوا منها تفاصيل ما شافته وأفزعها إلى حد الصوات فلم تزد عن تكرار قولها:

- سايقة عليكو النبى تسيبونى ف حالى.. دانا انحش وسطى وانقطع خلفى.. قطيعه.. قطيعه.. قطيعه.

وكانت هذه الحادثة بالفعل قطيعة بينها وبين دار الليثى الذى كان أخيها لاب، وانقطعت سيرة «كاف» وعيال كاف وزوجها المغربى على لسانها، وقد حاولت أمى أن تعرف منها أى شىء ممًّا جرى فى دار الليثى فى تلك الظهيرة التى ظهر لها المغربى عريانًا على باب القاعة فكانت فى كل مرَّة ترد عليها بنفس الكلام الذى قالته لكل الناس وتنهيه بإعلان القطيعة ثلاث مرات وتضيف أن يكون حد الله بينها وبينهم.

لكن الشرشابى كان يزِّن فى أدمغة الناس قائلاً أن عرى المغربى فى عزِّ البرد قلة أدب لا يصح السكوت عليه، فيردُّون عليه بأنه كان فى خلوته داخل داره وأن فرحانة هى التى اقتحمت عليه الدار والخلوة بسرعة قبل أن تكتشف «كاف» دخولها فعملت لنفسها ولأهل الدار فضيحة من غير أسباب، يسألهم عن سبب وجوده عريانًا فى الخلوة فيحيلون الأمر إلى علاقته بالجن وخدمة الأسياد الساكنين تحت الأرض، يوافقهم بحماس ويعيد على مسامعهم ما سبق أن قاله لهم عشرات المرَّات من أنه كان يسمع خبطًا متواصلاً

طوال الليل، ينام ويصحو فى أى وقت فيسمع صوت الدق والحفر فى الناحية الأخرى ويسمع «ودودة» كلام متداخل بلغة تشبه تراتيل يوم الأحد التى ينطقها القسيس فى كنيسة النصارى لكنها ليست تراتيل ولا الأصوات التى يسمعها أصوات بنى آدم، يتدخل بطرس أفندى الصَّراف متعالمًا وقائلاً أن التراتيل الكنسية فيها الكثير من لغة أجدادنا الفراعنة التى هى رسوم وتصاوير محفورة على الحجر أو ورق البردى وربما كان اسمها الهيروغليفى أو الديموطيقى، يتسمَّعون بإندهاش ويستعيدونه فيعيد دون أن يبدو عليهم الفهم لكنهم يهزُّون رؤوسهم علامة الاقتناع، لكن الشيخ درويش يستفسر من بطرس أفندى الصراف إن كان لهؤلاء الفراعنة علاقة بالنَّبى موسى أو النبِّى هارون وإن كانوا من نسل الفرعون الذى طغى وجاء ذكره فى القرآن الكريم، فيجاوبه بطرس أفندى الصراف بأن كل ناس بلدنا من نسل فرعون، وأن واحدًا منهم فقط هو الذى طغى ولا يصح أن نحاسب كل الفراعنة بذنب الذى طغى؛ يبتلع الشيخ درويش ريقه ويحدِّث نفسه أو يحدِّثنا وهو ينظر إلى سقف المندرة:

- اللهم إنى قد بلَّغت.. اللَّهم فاشهد.

ويسود صمت قبل أن يطرح أبى سؤاله وهو صاحب الدار التى انفتحت لاستقبالهم على غير العادة فى هذه الفترة، يسألهم ليعيدهم:

- مش يمكن يا جماعة فيه كنز من أيام الفراعنة ف دار الليثى؟

يهمهون وتلتمع عيونهم ويتساءلون عن الأسباب التى دعته لكى يفكر على هذا النحو، فيحدثهم عن الدار الصغيرة التى كانت فى

خلفية دار أبيه والتى اشتراها عزام عوف من جد بطرس أفندى الصرَّاف ليحوَّلها إلى متبن، وكيف أنَّه بينما كان الرجال يهدمون أحد الجدران اكتشفوا صندوقًا صخريًا بغطاء صخرى رغم أن الجدار كان مبنيا بالطوب القديم الأخضر وعندما رفعوه وفتحوه وجدوا مجموعة من اللفافات الورقية المكتوب عليها كتابات بحبر أحمر وأسود بالإضافة إلى مجموعة من اللعب الصغيرة على شكل تماثيل وتمائم وجعارين وبعض الحلى من الفضة أو الذهب، ولأنه لم يكن يعرف تفسيراً للكتابات المكتوبة، فقد استفتى خاله الشيخ برهان الشاذلى فافتى بأنها سحر مكتوب لجلب الحظ أو تطويل الأعمار لأهل الدار، وأعجبته حلية فأخذها وعلقها فى مئذنة مسبحته «الكارم» لكن خاله رجع الكفر مضروباً ومحروساً بأورطة من عساكر السلطة يقودهم ضابط إنجليزى كبير وضابط مصرى صغير، نزلوا الكفر فأصابوا ناسه بالهلع ثم تبعتهم برابرة الهجانة راكبين الجمال وحاصروا درب الناس العوف ودفعوا الشيخ برهان الشاذلى وهو الرجل كبير السن وله احترامه بين الناس، دفعوه أمامهم ليدلهم على دار عزام عوف، سقطت عمامة الرجل عند باب دار عزام وسقطت هيبته بينما يدلهم على الصندوق الصخرى فى الدار الصغيرة، وعمدة الكفر من الناس العوف يرمح فى أعقابهم ويستفهم منهم عن العملة الكبيرة التى عملها الرجل واستحق عليها كل هذه المهانات فلا يردون عليه. ثم أنهم أخذوا الصندوق الصخرى بكل ما فيه واجتلبوا عمالاً للحفر من البندر حفروا أرضية الدار الصغيرة والدار الكبيرة وهدموا الجدران بحيث لم

يتركوا طوبة على طوبة، خربوا الدارين ولولا أنه كانت لعزام دارًا أخرى نقلوا إليها منقولاته ومواشيه وخزين بيته وطيوره لإنفضح أكثر مما انفضح وانكشف أكثر مما انكشف.

وقال ناس الكفر أن الإنجليز وجدوا فى الدار الصغيرة كنزًا من ذهب وفضة وأحجار كريمة بالإضافة إلى لفافات ولفافات من ورق البردى المكتوب، تركوا الشيخ برهان الشاذلى وأخذوا عزّام عوف للبندر حيث سألوه وقرروه، ولولا أن الرجل لم يكن يعرف أهمية ما عثر عليه وأنه لم يتصرف فى شىء مما وجده أو احتفظ لنفسه أو لواحدة من بناته بقطعة حلى ما تركوه بعد عدة أيام، ولولا وجوده بين المركز وقشلاق الإنجليز ومكاتب المحققين الذين تعاطف أكثرهم مع حالته ما عرف سر الغارة التى قامت بها السلطة بحسب ما وصله من أخبار.

كانت أوراق البردى تحتوى على سيرة ملك من زمن الفراعنة قبل النبى موسى عليه السلام تميز بالشجاعة والعدل، وأودع بعض كنوزه لواحدة من بناته أوصاها أن تخفى سيرته المكتوبة فلم تجد أفضل من تلك الوسيلة بإخفائها فى صناديق صخرية مدفونة بين الجدران فى تلك الدار الصغيرة التى لن يطمع فيها الأعداء من عساكر الغرباء الذين دخلوا الكفر مرارًا ولم يلتفت أيهم لتلك الدار فبقيت فيها بعض الحلى والتمائم وأوراق البردى التى تحكى عن انتصارات الفرعون على أعدائه الغرباء الآتين من الشرق همجاً وبرابرة يبرعون فى الحرق والهدم ويعجزون عن البناء، بمثل هذا

الكلام أنهى أبى حكايته لضيوفه وسكت فسألوه عن سر اعتزاله لهم وتباعده عنهم وفى عقله كل هذا العلم المفيد فأجابهم بتواضع إنه رجل بسيط عنده حفنة عيال يرغب فى تربيتهم ولا يريد أن يدخل فى صراع من أى نوع مع أى إنسان على أى شىء، قالها وتنهد بأس وداری عینیه بخفة فقال له الشيخ زغبى:

ـ الله يرحم والدك.

لكن بطرس أفندى الصرَّاف أعاد عليهم سؤال أبى:

ـ يا جماعة.. إفرضوا أن فيه كنز بصحيح ف دار الليثى، ح نسيبه للمغربى ولا نبلِّغ الحكومة؟

ـ لأ.. إن لقينا كنز يبقى كنز الأهالى.. أهالى الكفر كله، نقسمه على بعض بالحق والمستحق.. حكومة إيه؟

بذلك رد الشرشابى متحمسًا، ولابد أن رأيه صادف قبولاً من الأغلبية فأسكت الأقلية التى تخاف من الحكومة أو تعمل لحسابها فى الخفاء، ولأول مرة أشعر بالزهو لمشاركة أبى ناس الكفر بكل هذا الحماس الذى جعله يفتح داره ويشاورهم فى الأمر، ربما يكون الحلم قد انولد فى مندرتنا قبل أن يكبر ويسرح فى دروب الكفر، الحلم فى أن يعثر ناس كفرنا على كنز حقيقى فى دار الليثى يتوزع على الناس بعدل حقيقى فيخلص الفقراء من فقرهم ويشبع الأغنياء أكثر من شبعهم، لكنه يبدو أن الأحلام الكبيرة فى كفرنا عمرها قصير، شأنها شأن العدل الحقيقى نفسه والذى نادرًا ما يتحقق وإن تحقق فلوقت قصير بحسب ما قال أبى مرة لبطرس

أفندى الصراف، ذلك أنه بعد عدة جلسات استعادت بعض القلوب الحالمة رجفتها الأولى وشمت رائحة زوابع أمشير الترابية قبل أن تهب وتخطف فى دواماتها دفء القلوب الحالمة بالمستحيل.

استدعائى يوسف فذهبت إليه، فاتحنى فى أمر المغربى وكاف وما إذا كنت أوافق على رأى بطرس أفندى وأبى والشيخ زغبى، فقلت له إنهم كبار السن ويعرفون مصلحة الناس أكثر مما نعرف، اعترض بشدة وأتخذ سمت الكبار لأول مرة متطاولاً على ما أسماه بالكلام الفارغ عن تقسيم الكنز الموجود فى دار الليثى على ناس الكفر كله:

- ده فى الأصل مال خالى الليثى وإحنا أولى بيه، وبعدين إيه حكاية بطرس أفندى وأبوك.. فرعون إيه ولهو خفى إيه؟

- ما هو كلامهم مظبوط.. أصل فى التاريخ..

قاطعنى بحدة وانفعال زائدين:

- يا خويا بلا تاريخ بلا جغرافيا، خليكوا أنتو فى الكتابات واللى مكتوب فيها، وقول لأبوك يخليه ف حاله زى ما كان..

- قصدك إيه يا يوسف؟

- قصدى إنه مالوش دعوة بدار خالى واللى ف دار خالى، يا كش يكون ساكنها عفريت مسلسل، إحنا ح نطلعه، أبوك يحشر نفسه فى اللى يخصنا ليه؟ طيب كان ياخد بتار أبوه إللى مات مسموم. هو إنت ما تعرفش إن جدك ميت مسموم؟

هل اكتشفت فى تلك اللحظات خشونة صوته وجهامة ملامحه؟ وهل رأيته لأول مرة شاباً عفياً نبت له شارب وصار من حقه أن يعترض ويهدد ويعاير؟ ربما أكون منذ تلك اللحظة قد تعلمت الحذر منه رغم أننى فى السابق كنت أتعامل معه على أساس أنه أقل منى فى كل شىء، لكن المسألة خرجت من دائرة المدرسة التى كان هو فيها بشهادة الكل تلميذاً خائباً لم يحصل على الابتدائية بينما كنت أنا فى السنة التوجيهية، ولم يعد الأمر خاصاً بدارهم العريان نصفها ودارنا المستورة، أو أبيه حلاق الحمير وأبى الموظف ومالك الأرض أيضاً، ربما أشعرنى بالخجل من نفسى ومن أبى ومن يوسف أيضاً تلك الحقيقة التى كنت أشعرنى أنها رغم رائحتها التى تفوح على فترات متباعدة إلا أنها كانت الحقيقة الوحيدة التى ردمنا عليها بالسكوت عنها، استعدت وجه جدتى لأبى ونبرات صوتها وهى تحكى عن جدى الذى قتلوه بالسم فى مكتب الصحة جنب مفتش الصحة، وربما تكون الآية قد انقلبت بينى وبين يوسف منذ ذلك المساء، وربما أكون قد شعرت أننا صرنا رغم ادعاءات القرابة التى كان هو نفسه يحرص على تذكيرى بها ويتباهى، صرنا ننتمى لعالمين، عالم الأفندية المنشغلين بالكتب وما هو مكتوب بها وعالم الواقع المحسوس والمرئى وصفات فرسانه.

كانت أجازة صيف طويل، طولها تباعدى عن يوسف أو تباعده عنى، وطولها انتظار نتيجة الامتحانات، وطولها ما رماه على دماغى من عبارات لا يصح البوح بها لأحد ولا يصح كتمانها، عبارات مثل قوالب طوب ودبش ساقط من جدار عريض وممتد

بفعل فعلة يقصدون التدمير وإثارة الفزع أو قص الآجال، كنت أعايش الخوف على دارنا وناسها واستشعر العار لأننى أنتمى لهؤلاء الناس العجزة عن أخذ الثأر والذين يتوارون وراء جدار من أوراق الشهادات والكتب ناسين أن كل الأوراق قابلة للتطاير فى الزوابع بمثل ما هى قابلة للاحتراق.

بعد أيام القلق شاع فى الكفر أن الجدار الفاصل بين دار الشرشابى ودار الليثى قد تم نقبه فى نفس المنطقة التى كان المغربى يتخذها لنفسه خلوة، ولولت «كاف» فى دروب الكفر تسأل عن المغربى نفسه، تقول إن دارها انكشفت من الوراء وصارت مثل طفل عريان المؤخرة ومستباح، كانت تحمل التوأمين على الذراعين ومن ورائها يرمح الولد كاف وقد رفعت له قميصه بدبوس فانكشفت مؤخرته العريانة وصارت مثل الدار مستباحة، اهتم العمدة وجمع أهل الرأى والمشورة ثم أخذهم للمعاينة، شيخ الزاوية وشيخ الجامع وشيخ البلد وشيخ الخفراء والخفراء، لكنهم بعض الفحص الدقيق عجزوا عن تحديد الناحية التى بدأ منها نقب الجدار المشترك، تحوَّل الأمر إلى لغز على ألسنة الناس مثل حكاية البيضة والكتكوت، زوَّد اختفاء المغربى حيرة الناس، ناس قالت إن المغربى نفسه نقب الجدار من ناحية دار الليثى ليصل إلى الكنز المدفون ولا يدرى أحد أين كان مدفونًا وما إذا كان قد أفلح فى نقبه والحفر تحته بجهده أو بمساعدة الجن الساكن سابع أرض والذين كانت له بهم علاقة، وناس قالت إنه انخطف تحت الأرض بواسطة الأسياد الساكنين تحت الأرض بعد أن عثر على الكنز، وإنه لا يعقل

أن يفرَّ ويترك ضناه الذين هم توأمين معجزتين عاجزتين عن الإدراك مع أم عبيطة مثل «كاف»

وناس قالت أن الشرشابى نقبها بمساعدة حلاق الحمير وابنه يوسف وأمه فرحانة، وأنهم بالقطع كبسوا على المغربى وهو نائم فقتلوه ودفنوه وأخذوا الكنز الذى هو ميراث الليثى، وناس قالت إنها «كاف» التى فعلت كل شئ وحصلت على كل شئ لأنها الوحيدة التى كانت تثق وتعرف إن كان المغربى من سلالة الجن الأزرق أو إنه بنى آدم من لحم ودم قابل للقتل والخنق وابتلاع السم مستعيدين حكايتها القريبة مع الليثى.

ولم يتبدَّل شئ، لم تظهر علامات النعمة على الشرشابى أو حلاق الحمير أو حتى غيَّرت فرحانة جلبابها، صحيح أن حلاق الحمير هجر مهنته وصار يطلب من كل من يطلب منه قص شعر حماره أن يبعث ابنه ليقص له شعره بلا مقابل ويقسم أنه اشترى عدَّة حلاقة جديدة تليق بذقن الباشا ورأس ابن الباشا الكبير، لكنه من كان فى كفرنا يرضى بأن يقص شعر إبنه حلاق حمير أو يحلق ذقنه موس جديد فى يد كانت تقص شعر الحمير؟ صار حلاق الحمير مزيِّنا مع إيقاف التنفيذ وصارت «كاف» تسرح فى دروب الكفر تنادى على المغربى وعلى صدرها الولدين التوأمين ومن خلفها «كاف» الطفل وقد رفعت له أمه جلبابه أو قميصه من الخلف فصارت مؤخرته مثل دار الليثى عريانة إلى حين ومستباحة.

* * *

وعمـادة الكفـر غـول خـوَّاف ويخـوِّف المربوط ويخـوِّف المفلوت المسلوت، ولأنه نادرًا نادرًا ما عاد لعمادة كفرنا عمدة انعزل منها، فإن عودة العمدة يوسف الشلبى للعمادة كانت نادرة تستلزم الحذر، لكنهم تسـابقـوا على داره التى صـارت دوَّاره يبـاركـون ويهنئـون ويتباهون بعودة الحق لأصحابه وخيبة الباطل مع أن المسألة لا كان فيها عودة حق ولا خيبة باطل، المسألة كانت ببساطة تكشف أنهم بارعون فى التملق ومتسارعون فى إظهار أمارات الخضوع واختراع المدائح، لكنه لا كـان يوسف ولا أكبـر من يوسف بقـادر على منع الهامات من الانحناء ولا منع نفسه من تصديق تلك الأسطوانات التى انشرخت من كثرة التدوير والتقليب على الوجهين.

هل أقـول إننى تباعـدت عنه بقصـد حتى لا أتوه فى الزفـة، أو إننى اقتربت منه بقصد لأكون جليسه الذى يحميه من المفاسد التى أراحتـه من العمـادة فى أول مـرة؟ لكنه لا التبـاعـد عنه أفـاده أو أفادنى ولا القرب منه أفادنى أو أفاده، ربما لأن عمادة الكفر غول خوَّان لراكب الجناح فإنها بالقطع تفعل نفس الشئ للأتباع الدائرين فى المدار.

لابد أنه كانت بينى وبينه خصومة حقيقية مخيفة أكبر بكثير من تلك الخلافات الظاهرة أو الاختلافات المعلنة، خصومة بحجم حجر طاحون مدفوس تحت سطح الأرض بمسافة يطولها سن المحراث فينكسـر، أو تزيلها «رخـة» مطر فتظهره على حقيقـته وتكشف اتساعه وسمكه، وأخطر شئ فى مثل هذه العلاقات أن يكتشفها

البنى آدم بعد فوات الأوان اللائق بأوان وأوان وأوان، يكتشفها بعد استحالة التراجع ويكتشف أنه عاش العمر كله بسذاجة أو حسن نية أو طيبة مفرطة، تختلف التسميات ويبقى فى القلب وجع من غير علاج، وكنت فى مثل هذه الحالات أتمنى لو أننى كنت نفرًا مجهولاً لا أعلق بذاكرته أو ينشغل هو بأمره، نفر لا تقوم بينى وبينه علاقة من أى نوع، لا ينتظرنى ولا أنتظره، لكنهم ورَّثونى علاقتى به بدعوى القرابة من بعيد وبدعوى المعاشرة على امتداد العمر، وبدعاوى أخرى مثل المشاركة فى المكان والناس والزمان.

فى السَّابق واللاَّحق كنا نختلف على أى شئ فأغضب وأتباعد عنه حتى يأتينى ويصالحنى، وفى كل مرة كان يوهمنى بأن قلبى أسود من قرون الخروب وأن قلبه أبيض من اللبن الحليب، لا أصدقه تمامًا وإن كنت أتشكك فى أمر قلبى وقلبه، ربما عرف هو نقطة ضعفى واستثمرها لصالحه وربما كنت أنا بالفعل عبيطًا وجاهزًا للتصديق رغم المقدمات التى توحى لى فى كل مرة أنه يتخابث بوعى، يخاصمنى فى ميدان ويصالحنى فى زقاق أو حارة، يغلط فىَّ على ملأ ويقبِّل رأسى معتذرًا بينى وبينه فى دارى أو داره فأقبل الاعتذار وأسامح وأصالح.

وربما أتشكَّك فى أمر نفسى ويصل الأمر أحيانًا إلى حد تأنيب الضمير مثلما حدث مرة فى ليلة معتمة من ليالى شتاء لم يظهر لها قمر ولا نجوم وامتلأت سماؤها بسحب داكنة وهواء ساكن وراكد لا يبشر بمطر ويوسف جالس قبالتى فى دارى يعاتبنى

ويلومنى لأننى قليل الاحتمال وقابل للاستثارة لأقل الأسباب، وأننى مندفع فى غضبى وجاهز للتفريط فى صداقات العمر وقرابات الدم، وكيف أنه بسبب معرفته لطباعى يحتملنى بينما كان من اللائق أن أحتمله أنا أو على الأقل أتظاهر باحتماله أمام الناس كى تتخلّق له فى عيون الناس هيبة ورهبة، وكيف أنه ـ لو كان فى مكانى وكنت فى مكانته ـ سوف يتصرف باتزان وعقل ويتحكّم فى ردود أفعاله على العكس منى تمامًا، ليلتها شعرت بالحرج من نفسى واعتذرت له عن عصبيتى الزائدة فقبل اعتذارى بدلع وتركنى مودعًا وقد أشفقت عليه لأنه يلعب دورًا أكبر من حجمه ويلبس ثوبًا أوسع من قامته وأطول، وأن أمثاله فى واقع الأمر مساكين بالمعنى الواسع لكلمة مساكين لأنهم يعايشون ازدواجا مضنيًا بين صورهم الحقيقية وبين ذواتهم وصورهم التى يرغبون فى طبعها فى عقول الناس، ليلتها قلت لنفسى أننى أتشدَّد أحيانًا مع رجل نصف جاهل لم يقرأ فى حياته كتابًا محترمًا فى التاريخ أو علم النفس، وأنه من الجائز أن يتشدَّد الإنسان مع نفسه أو يطوِّعها لتكون صفحته بيضاء من غير سوء، بينما لا يجوز أن يفرض تصوراته على غيره ويطالبهم بأن يكونوا بنفس درجة الوعى والحساسية التى يريدها لهم ناسيًا أنهم كائنات أخرى قادرة على الطنطنة بالكلام الفارغ وسط الكلام المألوف لأنهم أنصاف، أنصاف أو أرباع وفرافيت بشر تعيبهم الرغبة فى الطلوع وإثبات الوجود مثلما فعل يوسف وهو غير العارف مقدار جهله ولأنه بالكاد يفك الخط، لكنه عندما سنحت

الفرصة لم يدعها تفلت فارتفع شأنه من ابن حلاق حمير إلى نصف سمسار فى سوق المواشى ثم إلى زوج لعانس من نسل قطاعين طرق وأصحاب أملاك وهيبة وسمعة ترجف القلوب فهل كان يترك العمادة للناس العوف وقد انطفأ شعاعهم وسكنت أبدانهم وصاروا مثل الجيفة يشمها الناس فينفرون بينما لا تشم الجيفة رائحة نفسها وهى مرمية تنوشها الحشرات ويلغٌ فى لحمها الدود والحيوانات الدنيئة والكلاب، ركب يوسف الموجة وانقلب مركبه مرة، لكنه احتاط لنفسه وجهَّز نفسه للرجوع أقوى مما كان وأوعى، استفاد دون أدنى شك من مدة العزل التى طالت وتعلم كيف يتراقص بحذر على كل الحبال ويصبغ وجهه بكل الألوان ويمارس الكذب ببراعة ويكذِّب الصادقين، ويخزيهم ويوهمهم بأنهم على امتداد العمر غلطوا فى حقه أو أنهم تخلوا عنه فى أول منعطف أو أول اختبار للصلابة، وفى حالتي كان يستدرجنى لحالة من حالات الشعور بالندم.

لكن المسألة مع يوسف كانت أخطر من رجعة عمدة كفر مرمى على شمال السماء كما يقولون، كفر تابع لمركز صغير فى محافظة متوسطة الأهمية فى بلد عتيق صنع أهم منجزاته فى الماضى البعيد ثم انحدر وانحدر حتى صار محسوبًا على البلدان الفقيرة والتى تدَّعى أنها نامية، لكنه نمو بكسل لا يليق بما كان أو يساعد على التطلع لما هو آت فى أخيلة المهمومين بالمستقبل وسط الزحام والكذب المحبوك المطلى بكل الألوان.

قلت مرة أننى كنت أتمنى لو أننى كنت نفرًا مجهولاً ليوسف أو حتى معروفًا من بعيد بحيث لا أعلق بذاكرته أو ينشغل بأمرى، لكن ما يتمناه الإنسان لا يدركه فى كل الأحوال، كنت أشعر بعد عودته للعمادة بأن حركاتى مرصودة ومحسوبة، حتى كلماتى وآرائى التى كنت أصرّح بها فى أى أمر من أمور الحياة كانت تصل إليه مضبوطة أو بعد تحريفات وتعديلات وتفسيرات يتطوع بإجرائها أتباع يوسف، وللأتباع فى حياة يوسف حكايات وحكايات تنكتب فى الكتب والجرائد إذا وجدت من يلملمها ويحسن روايتها، ولأنه من المستبعد أن يلتفت كتبة الصحف والمجلات إلى كفرنا المنزوى فى ركن مركز قليل الأهمية، كلفت نفسى بنفسى للبوح لكم ببعض ما فعله الأعوان مع يوسف أو فعله يوسف بواسطة الأعوان الأتباع الذين هم أخطر الناس فى حياة أى عمدة فى كفرنا والكفور المجاورة، ومن العسير على المرء مهما أوتى من وعى وفطنة أن يعرف كل الأتباع ومن يدورون فى الفلك متطوعين أو مكلفين بنقل الأخبار.

أمثال هؤلاء يبدأون متطوعين ثم يحوزون الرضا والقبول ثم الثقة التى لا يحدّها حد فيديرون القرى والنجوع والكفور على هواهم، يصفون حساباتهم مع الخصوم القدامى ويبرعون فى التخفى، يقابلك الواحد منهم بالأحضان ثم يستديرون ويطعنون فى الخفاء، شفتهم أو شفت بعضهم وهم يهللون مرحبين بالوافد إلى دوّار العمدة ويتسابقون فى تقديم التحية قبل وصول العمدة يوسف إلى المضيفة ليعاود طلب التحية من جديد لضيفه، وبعد أن يخرج

أو يستدير يتهامسون بكلام ويهمسون فى أذن العمدة بكلام ثم يبعبعون بكلام غير الكلام السابق وغالباً غير الكلام المهموس فى الآذان، كنت أرى هؤلاء وأتعجب من مقدرتهم على التلّون والمسايرة وإظهار معكوس ما يبطنون، أقول لنفسى أننى لو خرجت فسوف يتحدثون عنى بمعكوس كلامهم فى وجودى، وأقاوم رغبتى فى القيام مستأذناً من حضرة العمدة يوسف لعلنى أقلّل خطرهم الذى لابد أنه يتوجه ناحيتى بدرجات متفاوتة وفى أوقات متباينة، وكلما همس تابع فى أذن العمدة بكلام تشكّكت فى أنه من الممكن أن يكون لى منه نصيب، وعندما يتشكّك المرء فى كل همسة مهموسة فى أذن فقل على الدنيا يا رحمن يا رحيم.

آخر مرة ذهبت فيها إلى دوَّار العمدة يوسف كان تلبية لطلبه حيث جاءنى الغباشى وهمس فى أذنى:

- حضرة العمدة عايز حضرتك ضرورى الليلة، وإن ماكانش يبقى بكره الصبح بالكتير.

وعدته بالذهاب فى الصباح فابتسم فى بلاهة ورفع حاجبيه ثم استدار ورحل، وفى الصباح حلقت ذقنى ولبست ثيابى وجاوبت على سؤال فردوس عن وجهتى ووعدتها بعدم الغياب، وعلى باب الدوَّار كان الغباشى يبتسم بنفس البلاهة ويرفع حاجبيه بنفس الطريقة ويستدير ليتقدمنى إلى المضيفة، يخبط على مسند الدكة عدة خبطات ويشير لى بالجلوس فأجلس، يستدير مرَّة أخرى بعد أن يبتسم ويرفع حاجبيه ويطمئننى:

ـ ح أبلغ حضرة العمدة حالاً إن حضرتك وصلت.

ومن مكانى رأيت دليلة تنخل الدقيق ورأيت التيس يطارد العنزة وقد احتشد وتعثّر فى «غلق» الدقيق ليقلبه على الأرض ويتناثر بعضه على رأس التيس الذى اندفع إلى المضيفة وراء العنزة ودليلة وراءه تفلح فى إمساكه وسحبه من قرنه الملفوف محتجّة وغاضبة:

ـ دى عُشر ياللّى تتدبح.. عُشر.. بترمح وراها ليه.. آه يا نارى..

كانت تبدو شديدة النحول تائهة النظرات والتجاعيد المحفورة على وجهها تعطيها ملامح الجدّات المسنّات، وكنت أشعر ناحيتها بالإشفاق أكثر مما أشفقت عليها فى سابق الأيام، ناديتها وهى تسحب التيس المعاند من قرنه:

ـ دليلة..

ـ مين.. يقطعنى.. هو أنت.. سامحنى ياسى الأستاذ.. ما هو العتب ع النظر..

قالت عباراتها بتباطؤ وهى تتأملنى وكأنها ترانى لأول مرّة وتتأكد من شخصى مخافة أن تكون قد أخطأت.. وفى وسط الكلام أفلتت قرن التيس من يدها بوعى أو بغير وعى ثم اقتعدت الأرض قبالتى، هرشت شعر رأسها المعصوب بعصابة حال لونها وبهتت الخيوط التى تتدلى منها حبات الخرز ودوائر الترتر، بانت خصلات الشعر وقد تزايد فيها الأبيض عن الأسود وكان صدرها الضامر يدعو للرثاء، لابد أنها كانت تفكر وتستعيد بالهرش بداية الكلام:

ـ آه.. افتكرت، كان مستتيك تيجى بالليل.. تلاقيها بتليف له جتته، كنت بأصحى لهم فى انصاص الليالى وأسمع دبدبتهم وهو بيرمح وراها.. دى غازية قادرة يا سيدنا الأفندى، ح تهد قواه، ما بيسمعش غير كلامك، شور عليه يصحى لروحه ويخاف على صحته، هو يوسف لسه صغير؟

سمعت نحنحاته قبل أن يدخل المضيفة ويتوجه ناحيتى بينما دليلة تقوم من جلستها وتقف وقد وضعت راحتيها على صدرها وأطرقت وهى تسمع توبيخاته:

ـ يا وليه مش ح تبطلى زن؟ قاعده تنعقى زى غراب البين ع الصبح ليه..؟ أنتى ح تشاركينى فى عيشتى أنتى راخره؟

ـ خايفه على عمرك يا إللى ما تمرتش فيك الربايه.

ـ مالكيش أنتى دعوة ياللى ماحدش شم ريحتك وإمشى انجرى من قصادى أحسن أخللى الغباشى يمسح بيكى البلاط.

مكسورة الخاطر خرجت دليلة فشعرت بالأسى من أجلها واستنكرت كلام يوسف الجارح وقبل أن أعاتبه بأى كلام أعلن اعتراضه:

ـ أوعاك تكلمنى عن دليلة، لو صعبان عليك حالها خدها دارك وريحنى من وشها.. هيه ما جيتش ليلة إمبارح ليه؟ كنت عايزك ف حاجة مهمة.. يا غباشى.. أنت يا زفت الطين يا غباشى.

ورأيتهم يتوافدون تباعاً وكأن كلمة السر بينه وبينهم هى غباشى لأن الغباشى لم يكن معهم، وسألت نفسى أين كانوا بينما لم أسمع لأيهم أى صوت أو نحنحة أو حتى كحة تخرج غصباً رغم كثرتهم، هل كانوا تحت الأرض مثل الجان مع أنهم بشر من ناس الكفر أعرفهم واحداً فواحداً وأعرف آباءهم وأعمامهم وعيالهم، لكن كيف انحبست أنفاسهم كل هذا الوقت ثم ظهروا فجأة بإشارة هى نداء متفق عليه بينه وبينهم وكأنها حيلة لإثبات القدرة وتأكيد الهيبة أمامى، لكننى فكرت أيضاً أن إثبات الهيبة وزرع الرهبة لا يكون بمثل هذه الألعاب العبيطة.

كان يوسف على يمينى وكنت على يساره وكانوا هم يشكلون نصف دائرة تحوطنى وتحوطه، وبدا لى أننى صرت محاصراً بهم وصار هو محمياً بهم فى ذات الوقت وبنفس الأشخاص، كانوا يرشفون أكواب الشاى الساخن وتصدر عن رشفاتهم أصوات توحى بالتلذذ والدفء، وكان امتداح العمدة يوسف هو البداية، امتدحوا كرمه الزائد وسماحته وأصله العريق الذى ينسف كل الأصول، وشجاعته التى لا تدانيها شجاعة، وبدا لى أنهم يكيدوننى بينما يصنعون بالكلام من الحبة قبّة ومن فسيخ كفرنا «الزفر» زجاجات عطر وشراب، قلت لنفسى: لجّم لسانك يا ولد وتصامم حتى ينفك عنك الحصار أو افتح لنفسك ثغرة للفرار، لكنهم كانوا مثل كتل الصخر الثابت لا يتزحزحون، وقال البرادعى ابن بياع البرادع:

- طيب ناخد رأى الأستاذ فى حضرة جناب العمدة يوسف.

وقوبل اقتراحه بالتأييد الكامل، تلملمت ارتباكاً وأنا العاجز عن الكلام عندما تنحط علىَّ ثمانية عيون فى أربع وجوه، لو زادت استحال علىَّ أن أنطق باتزان وإذا نطقت باتزان فلمدة دقيقة ثم يختل الميزان، وقلت لنفسى: أسكت أو اعتذر، كانت عينا يوسف تتفحصانى بدقة وتقاطيعه المحايدة لا تستعجلنى أو تدعونى للكلام ولا تحذرنى أو تشجعنى على السكوت، كانوا يتبادلون النظرات وكأنما نجحوا فى إسكاتى، ومرَّة أخرى قال ابن البرادعى:

- آنى عارف رأى الأستاذ فى حضرة جناب العمده، بس حضرة العمده يسمح لى وأنا أقول بدلا عن الأستاذ..

- قول يا برادعى.

قالها العمدة يوسف فانفتح البرادعى «كالبريج» يتحدث بدلاً عنى ويسند لى آراء ما فكرت فيها وصفات ماشفتها وكلها مديح وتملق فج، لا كنت بقادر على تكذيبه ولا كنت مستعداً للموافقة عليه، ولابد أن حماساً جماعياً أصابهم فتباروا على كيل المدائح الزائفة بلسانى وفى وجودى، وقلت لنفسى أن أمثالهم يتواجدون فى كل زمان ومكان، يطلعون من الشقوق مثل الحيَّات والعقارب، بارعون فى خلط الجد بالهزل واختراع الكلام الذى يحمل المعنى ومعكوسه، يتحسسون مناطق الخلاف بين الإنسان وصاحبه وبين الإنسان وأقرب أقاربه سواء كان أم أو أب أو أخ أو عم أو زوج أو ابن أو بنت، وبألسنتهم التى تشبه المطارق الثقيلة يوسِّعون مناطق الخلاف ويحفرون بأسنان الإبر الدقيقة الممرات والأنفاق.. وماذا

كنت أملك غير الاعتراض على التمادى فى التبجيل والتوقير والتسييد على لسانى بدون مناسبة؟ اعترضت بأدب لأسكتهم:

- يا جماعة كتّر ألف خيركم، بس أنا موجود وأعرف أقول رأيى وقت اللزوم.

- قول.. قول.. إحنا عايزين نسمع منك أنت.. قول.. ساكت ليه؟

ياسى الأستاذ.. رأيك إيه ف حضرة العمدة؟

كانت أصواتهم تتداخل وتشكل حالة من اللغط صعب الاحتمال، يستنطقونى، وبدا لى أننى مطارد بقطيع من الذئاب والكلاب والثعالب والأفاعى، مطارد وهارب ومسحوب لدائرة الاستغاثة أو البوح بالحقيقة، وبحثت عن مخرج:

- اللِّى بينى وبينه هو عارفه ياناس، مش كده يا عمدة؟

- الصراحة لأ.. والخلق دى لها حق، عايزة تتأكد بروحها.

- من إيه ياعمدة..؟

وتطوع ابن السعيد الشارد ففاجأنى وفاجأ العمدة:

- الصراحة لأ.. والخلق دى لها حق، عايزة تتأكد بروحها.

- من إيه يا عمدة..؟

وتطوع ابن السعيد الشارد ففاجأنى وفاجأ العمدة:

- الصراحة كده.. أنت يا سيدنا الأفندى عليك كلام كتير.. سمعت ف المركز والله أعلم أنك كنت السبب ف عزل العمده، كنت

بتكتب شكاوى ضده، وفيه ناس شاهده عليك، وكلنا خايفين تكتب شكاوى تانى.

أنا.. أنا..؟ أنا؟ أنا؟

كنت كمن لسعته حية غادرة، انفز دون وعى وأدور حول نفسى حائراً بأى شىء أدافع عن نفسى وكأننى بالفعل متهم مظلوم فى قفص حديد لا يملك الخروج منه ولا يعرف أساليب الدفاع، يهدئوننى فلا أهدأ ويجلسوننى فلا أجلس، تهمة عبيطة رماها على دماغى ابن السعيد الشارد ولم أكن أملك ردّها أو أعرف مصدرها، وربما لديه شهود زور ضدى يستطيع تدبيرهم، وربما لا يستطيع لكنه أربكنى وجعلنى هدفاً لنظرات استنكار من أتباع يوسف، لعلنى كنت أسأل نفسى إن كان من الممكن عزل عمدة كفر أو قرية فى ناحيتنا بسبب شكاوى مكتوبة أم أن المسألة لها أسبابها الأخطر من كتابة الشكاوى، ولو عزلت الحكومة كل عمدة تتكتب فيه شكاوى فربما لا يبقى عمدة واحد على كرسى العمادة شهراً أو شهرين، لابد أن الحكومة أنصح من الناس، تأخذ الشكاوى وتبحثها ثم تعيد بحثها لتحفظها أو تعيد بحثها للتوصل إلى أسبابها، ليست عمادة الكفور مثل الوظائف التى من طبيعتها قبول الموظف تنفيذ قرارات النقل من بلد لبلد، أما العمادة فلم نسمع عن عمدة منقول من كفر لكفر أو من ناحية لناحية أو من محافظة لمحافظة، العمادة مربوطة على المكان وربما بسبب ذلك يصعب عزل العمدة إلاَّ لأسباب فوق مستوى شكوى أو مجموعة شكاوى كيدية أو حتى حقيقية، كدت

أقول مثل هذه الأفكار للعمدة وأعوانه لكن لسانى لم يطاوعنى، كانت العيون المصبوبة علىَّ تزيد عن العشرين، وأنا تربكنى النظرات المصبوبة تفحصنى وتتهمنى.

هل جلست بعد أن هدأنى يوسف وشخط فى ابن السعيد الشارد يطرده ويطيِّب خاطرى بما يفيد أنه لايصدق مثل هذا الكلام الفارغ عنى حتى ولو حلفوا له على المصحف؟ أم أن شحنة الكهرباء التى صعقتنى زال تأثيرها؟ أم أننى تعبت فجلست؟ وجدتنى جالساً على يسار يوسف مثلما كنت، يتضاحكون لإضحاكى فأرقبهم دون أن أشعر بالإفاقة، كأننى انسطلت بفعل مخدر لم أجربه أبداً تسبب فى إجلاسى ساكناً متأملاً متفكرا، هل دبر يوسف هذه اللعبة ليلاعبنى؟ طيب.. لماذا طرد ابن السعيد الشارد؟ طيب لماذا استمر فى السكوت وأنا الأستاذ الذى يجلجل صوته فى الفصل متحدثاً عن التاريخ وشارحاً لتلاميذى تفاصيله الدقيقة بينما أعجز عن مجرد محاولة توصيل أفكارى لهؤلاء الناس فى هذه المناسبة الصعبة؟ هل الكلام فى الفصل غير الكلام فى المضيفة أو أن الكلام للصبية والشباب أسهل وأفيد من الكلام لهؤلاء الأتباع الذين لوثتهم المنافع ولوت ألسنتهم وعقولهم المصالح؟ لابد أنهم كانوا يدركون تفاصيل اللعبة قبل وصولى، ولابد أنهم وقد تحولوا إلى مجموعة من الأراجوزات فى مولد البدوى يهدفون إلى اضحاك الطفل الوحيد الذى كنته بحساباتهم، ابن السرساوى يتحزم بالتلفيحة ويرقص وشيخ البلد يطبل على ظهر صينية الشاى والغالبية تصفق والشيخ تهامى يغنى ويردون عليه وكأنهم فى فرح:

ـ يطول بعدك وأعيش بعدك على شوقى وأشجانى.

حتى يوسف كان يرد على الشيخ تهامى ويهمس لى من آن لآخر أن أنسى ابن الكلب الخبَّاص الذى جاء من غير دعوة ليفسد علينا جلسة الود والمحبة:

ـ أنت ناسى أنى متجوز على بنت عمه لزم؟ الخلق دى مش عايزانى يبقى لى حبايب خالص.. كان لك حق تخوفنى منهم زمان، أصيله عاوزة توقع بينى وبينك.

أوشك أن أفيق وأبتسم نصف ابتسامة فيهلّلون وأشعر أنهم عملوا فى المضيفة فرحاً زائفاً لأستعيد نفسى وأبتسم ناسياً أو متظاهراً بالنسيان، وكان كل واحد منهم يتوجه لى بعبارة مجاملة تفيد أن العمدة لا يثق فى غيرى أو لا يحب عياله الذين هم من صلبه أكثر منى، أو أنه يمتدحنى فى غيابى أكثر من حضورى، وكلام كثير جعلنى أتأرجح بين التصديق والتكذيب وأستعيد بعض توازنى، أتذكر وعدى لفردوس بعدم الغياب فأهمس فى أذن يوسف مستأذناً لكنه على غير عادته لا يطاوعنى ويحلف بأعلى صوت:

ـ لأ.. لأ.. لأ.. علىَّ الطلاق بالثلاثة لا يمكن.. إحنا ح نتغذى سوا.. لجل ما أتأكد أن قلبك ما اتغيَّرش من ناحيتى.

مغصوباً سكت ولم أعاود المحاولة، وقلت لنفسى لو فرضاً وقع يمين الطلاق فعلى أى الزوجات يقع؟ بنت الشراودة أم العيال الكبار وصاحبة الفضل عليه، أو بنت بنت هارون التى هى من سلساله وأهله، أم تلك الغازية التى اجتلبها من البندر لترقص له وترقّصه

وترجَّع له شبابه بحسب ما كان يسر لى بينى وبينه؟ راقبت نفسى وأنا أتحول من حالة الاستياء الكامل إلى الهدوء ثم قبول المسايرة مجاملة للسيرك المنصوب بهدف اضحاكى ثم إلى حالة من حالات المشاركة رغم بعض الأسى وبعض الزعل، وعندما جاءت دليلة بصينية العشاء الكبيرة وعليها الفطائر المشلتتة الساخنة وأطباق العسل الأبيض والعسل الأسود والجبن القديم والجبن الجديد صفق ابن البرادعى هاتفا بفرح:

- كرمك زى موج البحر يا حضرة جناب العمدة.

وامتدت الأصابع تمزق أو تنتش أو تسحب بنعومة ويوسف ينظر ناحيتى وينتظر، يميل بكتفه فيلمس كتفى:

- بايدك.

مددت يدى وقاومت رغبتى فى الاعتذار وأنا أتذكر اليمين الذى رماه يوسف، كابدت وجع الابتلاع على مضض، وأدهشنى ذلك الاستسلام المغصوب على الأكل بلا رغبة تنفيذاً لرغبة يوسف، أهو عجز عن الإصرار على الرفض أو خجل مخجل موروث يركبنى فيخرسنى ويحولنى إلى مسخ ممسوخ ضد إرادتى وضد عقلى وضد نفسى؟ ومهما قلت عن المرارة التى تركبنى فى مثل هذه الحالات فلن أحسن توصيفها، فمن منطقة الخجل ولحظة الضعف عن الرفض الحاسم الذى أتصوره جارحاً بحساباتى إلى لحظات المكابدة من فعل الابتلاع إلى الحد الذى يحوِّل الأمر فى داخلى إلى إحساس بالضآلة وبعض التدنى، تنز جبهتى بعرق المهانة لأننى

استسلمت وأكلت أو شربت فى بيوت أصحاب النفوس الصغيرة أو العيون الفارغة من الوضعاء وعلى مرأى ومشهد من أولاد الخبازات العجّانات الطبّاخات الغسّالات فى بيوت الغرباء ممن وهبهم المولى فرصة الطلوع فطلعوا وعيونهم المكسورة لا تحس ولا ترى غير السيد الذى وهبوا أرواحهم للدوران فى فلكه طالما هو فى خانة الأسياد شأن العمدة يوسف الشلبى.

انقطع حبل أفكارى وأنا أسمع ويسمعون أصوات استغاثة نسائية تختلط بها أصوات مطاردة وسباب وردح حريمى من الأصلى الذى يصعب على أمثالى ذكره أو إعادته على المسامع، وكانت المرأة نصف العريانة بقميصها الممزق ولحمها الطرى يترجرج تحت طرحة دليلة وفى الناحية الأخرى كانت أصيلة أو ما تبقى منها منكوشة الشعر وبنت بنت هارون القادرة والمقتدرة تهجم على المرأة نصف العريانة وتجرها من شعرها وتسقطها على الأرض فنرى ما كان مستوراً منها والنحيلة النحيلة التى كانت فى الأصل اسـه ـيلة تمسك بيمينها المداس وتنزل بكل عزمها على مكان العـ ـنت على ملامح يوسف شبه ابتسامة ممرورة عاجزة رغم أمره المنطوق:

- سيبيها يا بنت المراكيب أنتى وهى، اللِّى مش ح تبعد دلوقت طالق بالثلاثة.

وتباعدت بنت بنت هارون التى كانت تبرك عليها بكل ثقلها أسرع من تباعد أصيلة التى كانت مرتكزة على ركبتيها لتأدية مهمتها بدقة أكثر، وانكشفت المرأة العريانة تماماً لنا جميعاً، لكن

الأتباع تظاهروا بالإطراق خجلا وإن كانوا يرقبون، وخلع يوسف عباءته واقترب من المرأة فغطاها وساعدها على القيام متجاهلاً فاصل الردح له ولها ،ولكل الغوازى ومعدومات الأهل والأصل بائعات الهوى لمن يدفع، والراقصات عرايا فى الموالد والخمارات الضاحكات على دقون الرجال التى شابت دون أن تؤثر فى فراغ العيون ودناءة النفوس، كانت أصيلة بالفعل أصيلة فى ردحها الموزون المتساوى، بينما كانت بنت بنت هارون مثل المصارع السمين الخارج من مباراة انتصر فيها على خصمه الهزيل، وعندما طال فاصل الردح عاود يوسف تهديده:

ـ طلاق بالتلاته كلمة واحده بعد كده ما تباتى ف الدوَّار يا بنت الشراودة.

ـ دوَّار إيه يابو دوَّار؟ يا حبل مرخى.

وانهمكت فى الرقص فكان رقصها مسخرة أضحكتنا وأضحكت حتى سنية العريانة والملفوفة فى عباءة يوسف واللاَّبدة تحت إبطه غير مشغولة بما يتعرى منها فى كل حركة أو خطوة، وظل السامر منصوبا فغطى على طعم الفطير وأفسد الظهيرة، ولا أدرى كيف تسلل الرجال ذوى الشوارب من المكان لأبقى وحدى مع يوسف الذى عاد للمضيفة بعد أن أوصل سنية وأوصلت كل من أصيلة وبنت بنت هارون نفسها إلى مكانها فى عمق الدوَّار.

ـ شفت الحريم وهبل الحريم؟

ولم أرد.. فتابع هو..

- غيرانين من سنيه ومسودين عيشتها ومستحملاهم علشان خاطرى.. أهو كل يوم من ده من يوم ما وصلت الدوًار.

ولم أجد رداً لائقاً على كلامه فساد صمت اقترح هو بعده اقتراحاً:

- بقول نبعت للست فردوس تراضى سنية بكلمتين وتصالح الستات على بعض.. مش برضه فكرة؟

- معرفش..

وأنا قلت لنفسى مال فردوس بأصيلة وبنت بنت هارون وسنية التى أتي بها من مولد البدوى، لكن يوسف نادى على دليلة وطلب منها أن تذهب إلى دارى وتستدعى زوجى لتصلح الحريم كما قال، الغريب أن الرجال الذين اختفوا عاد بعضهم وانضاف إليهم رجال جدد وجلسوا يرتشفون أكواب الشاى إنما دون كلام، لعل الوقت طال وانمطّ وصار مملاً حتى جاءت دليلة تنهج وتلتقط أنفاسها بعسر العسر وهى تعلن.

- الست فردوس مش ف الدار ولاف الدرب ولاحد شافها طالعة من باب الدار..

شعرت بدوران وأنا أستعيدها الكلام فتعيده وتضيف:

- وباب الدار موارب.

لابد أننى انخرست لزمن لا أعرفه، أصدرت أصواتاً مفزوعة وهم يلتفون حولى ويتبادلون النظرات بتخابث مع يوسف الذى كان

يدعونى للإطمئنان ويمنعنى من القيام لكى أتأكد من أنها بالفعل فى الدار أو أنها انخطفت، كان يؤكد أن دليلة أصابها عمى «حيسى» أو انهبلت ودخلت داراً غير الدار، وبعسر العسر استطعت أن أخرج من داره وحدى دون أن يتطوع بمرافقتى أحد، أصل إلى دارى فأراها مفتوحة وخالية ولا أدرى كيف اختفت فردوس وكل الجيران يتساءلون كيف اختفت وكأننى المسئول، كأنها إبرة تاهت فى كوم تبن وعلى وحدى يقع عبء العثور عليها فوق الأرض وتحت الأرض فى كفر عسكر أو خارج كفر عسكر.

* * *

وهل تجوز عليك يا يوسف بعد ما جرى لك غير الرحمة؟ وكيف أصدق ما كنت أسمعه من أتباعك وأعوانك القدامى وهم يشيعون عنك كل المفاسد وكأنك كنت وحدك الذى صنع الأكاذيب وخوَّف الخصوم وأرسل الكلاب المسعورة فى أعقاب الودعاء، يعلقون فى رقبتك وحدك كل الخطايا ويتحدثون عنك بنبرة التشفِّى والشماتة، ويذكرون ناس الكفر بكل الظلم الذى وقع فى زمنك القصير وكأن العدل كان غايتهم ولولاك لشاع وتحقق، ناسين أن الناس فى كفرنا وكل كفور الناحية اعتادوا وقوع بعض الظلم أو كثيراً من الظلم لأن الدنيا نفسها ظالمة وبنت كلب ولم يتحقق فيها كل العدل أبداً وإذا تحقق فلفترات قصيرة وفى بعض المساحات الضيقة، وأنا قرأت فى كتب التاريخ وسرحت بخيالى فى كل الأزمنة واكتشفت أنك كنت تليق بكفرنا فى تلك الفترة التى عايشتنا خلالها طفلاً ثم صبياً من

وضـعـاء النـاس دون ذنب أو اخـتـيـار منك، ومن يا يوسف كـان من الممكن أن يختار لنفسه أبا مثل أبيك حلاق الحمير الشلبى؟ ومن كان الممكن أن يختار أمك فرحانة لنفسه أماً، ومن كان من الممكن لو عاش مثل ظروفك يستطيع أن يحمى نفسه من السعى فى سوق المواشى بلا سند من مال أو خبرة بهدف الحصول على لقمة العيش؟ وكيف يتحدث الأتباع عنك اليوم وكأنك الوحيدالذى طلع من قاع القاع إلى سطح السطح بلا مبرر؟ ويتندرون عليك وكيف كنت لا تحسن وضع العباءة على كتفيك أو تليق فى مسكة العصا الأبنوس أو تجيد تناول وجبة فى دوارك من حرٍّ مالك لبعض أكابر الناحية ممن يجيدون استخدام الشوك والسكاكين فى أكل اللحم الحلال المذبوح على الطريقة الإسلامية بعد أن امتلأت بطونهم باللحم الحرام وتمرسوا فى مص الدم البشرى وهضموا أموال اليتامى والأرامل العجزة وبعض الكتبة وذوى الضمائر ومن لايحسنون الاعتراض بأدب فى دائرة البندر، وكنت أنت يا يوسف وسط هؤلاء تبدو ضئيلا وصغيراً إلى حد مؤسف لأنهم كانوا مردة وجن ساكن تحت الأرض وفوق الأرض، كنت أنت بكل الحسابات رغم الزهزهة مسخوطهم أو صعلوكهم أو فى أحسن الأحوال مملوكهم الذى ردُّوا به هيبتهم ودفعوا الثمن.

عيبك مع الأتباع أنك لم تحسن الاختيار لأنهم باعوك وتبرأوا من كل أفعالك، أدانوك وداروا فى فلك من جاء بعدك حتى قبل أن يتأكد أنه جاء، لعلهم هم أنفسهم الذين رسموا صورته فى عقول الناس ملاكًا طيبًا يليق بكفرنا الطيب، وأنا قلت لهم أنك سوف

تعود من جديد، ربما تختلف بعض تقاطيعك وربما يختلف أسمك فلا يكون مثلما كان يوسف، لكنك سوف تعود وتتعلم كيف تضع العباءة على كتفيك باقتدار وتمسك العصا الأبنوس بشكل لائق وكأنك فرعون من نسل فراعنة حكام يمسك فى يمينه صولجان حكم كفرنا المحكوم من بعد الزمن الفرعونى بكل الأجناس، ترك وروم وفرس ويونان وفرنسيس وانكشارية وإنجليز وهكسوس ومماليك وخصيان واعراب وأغراب من كل ملة ولون، حمر وسمر وسود وصفر وبرص وعميان ودجالون وسحرة وأتباع وذيول، لكنك أنت يا من كنت تسبح فى مياه ترعة كفرنا فرحانًا بالفيضان، ويا من تغذى على ثمار التوت وثمار الجميز وكافة الخضروات المأخوذة من غيطان الخلق دون ثمن بحسب ما كان معتادًا فى ذلك الزمن البعيد الذى يسمح فيه لأى واحد من الأهالى أن يملأ بطنه إذا أراد من أى غيط وأى ثمرة دون أن يحاسبه صاحب الغيط إلا إذا أخذ ما يزيد عن امتلاء البطن.

«املأ بطنك من حيث يحلو لك أن تملأه لكن لا تسرق بلحة أو كوز ذرة أو عنقود عنب» كانت هذه هى تقاليد الزمن ولذلك أشاعوا فى كل الكفور وفى كل النواحى أنه فى بلادنا لا يبيت أى واحد وهو جوعان، ورغم الفقر والوحل وبعض الجهل كنت أنت ربيب الكفر، تسرح فى الغيطان وتصيد اليمام البرّى بالفخاخ وقراميط السمك من أعماق السواقى بالكفين، تشويها على الحطب وتأكلها بلا خبز وتشبع، شاركتك يا يوسف فى بعض الحالات وكدت أن أكون ظلك وأنت تنطلق وتتخطى حدود الكفور والقرى المجاورة بحثا عن صيد

تصطاده أو «مدّاده» خيار تسد منها جوعك أو تكعيبة عنب تحصل منها على عنقودين لتحلى ريقك أو حتى كرم بلح تأخذ منه حفنة للأكل وتلعب بالنوى، كنت أنت فيما بدا لى ابناً لهذه الأرض فى كل الحالات، ولابد أننا كنا نستحق فى زمنك أن تتولى عمادة كفرنا الغطسان وسط دلتا نهر عجوز وكهل محكومة فيضاناته بفتحات سد انبنى لينظم اندفاعاته ويمنعه من بعض الجنون الضرورى بدعوى أنه يحمينا من كل احتمالات الجفاف فى سنوات الجفاف، وهل كان فى زمنك الذى هو فى نفس الوقت زماننا غير الجفاف؟ كل ألوان الجفاف؟ جفاف الترع وجفاف المشاعر وجفاف الحلوق وجفاف الأدمغة، وفى كفرنا المردوم على خصوبة أرضه ببنايات من الطوب الأحمر والأسمنت وحديد التسليح على أجزاء الأرض التى جرّفوها وبوّروها بالقصد أو تلك التى نشعت أو «طبّلت» من غير مداورة، لكنها حصلت فى زمنك الذى هو زماننا الذى سكنّا فيه أو قل تجمدنا. بينما يستتب لك الأمر مع الأعوان والأتباع.

وأنا سألت نفسى عشرات المرات إن كانوا هم مماليكك أو أنك أنت كنت فى واقع الأمر مملوكهم الذى يحركونه بحسب هواهم لحساب السادة الكبار من وراء الستار، ولعلنى انحسبت عليك من الأعوان أو انحسبت أنت علىَّ دون أن ندرى أو ونحن ندرى، لكن كل هذا لا يغيِّر فى الأمر أى شىء، أصدقك القول أننى بالفعل أحببتك زمناً ليس بالقصير، وسرحت معك بخيالى وأطلقت لسانى بلا حذر ولا تحفظات، كنت أبوح بالمخبوء المدفون فى تلافيف الوعى واللاوعى، وعندما كبرنا وعبرنا زمن المراهقة عبرناه معًا ثم

تخطيناه بخطاياه الصغيرة والكبيرة معا، وبدا لكلانا أحياناً أن الدنيا بأسرها صارت بين أناملنا مجرد كرة نلعب بها ونلاعبها وهى التى تحتوينا فى حضنها وقد أسلمنا لها الصدرين، وكان يبدو لى كثيراً أنك تفهمنى بمثل ما أفهمك وتقرأنى بقدر ما أقرأك، أشعر أننا كنا فى الخيال طائراً واحداً مشتركاً يحلق بجناحين، طائر مثل الرخ القديم وقد تجدد وصار كائناً متوحداً يقدر على الصعود والهبوط والتقدم والتراجع بقدر ما هو قادر على تخطى حدود الزمن، يتقافز بين الحدود ويتخطى المسافات أو يتعلق فى الفراغ حيث لا سقف ولا أرض ولا حد لقدرته على التحليق، كائن واحد بروحين يتوهم من فرط غروره أنه قادر على إنزال المطر أو إثارة الزوابع أو تزويد سخونة الشمس، ولابد أننى كنت معك فى بعض الأحيان كياناً واحداً بروحين، إحداهما تدعى أنها انخلقت لتزرع بذور الشر وتفسد الدنيا بأسرها والأخرى تتوهم أنها قادرة على تحقيق بعض العدل الذى لم يتحقق كاملاً على سطح الأرض أبدا، ومثلما تلازم الخير والشر منذ بداية الخلق تلازمنا وإن لم نتفق على الحدود الفاصلة أو يفكر أى منا فى التقسيم، ،ربما من أجل هذا تداخلت الحدود وساحت الألوان وأصبح من العسير على الكائن الواحد أن يعرف مساحات الخير الداخلة فى خلايا الشر أو خلايا الشر الساكنة فى قلب الخير، لكنه لم يكن لصالحى بكل الحسابات هذا الخلط لأن مسارات الخيط الأسود النافذة فى البدن الأبيض كانت أخطر وأدعى للحذر، ربما لأنه لم يكن أنت وحدك يايوسف الذى يتشابك معى ويلازمنى، ولكنهم هم الذين

نجحوا فى تحويلك إلى مجرد تابع ينفذ رغباتهم من خلال ما بثوه فى عقلك وأنطقوا به لسانك وحركوك بخيوطهم غير المرئية إلى الحد الذى جعلنى أسأل مثلما سأل الناس أين على وجه التحديد ينتهى فيك الدم الشلبى والسلسال الشلبى المولود فى كفر عسكر وأين يبدأ السلسال الشارد الذى يقطع الطريق من أول العبِّ الجوَّانى ولغاية حدود البندر من الناحية المقابلة. بل أين ومتى يبدأ بك ومن خلالك الزمن الدكرونى؟

قلت لطيفك يا يوسف إن قتلك ضيعى فلم يصدق، وقلت له أن الدم الذى سال منك عند مدخل الدوَّار كان فيه الكثير من دمى المهدر فلم يفهم، لكننى الآن وقد استعدتك لتؤنسنى سوف أحاول إفهامك بنفس طريقتك القديمة، طريقة السمسار الصغير الذى تنامى وكبر وعرف بخبرته التى اكتسبها أى الطرفين فى صفقة العمر خسر وأيهما كسب؟ لابد أنك سوف توافقنى على حقيقة مكسبك وخسارتى على طول الخط، ربما من أول ما كنت تذهب إلى دار جدتى عدلات وتحصل منها على أى شىء بأكثر مما كنت أحصل على نفس الشىء.

لن أذكرك بصندلى الأحمر المقطوع أو صندلك الأزرق، ولن أذكرك بالغش فى المدرسة الذى كنت تجيده والتغشيش الذى كنت أخافه وأقوم به لصالحك نتيجة إلحاحك، هذه أمور صغيرة، لكن هل يجوز لك أن تتكر خير دارنا الذى إنتقل إلى داركم من كل شكل ولون، بلح تمر وقمح وبيض وطواجن لبن حليب وحلبة وشعير وفول

وكافة كافة ما كانت تنتجه الأرض وتمنحكم منه أمى فى أوقات الصفاء ثم تبرر لأبى الذى لم يكن يسألها أبداً أنها فعلت ذلك من أجل زكاة المال أو صدقة جارية لمن يستحقونها من الأهل أو الغرباء.

لكن عشرات الجنيهات التى أخذتها أنت من بين صفحات المصحف الشريف وطلبت منك أن تقسم على المشى فى سكة الخير والابتعاد عن سكة الشر فأقسمت قبل أن أطلب منك أن تفتحه وتتناولها بنفسك لتبدأ بها حياتك فى نفس الليلة المطرة التى تخلى عنك أبوك حلاق الحمير الشلبى راحلاً وتاركا داركم عريانة من كل ما يسترها وجيوبكم خاوية، هذه الجنيهات التى عرَّفتك بعدها أنها كانت حصيلة تفوقى وسهرى من أجل الحصول على مجانية التعليم بالإضافة إلى كل ما كنت أحصل عليه من جوائز، ثمرة تفوقى التى منحتها لك فى بداية مشوار المنح كلما تشكيت وتباكيت وطلبت فرقّقت قلبى وجعلتنى أمنح بلا حساب ولا أفكر فى أى مرة أننى سوف أستعيد منك ما أخذته، لكن الكرة الأرضية دارت دوراتها وانقلبت الموازين فصار الرزّاق يرزقك من حيث لا تدرى ويحجب رزقى لأسباب لا أفهمها، كنت تعيش فى بحبوحة زائدة ووسع بأكثر مما كنت تحلم وكانت الحياة تعاندنى ويضيق رزقى بأكثر مما أحتمل، وكنت ألمح فى عينيك شيئاً من بريق الشماتة يمنعنى من مجرد التفكير فى استعادة ما منحته لك، أتسامى وأتعفف وأنت تبرع فى التدنى، وأراك رغم العلو والثراء سمساراً صغيرًا لم يشف غليله أبدًا أو يشبع، أتباعد عنك وأتخيلك بينما تتباهى بما حصلت عليه وامتلكته تستشعر نفس الجوع القديم

الذى كـان يسكنك فـتـسـعـى للخـلاص منه فى بيـوت الناس أو غيطانهـا، لكنه يا يوسف كان جـوعـاً مـحـتـمـلاً بالقـيـاس لجـوع هذا الزمان الذى يحول الإنسـان إلى غول خوَّان والشقيق إلى كائن غدار والصديق إلى جلاد أو قاتل.

أتعـجب لأنك مـثل أعـوانك من أولاد الغـسـالات الخـبـازات الطباخات العجانات المساحات لن تشبع أبدًا أو تشفى غليلك، يظل الجوع ساكنًا فى أحشائك مـهـمـا تعاليت أو تباهيت، مكشـوفاً لى وأراك من الداخل الحقيقى شخصاً شهوانًا جوعانًا ملهوفا وضنينًا فى العطاء إذا تبدى لك أنه من اللازم أن تعطى لأنك سوف تسترد عطيتك أضعـافًا مضاعفة بحسب قانون السوق، لعلنى أكون قد كـابرت على مـرأى منك فى وجـودك ولابد أننى سـوف أكـابر بعـد رحيلك بنفس الدرجة، ولعلنى لم أفاتحك فى الأمـر حياً لعاهة فى نفسى أو تعفف لا أملك التخلص منه، لكننى أملك الآن حق استعادة ما هو مكتوب فى دفاتر الذاكرة ديونًا معدومة بانعدامك وعجزك عن رد دينك أو حتى القدرة على الوفاء بقسمك القديم.

هل كان يلذ لك بالفعل أن ترانى ممصوص الدم ضعيفًا لحسابك وحـسـابهم، وهل كنت تحـسـب أنك تكسـبـنى أكـثـر وأنت تتظاهـر بالتعاطف مع حالتى:

ـ الراجل ده له أفضال عليا كتير، مديون له طول العمر وعمره ما فكر أسدد له دين، نفسه قنعانه ويرضى بالقليل.

ـ شهيد يعنى؟

يسألونك فتجاوبهم بالإيجاب متباهيا فأتلقى مصمصات الشفاه ولا أعرف إن كانت سخرية منى أو أنها علامة التأسّى على من استشهد فى ساحتك وهو حى، أوشك أن ينفلت لسانى وأبوح بأن عيالى تشتتت فى أطراف الدنيا ولم أستنجد بأحد، ثم انخطفت زوجتى أم عيالى ولم أحصل على دليل واحد بأنك كنت وراء اختطافها أو قتلها، ولا دليل عندى غير إحساسى الذى صرت أتشكك فيه وفيك فى ذات الوقت.

كنت أنا شهيدك يا يوسف، تناوشنى الأمراض وتلبد فى أطرافى، يضعف بصرى ويضعف سمعى وتتخلع أسنانى وأضراسى فاستخدم طاقمًا صناعيًا وسماعة للسمع ومنظاراً لتوضيح الرؤية بينما أنت تتصابى يا يوسف وتتغابى، تصبغ شاربك وشعر رأسك وسوالفك بالحناء الحجازية، ثم تتزوج فى شيخوختك بامرأتين غير أصيلة التى هى أم عيالك، بنت بنت هارون لتمنحك الدفء فى برودة الشتاء بسمنتها المفرطة، وراقصة البندر الغريبة عن كفرنا التى جلبتها من مولد البدوى كى ترقص لك بالصاجات «وتتشخلع» لك وتجبرك على الرمح وراءها فترمح، وكنت أقارن حالى بحالك بعد اختفاء فردوس فأتعجب، ليس لأننى كنت أتمنى أن يتشابه حالى مع حالك وإنما لأننى تعرَّيت كل العرى وانسترت أنت بحسابات الخلق كل الستر وزيادة. أعرف أنك سوف تعود يا يوسف وتجلس مرة أخرى على دكة العمادة، أمثالك يتجددون ويتكاثرون لحساب الشراودة والدكارنة وكل من كانت لهم مصلحة فى وجودك، لعلهم يصنعون الآن شبيهك، لكن لو عدت أنت أنت يا يوسف فتذكر

أنك عمدة كفر ضيق يتبع مركز صغير فى محافظة قليلة الأهمية ضمن حدود وطن ينتمى للماضى أكثر مما ينتمى للحاضر، وتذكر أن الناس تتعلم وتفهم وأن الأكاذيب القديمة لن تتطلى عليهم، ربما من أجل هذا كتبت سيرتك وأنا أودع الدنيا وأتباكى على ما انتهيت إليه بسببك وبسبب أعوانك أو أسيادك، ولربما احتوت سيرتك شيئًا من سيرتى، وتعجب لأنك رغم القتل مازلت تعيش فى ذاكرتى وأننى رغم الصحو ميت فى ذاكرتك، كأنما انكتب لك كل المكسب السهل والصعود السهل والرجوع السهل بينما انكتب لأمثالى المكسب الصعب والطلوع الصعب واستحالة التراجع عن المطالبة ببعض العدل، ولأن كفرنا فى أيامك انشطر إلى عشرات الأجزاء، ولأنه لا يحتمل مزيداً من الانشطارات فكل ما أرجوه وأتمناه أن يتعلم ناس كفرنا البسطاء شيئًا من زمن العمدة الشلبى وسيرته فلعل غيابك يعيد للقلوب اطمئنانها القديم، وللعقول وعيها وللأمهات والآباء بعض عيالها الذين تاهوا أو فروا أو رحلوا، ولعلنى أشهد بعينى وجه فردوس الغائب عنى أو أسمع أصوات عيالى ولو مرة واحدة فافرح وأرقص على حافة الترعة مثلما كنت أفعل فى الزمن القديم، وزمن القدرة على معاودة الطلوع يتبدى لى فى البعيد وعدًا قابلاً للتحقق إذا صح عزم العيال.

* * *

• الفهـــرس •

• رسام الأرانب ٧

رسام الأرانب.. ٩

الوريثان وفضلة الميراث.................................... ١٩

والبنت كانت بنت موت...................................... ٣١

عن الأحـلام المبتورة... ٥٣

عن الحلم المـمتـد... ٦٣

طـالق المطـلـوق.. ٧٣

الخروج من المدخل الأخضر................................ ٨٧

ابن خالتى «نون».. ٩٩

الخط الأخير فى لوحة الذكريات........................ ١٠٩

الكلام السـاكت.. ١١٥

إشـــارات.. ١٢٢

هى أعمال تعالج قضايا القرية المصرية بشكل أساسى وتقدم عوالمها وشخصياتها وتحاول أن ترصد المتغيرات التى حدثت على إمتداد سبعون عاماً من علاقات بين الأجداد والابناء والاحفاد. يضاف إلى ذلك معالجة التعامل بين أبناء القرية والناس فى المدينة وأظهار مناطق الاتفاق والاختلاف بينهما.

الغلاف: صبرى عبد الواحد

الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٥ جنيه